قبضة ماء

قبضة ماء

رواية

اسمهان الزعيم

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

دار الأمان
الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0172-2

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
بيروت - لبنان

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
الهاتف: 537.72.32.76 (212) - الفاكس: 537.20.00.55 (212)
البريد الالكتروني: darelamane@menara.ma

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

الإهـــدَاء

إلى أولئك الذين كلما تقدم بهم العمر
ازدادوا يقينا بأن الآتي أفضل

إلى أولئك الذين كنتُ أجهلهم
وحين عرفتهم اشتعل فتيل حبي لهم
وازدت تقديرا لنبلهم

اللوح..

يا ذاك اللوح المرمري،

هل تدري أني على حافة الجرح أهوي

وينوء كاهلي بوقع أقدامك

وصرير أبوابك؟

على عتبة المطار، بعد تسعة أشهر، سيذكر إيهاب بلوعة وجه هذه الصبية الصبوح، وتجرفه الذاكرة بعيدا فتحيله على أحداث هزته كريح عتية فيتراءى لعينيه مشهد الرمال المبللة بمويجات المساء المتكسرة على حواشي شاطئ اللاذقية، حيث كانت خطواته ترسم طريقا لا يعرف منتهاه. وكان الظرف في يده، أبيض، لا يعكر صفو صفحته سوى اسم إيهاب وقد كتب بقلم أسود وخط مرتجل.

كانت الشمس تسدل هدبها، بيْد أن شهبا ملتهبة كانت تتفتت شظاياها بين الحنايا في صمت مهيب. كان إيهاب يحمل الظرف، ولعل الظرف كان يحمله كما تحمل ريح عنيدة عشبة ذاوية في يوم عاصف. وطيّرت الريح المشاكسة الظرف من يده وهو يذرع الشاطئ، واخضرّ الموج في عينيه وأزهر كربوة من ربى الجنة، ورنت المزامير واصطكت بأذنيه أنغام دف لينة بديعة. وانبعث من ثنايا الموج سرب حمائم تشدو مهللة بمقدم طائر الجنة. وتقدمهم مفتونا بتدحرج الموج الأخضر المرصع بدموع الحمائم الفضية، وشيعته العيون المبهورة في ذهول واحتضنته أجنحة الموج. ولم تكد تصطفق مستعدة لمده المعهود حتى انسلت حمامة من بين السرب وطوقته بجناحيها وغرزت منقارها في ثوبه ورمت به خارج اليم. وأفاق إيهاب على صفع خفيف على خديه وضرب متواتر على صدره، ولم يجد بالشاطئ سوى شاب أسمر مبلل الثياب، مصفر الوجه، ينظر إليه مشدوها وقد تهدجت أنفاسه وكأنه صعد للتو جبلا شاهق الارتفاع. التقت نظراتهما، وتبادلا حديثا صامتا مليئا باللوم والشجا. وجاهد إيهاب نفسه كي يقول شيئا فألفى لسانه قد تيبس في جوفه، يأبى الكلام. وامتدت أصابع الشاب إليه تحثه على الصمت ريثما يسترجع أنفاسه وتعود إليه روحه. وحين

آنس منه جهدا مد يده إليه يساعده على القيام. وهمّ إيهاب بتوديع ذلك الشاب شاكرا له جميله، إلا أن ذلك الشاب استوقفه قائلا:

– تذكّر أن الدنيا بطولها وعرضها لا تساوي جناح بعوضة، فلا تضيع روحك على جناح البعوضة. قد أكون أنا أكثر منك بؤسا وأسوأ حظا، لكني ما تجرأت قط على مجرد التفكير فيما أقدمت عليه، وأنا هنا أجدني أحسن حالا وأفضل وضعا منك.

غادر إيهاب شاطئ اللاذقية لكن صدى كلمات ذلك الشاب ظل يتكسر بدواخله كهدير موج عنيد، وودّ لو يعود إلى الشاطئ مجددا كي يتملى وجه ذلك الشاب الغريب ويستعطفه لقبول صداقته، لكن الشمس كانت قد سربلت الأفق بخيوطها اللهيبية وغيبت ملامحها في أعطاف الموج البعيد. ثم سار يدكّ الثرى بخطوات وئيدة غير مستعجل وصوله إلى وسط المدينة حيث ترك حقيبته في أحد الفنادق المحاذية للشارع الكبير. وخطر له أن يقضي الليل كله يجوب شوارع المدينة ويذرع أزقتها الجانبية، لكن ثيابه المبتلة وخواطره المبلبلة وفؤاده الهاجع على كوة البركان لم تكن لتسمح له في مجرد التلكؤ في السير أو التردد في التفكير؛ فانبرى يحث الخطى نحو الفندق هاربا كمفزوع من شبح ذلك الأخطبوط الذي تلبسه وألقى به بين براثن الموت. لكنه وهو يتمدد فوق سريره بثيابه المبللة وحذائه الذي تهتك من أثر البلل والملح، طوقه صوت خفي ساخر يصم أذنيه من حيث لا يدري، فألفى إصبعيه قد سبقاه إلى أذنيه يمنعان عنه حدة الصوت الزاجر كموج عتي شرس يتحدى صلابة الصخر الناتئ. كم بدوتَ جبانا حين استسلمت صاغرا ليد الشاب.. أين جرأتك إذن وعزمك الصلب على إنهاء المأساة؟ عزمت على طمس الحقيقة في جوف البحر وألقيتَ بالظرف في مهب الريح حتى يذهب الجمل بما حمل، لكن عزمك تكسر فجأة على صخرة الواقع الصلدة وحط

الظرف في كف الشاب كطائر يستغيث ويعلن اندحار الغريق.. ووخزه صوت آخر من حيث لا يدري قائلا: أين عزيمتك إذن وإيمانك القوي وصلابتك؟ كيف يندثر وجه الجمال فيك يا إيهاب ويستحيل وجهك إلى سراب؟ كيف تنثر روحك كذرات الرماد ويستعصي عليك حمل ظرف لم يكن يحمل لك سوى وجه الحقيقة؟ لو قال لك أحدهم هل تحب الحقيقة؟ لقلت له ساخرا: كيف لا أحب الحقيقة؟ إنها النور والملاذ والمرفأ لمن لا مرفأ له.. وها هي ذي الحقيقة تأتيك صامتة، متدثرة في مغلف رسالة فتشعر بسطورها وكلماتها وجملها ونقاطها المتقاطعة مكشرة كأنها سكاكين عمياء تضرب في كبد السماء وبسطة الأرض كل عابر سبيل. وكنت أنت عابر السبيل الذي يستضيء بنور شمعة متوهجة.. وكانت الشمعة وجه أمك الدافئ الذي أنار لك سراديب العمر.. وفجأة، انطفأت الشمعة وتفحمت أطرافها وانقلب حبك الكبير لها مقتا لا يتصوره عقل ولا يتحمله وجدان.. يوه.. يا ابني.. يا غالي.. يا نور عيني.. كل هذا يبدر منك لمجرد أنني جعلت نصب عينيك الحقيقة؟ كل هذا لأنني أرحت ضميري قبل أن أغمض عيني وأطلعتك على الحقيقة؟ لو أنني رأيت ما رأيت منك وسمعت ما سمعته قبل أن أغمض جفني لجفل النوم من عيني ولاستنكرت لعيني ما رأت ولأذني ما سمعت.. ولقلت إنني واهمة، مجرد واهمة.. إيهاب ابني لا يعرف قلبه المقت ولا اقتفى طريقه اليأس والقنوط. اخس عليك.. خيبت ظني فيك يا ابني.. يا غالي.. يا نور عيني..

وضجت أذناه بوقع كلمات الخساسة والخيبة فانتابه اليأس مجددا وأوشك أن يصك أذنيه من وقع هذه الكلمات الحادة، وخيل إليه أنها هامات بشرية تتعقبه وتلوح له بأصابعها الزرقاء من خلف الموج الثائر الممتعض. ورأى أمه تمسح عن عينيها دمعة هاربة وترمقه بابتسامة هادئة وقد أفضت نظراتها الساهمة بسر شفيف بالكاد تسعى

إلى تحصينه. ونظرت خلف النافذة التي تسربت إليها أشعة شمس الأصيل في ذلك المساء الخريفي المحفوف بالألغاز، ولم تفتأ أن قالت له مدارية حزنها العميق:

«أنت يا ولدي ما زلت شابا غرا في مقتبل العمر، وما زالت الحياة فاتحة ذراعيها إليك، مبتسمة لك، تعدك بالكثير، وقد أنعمت عليك الأقدار بأب حنون، عطوف وكريم قلما يجود الزمان بمثله، وقد كان لي بمثابة التعويض الرباني عن كل خسائري الفادحة في الزمن الآفل.. أنت لا تعرف شيئا عن الدنيا، فالمال يجري بين يديك كصنبور ماء، أضف إلى ذلك أنك ابننا الوحيد، يعني لا أحد ينافسك حبنا ولا مالنا، فالكل لك ولك وحدك..» ثم أطرقت ذاهلة وكأن الكلمات جفلت من حلقها، وتنحنحت ودارت دمعة ساخنة في المآقي وقالت له في شبه رجاء وكأنها تقرأ الغيب: «من يدري لعلي أسبق والدك إلى دار البقاء - لم يكن في تلك الأثناء قد تمكّن منها داء السرطان، رغم أن بعض أعراضه وإرهاصاته بدأت تبدو للعيان، فقد أخذت جفونها تزرق وتتهدل - وأود أن آخذ منك وعدا وعهدا بأن تحسن لوالدك كما أحسن إليك وألا تنقلب عليه حين ينقلب الزمان..».

هل كانت تهيئه قبل ثلاث سنوات على وفاتها لتقبّل الحقيقة المرة بصدر رحب وقلب متسامح كبير؟ هل كانت تتوقع أن ينقلب ابنها على عقبيه وينتكص ويحرق الأخضر باليابس؟ ثم عاد يقلب وريقات الخطاب المشؤوم الذي تبلل بماء البحر المالح وبدت سطوره كأنها بدورها تبكي وتنتحب كما بكت أمه في ذلك المساء الخريفي المنصرم. وهزته بقوة رنة الهاتف الذي ما أن لمح على شاشته اسم والده حتى جفل وارتبك ولم يدر أيرد عليه أم يتركه ينتحب هو بدوره على طريقته الخاصة. واستمر الرنين يشق هدأة الليل في غرفته بالفندق ورأى والده يغرقه في بحبوحة من نظراته الحانية وكأنه أم ينفطر قلبها

على ابنها الوحيد والأوحد، فمد يده إلى الهاتف فوصلته كلمات أبيه متقطعة متهدجة:

– شو بك إيهاب؟ أتتركني لقمة سائغة للشك والخوف والترقب ولا ترد على هواتفي؟ ثلاثة أيام بطولها وعرضها وأنا أسأل عنك في حارات دمشق عند الأقارب والأباعد وأنت غارق في تيهك وكأنك في غيبوبة عن الدنيا..

ثم انقطع حديث اللوم برهة وأردف قائلا بلهجة يكتنفها التقريع والتودد في آن:

– إذا كانت أمك قد ماتت فقد رحمها الله من العذاب، لكن لا تسع إلى قتلي بسلوكك المتهور.. لماذا الفرار والهروب إذن من واقع ليس بمقدورنا تغييره ولا تجميله؟ أنا أبوك وأمك يا إيهاب.. هل نسيت حبي الكبير لك؟

وانقطع الصوت ثانية وقد تهدج بحشرجة بكاء، ولم يكد إيهاب ينبس بكلمة حتى خرس الهاتف وانطفأت حرارته وعاد الصمت مهيبا، رهيبا في الغرفة كوحشة قبر. وانتابته رجفة من وقع الكلمات المؤنبة الجارحة التي صمّت أذنيه، وعادت تقرعها من جديد كلمات دامعة مبتهلة متسللة من بين شقوق الذاكرة: «لا تنقلب عليه حين ينقلب الزمان..» وتأوه جزعا وهو ينظر إلى الدنيا كدوامة مجنونة تهصر البشر هصرا، وخيل إليه أنها تصب جام غضبها عليه وهو شاب لا يزال في مقتبل العمر، وتسكب في جوفه من شواظها، فلعنها سرا وجهرا وتأوه ثانية فتسربت من بين أسنانه المضغوطة عبارة طالما رددها سرا: «الزمن.. آه من الزمن.. يا ليت الزمان يعود..» وتذكر آنفا نزهاته اللذيذة الخالدة ذات ربيع ولّى رفقة أبويه وخالته وزوجها الأردني وطفلتهما رولا ذات الضفائر الذهبية، والأهداب الشقراء الكثة، والعيون النجلاء كعيون ظبية، وهو يرفل رفقتها ويتراكض على ضفاف

نهر بردى كفراشات جذلى، وأمهاتهما تنهرانهما وتتوعدانهما بالعقاب بعد أن بللا ثيابهما بالماء المطين الراكد على شكل بركة على حواشي النهر. وسمع رولا تهمس له قائلة:

– لمحت في الضفة الأخرى من النهر، خلف شجرة سرو، فتاة وفتى يجذبها من ثوبها ويقبّلها من عنقها..

واحمرت وجنتاه من الخجل، ورأى نفسه فتى يافعا كذلك الفتى ورولا غادة تجر خلفها تنورة حريرية طويلة، وتجره خلفها بنظرات آسرة، وتبتسم له ابتسامة غامضة تشف عن أسنان مرصوصة، وشفتين مرسومتين، مكتنزتين، شهيتين ومغريتين.

لم تكن رولا ابنة خالته ولا أمها خالته حقا، بل كانت صديقة حميمة لأمه يناديها خالتي نظرا للصداقة الكبيرة التي ربطت أمه بها. وكانت أواصر الصداقة قد توطدت بينهما وهما على أرض العراق حين جمعهما الجوار في إحدى حارات بغداد القديمة. وشاءت الأقدار أن تجمعهما ثانية في دمشق بعد أن تزوجت أمه بالدمشقي نوري الصمدي صاحب معمل النسيج الثري بينما كان الأردني حامد صدوق الأستاذ الجامعي من نصيب صديقة وجارة أمه في بغداد. وسمع إيهاب أمه تحدثه يوما عن بعض تفاصيل حياتها وحياة صديقتها وأطلعته على سر من أسرار صديقتها حين أسرت له بأنها كانت على علاقة عاطفية بطالب عراقي مناضل عرف بميولاته الشيوعية وبتمرده الكبير على أعراف وتقاليد المجتمع العراقي المحافظ آنذاك. وتقدم لخطبتها وفي نيته أن الحب العارم الذي جمعه بليّانة كان كافيا لتحصين علاقتهما من الفشل، وفوجئ برفض قاطع لعائلتها لمشروع الزواج بعد أن تسربت إلى علم والدها الشيخ نفحة من توجهات ذلك الشاب. وزاد في الطين بلة حين أبلغه فاعل خير أن هذا الخطيب يتعقب خطواته ذوو السلطة والنفوذ وأن مآله سيكون لا محالة التصفية الجسدية أو السجن المؤبد

في أحسن الأحوال. وسكبت أم إيهاب العاشقة للتفاصيل المزيد من توابل الحكاية فهمست له بأن ليانة حاولت الفرار مع ذلك الشاب لكنها أثنتها على ذلك محذرة إياها من عواقب الأمور وأنها قد تجني على عمرها إن هي تمادت في التمسك بهذه اللعبة المجنونة. وتعجب إيهاب الآن وهو يجتر ذكريات الماضي البعيد، الأسية منها والبهية، كيف أن أمه العاشقة للحكاية وسراديبها لم تجرؤ يوما على النبش في سيرتها هي بالذات، وتركت تفاصيلها الدقيقة مدفونة في ركن قصي جدا من حنايا الفؤاد، بيد أنها كانت تفعل ذلك بتلذذ كبير حين يهم الأمر سير الآخرين من الجارات والصديقات والعمات والخالات والأجداد والجدات، بل كم مرة كان يحلو لها أن تحدثه حتى عن ذلك الإسكافي الأعمش الذي يقبع خلف الزقاق محشورا في دكانه الضيق كقبو في انتظار أن يأتيه أحدهم بحذاء متهتك، وحين يستعجله الزبون يكون هو قد هيأ بدهاء ما سيقوله له إن كان الزبون طفلا، فيقول له بمكر:

- لمن هذا الحذاء حبيبي؟

- لأمي.

- ماذا تطبخ أمك اليوم؟

- كبة برغل.

- ألا يعز عليك عمك قاسم - اسم الإسكافي - وهو يرتق لأمك ثقوب حذائها ومعدته تضرب الطبل والمزمار؟

يفغر الطفل فاه في عمه قاسم ولا يفهم مغزى حديثه، فيردف الإسكافي قائلا وقد افترت شفتاه المتورمتان عن ابتسامة ماكرة:

- روح لك جري على أمك وقل لها عمي قاسم يصبح عليك وحذاؤك سيكون جاهزا مساء كحذاء عروس شرط ألا تبخلي عليه بحبتي كبة..

ويستميلها حديث الذكريات الجارف فتسكب في أذنيه الصغيرتين من طرائف حارة باب الأغا عن خادم أسمر، قان، مثير القسمات، مفتول العضلات كان يشتغل بالفرن، وكيف أنه لم يترك صبية إلا وتغزل بها، وحين وصلت الحكاية إلى مسامع الأمهات والآباء قرروا خفية الانتقام منه، إلا أنه وُجد بين سكان الحارة من أسرّ للخادم بأنهم يأتمرون به قصد الثأر لشرف بناتهم، فكان أن تسلل من الحارة فجرا هربا من الثأر والفضيحة. وحين طلعت شمس الضحى على سكان حارة باب الأغا كان الفرن خلوا من خادمه، مفتوحا على مصراعيه، مما اضطر صاحب الفرن إلى تعويضه مؤقتا بأحد شبان الحارة الذي تطوع لعجن الرغيف وطبخه، فاحترق ما احترق من الرغيف وتكسر منه ما شاء أن يتكسر، وأضحى سكان الحارة يؤرخون بذلك الحدث الطريف فيقولون «حدث هذا قبل فرار جلوب.. ووقعت هذه بعد فرار جلوب..» ثم يردفون من النعوت لاسمه ما يحلو لهم أن يردفوا، فتجدهم يقولون بشماتة «جلوب المخبل.. جلوب المسودن.. جلوب المسطول..».

«كل هذه الحكايات الطريفة جُدت بها عليّ يا أمي وتركت مسك الختام للختام.. لماذا كل هذه القسوة يا أمي؟ ولماذا قسوت على نفسك وعليّ طوال سنوات العمر كله؟» خرج تساؤله بحرقة بعد أن عادت عيونه تلمس من جديد سطور الخطاب الدامع.. لكن سكينة عجيبة تملكته وشعر بها تنسكب على صدره بردا وسلاما وهو يعيد قراءة السطر الأخير من الصفحة الثانية للخطاب: «لا يعنيك إن كان أبوك الذي رباك سوريا أو أبوك الذي أنت من صلبه عراقيا، المهم والأهم بالنسبة إليك أنك ابن حلال، حملت بك بالحلال حين كنت على ذمة أبيك العراقي، وشاءت الأقدار أن نفترق أنا وأبوك بعد شهر واحد على زواجنا، وليس المجال هنا مناسبا للخوض في أسباب

الطلاق لكني سأقول لك باختصار شديد أنني كنت شديدة الغيرة على أبيك وكان هو مزاجيا، فجاء الطلاق كصفعة قوية لي من يد القدر، ولست أدري إن كانت الصفعة قوية بالنسبة إليه أيضا. ثم زفني القدر عروسا مجددا إلى أبيك السوري الذي أخفيت عنه حملي انتقاما من أبيك العراقي. وإن كان سيحسب علي من ذنب فسيكون ذنبي الوحيد أنني أخفيت هذه الحقيقة على الجميع بمن فيهم أبيك السوري. وأنا إذ أسر إليك بهذا السر الدفين الذي قبع في الحنايا عمرا بأكمله لا أودك أن تسر به لأحد، فالسر يا ابني إذا زاد عن اثنين انتشر. والآن، وبعد أن أفضيت لك بما أضناني العمر كله لك أن تغفر لي أو لا تغفر، لكني أطمع دائما في عفوك وعفو رب العالمين..».

وهبَّ واقفا كأن عقربا لدغته وفتح المغلف ثانية ونحى الأوراق المكتظة جانبا واستل من بين طياتها صورة بالألوان، وطفق يتأملها وكأنه يراها لأول مرة، وقام متخاذلا إلى المرآة وتسمّر أمامها وجعل ينظر إلى الصورة ويتأمل ذاته في شبه ذهول ويرى بأم عينيه مدى الشبه الذي يجمعه بالذي في الصورة، واستطاع أن يكتشف بيسر وجه الشبه، بل أدرك للتو أن الشبه كبير، وأيقن أن أمه صادقة فيما أفضت إليه به. واستحضر صورة أبيه السوري ببشرته البيضاء المشربة بالدم وشقرة شعره وربعة قده وتلون عينيه بأزرق سماوي دافئ، واكتشف مذعورا ألا شيء من ملامحه يربطه به. وازداد ذهولا حين أدرك لأول مرة غفلته اللامتناهية وكيف أنه لم يخطر بباله قط أن يقيم هذه المقارنة بينه وبين أبيه السوري ولا حتى بينه وبين أمه، فشعر بقشعريرة تلفه ثم انتابته حالة من الضياع. وانتبه فجأة إلى أنه يضغط الصورة بشكل عنيف بين أصابعه فقلب الصورة على ظهرها كي يقرأ ما كتب خلفها، فوجد خط أمه يقول: أبوك بسام وجدي كاظم على اليمين وصديقه إياد على اليسار، ثم تدحرجت نظراته إلى حافة الصورة فقرأ: الرباط

في 10-10-1992. وعاد إلى الصورة ثانية كأنما يستفسرها شيئا أو يستجديها بوحا، فقفزت إلى ذاكرته صورة ذلك الفنان الذي حضر إلى دمشق ليحل ضيف شرف على بعض حلقات مسلسل تاريخي يصوره أحد المخرجين السوريين، وكان إيهاب مساعده في الإخراج. واستحضر ملامحه بشكل ضبابي متذبذب، ثم اتضحت ملامح الفنان بقوة في مخيلته كأنما أزيح عنها ستار، ورأى قسماته تنسل من غلالة كثيفة.. وشرعت تتفحصه بإمعان وتكاد تصرخ في وجهه مستغيثة، فأغشي عليه وكادت تسرقه غفوة، ثم استفاق مذعورا بعد أن أدرك ذلك الشبه المثير الذي يجمع بين صورة أبيه وملامح ذلك الفنان. وفجأة حشر أصابعه في جيب بذلته وسحب هاتفه النقال، ولم تمر سوى بضع دقائق حتى وصله صوت المخرج محييا:

- هلا إيهاب.. شلونك؟

- بخير والحمد لله.

- انتظرناك ولم تأت..

- كنت متعبا، وأعتذر منك عن هذا الغياب الفجائي.. فقط وددت أن اطمئن على سير التصوير.. أنا الآن في اللاذقية.. أود أن أعرف منك اسم ضيف الشرف الذي شارك بالتمثيل في بعض الحلقات منذ شهر تقريبا.. لقد نسيت اسمه تماما..

- وما أهمية اسمه؟ لقد كان ضيفا عابرا وليس شخصية رئيسية في المسلسل.

- إنه مجرد حب استطلاع ليس إلا، هل لك أن تذكرني باسمه؟

فرد عليه المخرج بخبث ودهاء وهو يضحك ضحكة ماكرة:

- هل تود أن تعمل من ورايا، قل لي يا ماكر؟

- لا عمل ولا يحزنون، صدقني، فلا تراوغني أرجوك، إنه مجرد حب استطلاع كما قلت.

وأحس المخرج من نبرة صوته نغمة حزينة تكتنفه فود أن يجس نبض مساعده فعاد يقول:

- شو بك؟ إنت مو على بعضك.

فرد إيهاب متوجسا وقد جاهد نفسه ليخرج صوته عاديا بلا انفعال:

- أنا بألف خير، لا تشوش بالك.

فعقب المخرج قائلا:

- ضيف الشرف يا سيدي من بغداد لكنه يعيش الآن ويعمل بالمغرب، ويقيم بالعاصمة الرباط، اسمه الكامل بسام وجدي كاظم، وإن شئت أن أسلمك رقم هاتفه النقال بالمغرب فأنا لا زلت أحتفظ به.

ولم تكد تصل الكلمات إلى أذن إيهاب حتى قذف بالهاتف أرضا وترك الكلام يخرج منه متحشرجا كالأنين.. وبقي الصوت يتردد خافتا إلى أن انقطع.. وأقفل إيهاب باب غرفته تاركا هاتفه أرضا ثم عرج عبر ممرات الغرف هاربا من الهاتف ومن الغرفة ومن الفندق ومن الدنيا.. وأحس بقدميه كدوامة نارية تخترق به شوارع اللاذقية وتدفعه دفعا إلى شاطئها الخالي في ذلك المساء الخريفي البارد. وجلس هذه المرة على حافة الصخور الناتئة وألقى بحذائه جانبا وغطس رجليه في الماء المتموج في هدوء، ووصله صوت نوارس بعيدة كأنما تناغي بعضها كي يلتئم شملها ويهب السرب في رحلة جماعية إلى حيث الأشجار والأوكار.. ورأى الفنان بسام وجدي كاظم وقد اعتمر عمامة وتزمل في عباءة سوداء وطفق يجري في زقاق ضيق مظلم كأنما يقتفي آثار هارب أو كأنما هو الهارب نفسه من شبح، ثم رآه يقعد على الكرسي وقد أحاط به الماكيير وأخذ ينثر أصباغه فوق أرنبة أنفه وعلى ذقنه ووجنتيه، ومرر قلما بنفسجيا غامقا فوق شفتيه، ثم عاد ثانية يحيط حافة العينين بكحل باهت، ودعك بيديه الكحل حتى تسرب تحت

الجفـون، فنظـر بسـام حولـه فوجـد إيهاب علـى مقربة منه يتأمل عمل الماكيير، فأخـذ يتأملـه ويتملاه وسـرحت عيناه فـي المجهول، فبادره إيهاب قائلا:

- هل الأستاذ بخير؟

واهتز بسام لسؤال إيهاب كأنما أيقظه من غفوة، فجعل يقول:

- هل أنت من دمشق؟

- نعم، أنا دمشقي، أبي من سوريا وأمي من العراق..

وابتسـم بسـام ابتسـامة شـفيفة دون أن ينبس بكلمة وعاد الماكيير يـرش مـن جديـد بعـض البـدرة على ذقن بسـام وتحت عنقه، وسـمع المخرج يستعجل الماكيير ليتسنى له تصوير آخر لقطات حلقة اليوم.

كان المـوج هادئـا يتكسـر علـى حافة الصخـور الصلدة، وكانت قدمـا إيهـاب غاطسـتين فـي المـاء تداعبان تثـاؤب الموج، وموج آخر عتي يتكسـر على حافة وجدانه. وكانت الشـمس تتأهب للأفول لكن جمـرة ملتهبـة كانـت تحتـرق بأعماقه مخلفة كوة عميقة كفوهة بركان. وأخذت تتناسل من مخيلته الأقوال والأفعال.. لن أعود إلى دمشق.. بلى سـأعود.. من البلادة ألا أعود.. سـأزور أبي السـوري.. لن أخبره شيئا.. قبل ذلك سأتصل بالمخرج لأعرف منه أين ذهب هذا البسام الذي ظهر فجأة واختفى ككوكب في السماء في ليلة ممطرة.. أبي كان بجانبي.. بالقرب مني، لكن أمي تأخرت قليلا فأفلت مني الخيط.. لا لم يفلت بعد.. قد ألحقه في أي مكان ولو في آخر الدنيا.. أمي قالت لـي: إن وطـن الرجـل الحقيقـي امـرأة، المرأة وطن الرجل في الغربة، وأبوك أحب امرأة في تلك البلاد.. هل تزوجها؟ من يدري.. وقالت لي إن أباك لا يعلم البتة بمولدك.. وترجتني بكلمات صامتة صاخبة ألا أحاسـبه.. ألا أعاتبـه.. وإن صادفـت والتقيتـه أن أعاملـه كصديق.. وأن أحبـه.. كيـف تلقنني مـاذا أفعـل وكيـف أفعله؟ سـأبحث عنه في

آخـر الدنيـا.. أود أن أتمـلاه.. أود أن أعـرف منـه كيـف طلـق والدتي ولماذا.. هذه قصة قديمة اعتراها الصدأ.. فلماذا نكء الجراح ونبش القبور؟ أود أن أعرف هذه المرأة التي أحبها.. لماذا أحبها ولم يحب أمي؟ سأبحث عنها في آخر الدنيا.. هي أيضا لا تعرفك ولا علم لها بوجودك، فلماذا الحساب والعقاب؟ أود أن أنظر في عينيها وأقرأ فيهما تفاصيل قصة حبهما.. أنتَ أيضا أحببت رولا وحين نضجت كحبة تين اختطفها صديقك في الدراسة ولم يكن على علم بحبك لها.. وأحببت بعدها مروة التي كانت على طرفي نقيض مع رولا الشقراء، الآسرة، المتعفرتـة، وكانـت مـروة هادئـة كمويجـات نهـر في المسـاء، وكانت عيناها الكحلاوان بريئتين، وبدت لك فتاة مليئة بالألغاز، وتنامى الشك بداخلـك كعفريـت فتخليـت عنها جزافا.. وعزفت عن الحب.. وحين ابتسم لك الحظ واختير اسمك ضمن الذين سيغادرون دمشق إلى لندن لمتابعة فن الإخراج في أحد المعاهد البريطانية وجدت نفسك تجوب شوارع لندن منبهرا بهدوء الفتيات اللندنيات، وتملكتك رغبة جامحة في الفوز بإحداهن ولو من باب ملء الفراغ.. وجادت عليك الصدف بإحداهـن.. وكانـت تأتيك مسـاء إلـى غرفتك بالحي الجامعي محملة بالشوكولاتة وقنينة بيرا.. وتشرعان في قضم الشوكولاتة واحتساء البيرة فتحمر وجنتاها فتقرصها من خدها فتميل على صدرك مداعبة وكنت.. وكنـت.. وكنـت.. لكنـك لـم تتمكـن من حبها رغم أنها جادت عليك بكل مفاتنها.. وجاء يوم الرحيل وهبت إليك مستعطفة تذرف الدموع، وترجتـك أن ترحـل معـك إلـى دمشـق وتعيش معـك هناك إلى الأبد، لكنك تعنّت ورفضتها بقسوة، وزدت على ذلك أنك وعدتها بالعودة إليها مجددا لكنك كنت كاذبا. فماذا تريد إذن وعمن تبحث في ثنايا السراب؟ وفيم تعنيك هذه المرأة التي أحبها أبوك أو أحبت أباك؟

وعاد إلى الغرفة بخطى وئيدة ونظرات مبهمة تكنس الممرات،

ووجد ذاته بين جدرانها يتفحص هاتفه مجددا، فقفز إلى عينيه اسم أبيه السوري وقد هاتفه أكثر من ثلاث مرات. لم يتردد هذه المرة ولم ينتظر، بل تحدث إلى والده فورا ووعده بالعودة غدا. وعاد غدا فوجد أباه في انتظاره بشوق عارم. ولم يكد يخرج من سيارته حتى احتضنه معانقا، باكيا ومعاتبا. وجفلت الدموع من عيني إيهاب وقرع مسمعه كالطنين حديث أمه: «لا تنقلب عليه حين ينقلب الزمان». ورآه يرفعه بيديه في السماء وهو طفل لا يزال يرتع في بحبوحة الصبا، وسمع دعاباته اللذيذة ترن في أذنيه كالهديل:

- شو راح تشتري لي لما تكبر يا شاطر؟
- سيارة كبيرة هل أد.
- والماما شو راح تشتري لها؟
- عقد ألماس.
- ومنين راح تجيب المصاري؟
- من شغلي.
- ويا ترى راح تتذكرنا لما تتجوز ولا راح تنسانا يا شاطر؟

وتملأ ضحكته الطفولية الفضاء ويعود الأب ثانية لرفعه في السماء وهو يردد:

- مصاري ومصاري الماما كلها إلك يا حبيبي..

ثم عادت تقاسيم أبيه السوري تنوشم على صفحة ذاكرته، وضجت أذناه بضحكة مدوية لصوت يمازحه قائلا:

- من مثلك؟ لك أبوان، واحد يعرفك وواحد لا يزال هائما في السديم.. لك أن تنادي أحدهما - الأصغر سنا - بابا والأكبر أبي، ولا أقول لك: ناد والدك السوري «أبي» ووالدك العراقي «عم بابا».. ثم اصطخب الفضاء بضحكات مجلجلة.. وكان طيف أبيه العراقي يغرق ليلتها في بركة ماء آسنة ومها تحاول عبثا إنقاذه من

براثن ماء طفت على صفحته الطحالب ونامت تحت أقدامه جيوش من الجراثيم، ورأت أن تمد قدميها نحو الماء الطافي على طين لزج فتقدمت خطوة وألقت إليه بعرش من فروع شجرة كالأبنوس.. وتمسك بها وجذبها نحوه في حركة جنونية لا يأتيها سوى غريق في لجة يم صاخب، واندفعت نحوه كأنما انقذفت من السماء، لكن الماء تيبس فجأة وصار الطحلب سروا وتحول الطين ربوة معلقة، وانسدلت ضفائر السرو فوقهما كجناحي حمامة تحفهما بدفء ريشها، وأرادت مها أن تتشبث بعروش السرو المدلى فألفت يدها تمسك بقوة فراش سريرها التي كانت تدس رأسها تحته.. وفتحت عينين محمرتين على فضاء غرفتها الغارقة في الصمت، واتجهت أصابعها تلقائيا ناحية الأباجورة، فأضاءت ظلام الغرفة الدامس، وألقت نظرة خاطفة على ساعة الحائط فإذا الليل ما يزال في بدايته والفجر على مبعدة أربع ساعات والنوم قد طار من الجفون كما يفر الطير حين يجفل من ضوء يداهمه في منتصف الليل. واستدارت صوب الحائط تراود النوم من جديد فدارت أحداث متشابكة برأسها كناعورة الوادي، وسمعت بسام يقول لها متنهدا: «ما أغرب أقدارنا، فهل سنظل نعيش أويقات قصيرة جدا تفصلها سراديب الغياب؟ هل قدرنا أن نحيا بين الغياب والغياب، وحين نلتقي لا يحدث ذلك إلا ليتصل بغياب آخر لم نعد نعرف مبتداه ولا منتهاه؟ لم أعد أفهم أقدارنا، ففي كل مرة أكتشفني جاهلا لعالم الغيب الغريب..».

- ومن منا يعلم الغيب؟ نسأل الله حسن الختام.
- وهل تستعجلين الختام؟ ماذا عشنا كي نستعجل النهاية؟
- لا أستعجل النهاية أبدا لكني أخشى القدر أحيانا.
- هل تؤمنين بالحدس كحاسة قوية تستشرف المستقبل؟
- أؤمن بما يحدثني به قلبي «قلب المؤمن دليله»، وأؤمن بالرؤيا،

فكثيرا ما دلتني على أشياء خفية مثيرة.

ثم أفلتت منها ضحكة ذات رنة، فوجدته يقول لها بإلحاح:

- ما الذي يضحكك؟ لا شك أنك تذكرت حلما ما.

- بل تذكرت طرائف كثيرة ارتبطت بالحلم، فخالتي مثلا وأغلب زميلاتي في العمل على علم بمدى شغفي بعالم الأحلام وتفسيره، ويعرفن جيدا أنني أستعين في فك ألغازها بكتب التفسير، وعلمن مؤخرا أنني اقتنيت من معرض الكتاب كتاب تفسير الأحلام الكبير للإمام محمد بن سيرين، إلا أن ما يثيرني في أمرهن هو سؤالهن الدائم والدؤوب لي عن معنى الجوع والهروب في المنام ومعنى الضحك حد البكاء في الحلم.. وأذكر يوما أن إحداهن سألتني تفسير حلم ما، وحين التجأت إلى بن سيرين وجدت شرحه فظيعا ومفجعا فقررت أن أموه التفسير وأقلبه رأسا على عقب، ففرحت زميلتي فرحة كبرى دفعتها إلى لثم خدي بقبلات حارة والدعاء لي وأنا أهمس لنفسي «آه لو تعرفين ما قاله بن سيرين».

كان حديثهما طويلا ذلك المساء، ولم يصدق بسام أن مها عادت إليه بعد غياب أربكه وهز أوتار نفسه، ووجد ذاته يقول لها:

- كيف عرفت بوجودي في الوداية؟

- اللي بلسانه ما يتيه.

- هل التقيت بإياد؟

- بل ذهبت إلى حارس العمارة حيث تقطن، وهو من دلني على طريقك.. تذكر أن حراس العمارات هم فوق ذلك مرشدون وندل ومخبرون وخطاب أحيانا.

ثم أضافت وقد سربلت كلامها بمزاح ساخر:

- يستحقون بذلك راتبا عاليا لأن وظيفتهم متعددة المشارب والتوجهات.

- لكني أجد حارس عمارتي يستحق مني هذه المرة حلاوة لأنه دلك على الطريق ويسر لك عملية البحث عني.

وأمنت مها على قوله مردفة:

- ومني أيضا.

ثم أشاحت عنه بوجهها ونظرت نحو الأفق الممتد وقد تلون بوشاح برتقالي، وتذكرت جولاتهما العديدة قبل الغياب بمحاذاة البحر وكم كان يحلو لها أن تشيع قرص الشمس الملتهب وهو يغرق بهدوء خلاب في جوف البحر. وحانت منها نظرة خاطفة إلى بسام فألفته يتأملها وهي غارقة في شرودها فما فتئ أن حول نظره عنها وكأنه خجلان، ثم عاد يرشقها بنظرات جذلى فامتدت أصابعه إلى يدها، وجفلت من أعماقها لكنها تركت يدها في يده، ومد يده إلى كتفها وضغطه بمسكنة حتى دنا من رأسها الصغير فمال إليه ولثم شعرها، فتنحنحت قليلا وقالت له وهي تهرب بنفسها من نفسها ومن نظرات الناس:

- لقد تأخرنا..

ولم يزد على أن قال لها:

- طيب، لنعد توا.

وأمسك عصاه وترك بلطف كتف مها، ثم شرعا يحثان الخطى للوصول إلى قلب المدينة القديمة وقلباهما يرفان وعيونهما ما تزال متعطشة إلى المزيد من التنعم بالنظر في الوجه العزيز. وخطر بباله أن يدعوها إلى العشاء احتفاء بهذا اللقاء الفجائي السعيد بعد طول غياب لكنه تذكر توا خالتها وخشي أن يتسبب العشاء في نثر غبار خصام بين مها وخالتها، فأرجأ الفكرة إلى يوم آخر على أن تكون الدعوة للغداء وليست للعشاء؛ إلا أن خالة مها كانت عند عتبة البيت في انتظار قدومها، ولم تكد تراها تعرج على الزقاق وتدنو من باب

المنـزل حتـى قالـت لهـا مؤنبـة وقـد احمرت عيناهـا على ما يبدو من أثر الدموع:

– أين تأخرت كل هذا الوقت؟ يبدو أنك نسيت أن لك خالة تحبك وتخاف عليك حتى من نسمة الريح العابرة؟

– لم أنسَ شيئا يا خالتي، كيف أعتذر منك؟ لقد التقيت بالصدفة صديقة لم أرها منذ فترة طويلة فأخذنا الحديث بعيدا.

– أهي صديقة حقا أم صديق؟

فاهتزت خلجات مها بعنف لشكوك خالتها وراودها شك في أن تكون قد اقتفت آثارها ورأت بأم عينيها هذا الصديق، لكنها استجمعت قوتها استعدادا للدفاع باستماتة عن كذبتها:

– ألم تصدقيني يا خالتي؟ لو كان صديقا لكنت حدثتك عنه.

– ليتك تحدثينني عنه لأرتاح.

– أنا لا أفهم قصدك يا خالتي؟

– لا أخفيك سرا أن غيابك وسفرك المفاجئ إلى الصويرة هزني من الأعماق وشوش بالي عنك، فهل لي أن أعرف سببه؟

– كنت متعبة يا خالتي وكانت تلزمني فترة من الهدوء النفسي كي أسـترجع أنفاسـي وأسـتطيع بعدها اسـتئناف عملي، هذا كل ما في الأمر.

– وما سبب هذا التعب يا ابنتي؟ أخبريني.. أفصحي وأريحيني الله يفرج عليك دنيا وآخرة.

ووصـل النقـاش الحـاد بينهمـا إلـى عنـق الزجاجـة، وألفت مها ذاتهـا أمـام وجـه لـم تعهـده مـن قبل في خالتها، فقد فار التنور وقذف البـركان بحممـه علـى عتبـة الـدار، وآلمهـا أن تـرى خالتها على تلك الحال من التألم والتمزق، وآلمها أكثر أن تكون السـبب في شـقائها. فكيف لها أن تسـكب الجليد على حمم البركان وتهون على خالتها

ما ذهبت إليه ظنونها. «لكن لم العجب؟ فإذا كان من أمر يستحق العجب فلتعجبي من نفسك حين اعتقدت أن خالتك ساذجة ونائمة على شط الطمأنينة وراحة البال، بيد أن الأمر كان على عكس ما توقعت، صمتك واحتياطك وتسترك على كل خصوصياتك غرسوا في نفسها الريبة والتوجس. لو كنت تثرثرين معها كل مساء بأحاديث النساء لكنت بدوت لها أكثر وضوحا، كأن تقولي لها مثلا: لقد تعقب أثري فتى وسيم وغازلني وأوشك أن يمسك بيدي، أو أن تقولي لها ضاحكة: هل تعرفين يا خالتي أن أول أمس اعترض طريقي رجل كهل وبادرني بالسؤال عن أحد البيوت وحين أجبته نافية معرفته ورفعت عيني في وجهه وجدت جبينه وعنقه يرشحان عرقا وهو يلهث كمن يصعد درجا، وحين هممت بتركه قال لي متلعثما وقد انخطفت عيناه:

– علاش الزين ما تشرفينيش في الدار ديالي؟ راه عليك الأمان وتلقايني بحال خوك.. وستجدين خالتك ساعتها قد انتفضت وشرعت تصب على الكهل وابلا من شتائمها ولعناتها، ولن يكون أهونها على سبيل المثال لا الحصر سوى:

– الله يخوي ليه العينين، قال ليك خوك، تخاويه جنية وما تحن عليه إن شاء الله.. شرفوا وهرفوا وما كبر ليهم عقل.. هذا اللي بقى لينا.. آخر الزمان هذا..».

فار التنور وتراجع البركان وانطفأت الحمم، «وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي»، ووجدت مها ذاتها تعيش غيابا من نوع آخر. فهي الآن، بعد سفر بسام إلى سوريا قصد تصوير المسلسل لا تنتظر عودته ولا تعتقد أن أحدا ينتظرها، وهو حين قال لها:

– ربما أخطف سفرة قصيرة إلى بغداد وأزور ابن خالتي الذي أفرج عنه مؤخرا بعد سجن دام ثلاث سنوات..

نظرت إليه مليا وقرأت كلاما خفيا في عينيه، فوجدتهما تسران لها

بعزم بسام على الرحيل. ولطالما حدثها برغبته الملحة في العودة إلى وطنه رغم معرفته الدقيقة بأن ظروف بلده الحالية لا تشجع على مجرد التفكير في السفر فبالأحرى الإقامة والاستقرار. وقالت في خاطرها كأنها تجادله: «من لك هناك في بغداد؟ أحبابك تفرقوا كلهم، بعضهم يحتضنهم التراب وبعضهم الآخر فرقتهم المنافي، فلم العودة إذن إلى وطن يخلو من وجه الأحباب؟ ألم تجد لك في المغرب ملاذا ودفئا؟ عمن تبحث إذن يا بسام، ولم الفرار العبثي وقد جمعت شملنا الأقدار؟ القلب يبكي والصدر ينزف والحرقة في الجوف تعجز عن وصفها الكلمات.. لن أقول لك امكث معي في بلدي ما دمت فضلت التوهان، ولن أجري وراءك كمخبولة في البلدان، لكني لن أدخل في صراع مع ذاتي ولا مع مشاعري، للفؤاد وحده سلطة التذكر أو النسيان، وما دمت أعرفني جيدا وأعرف أغوار الوجدان سأدع قلبي يحيا على هواه ما دام قد زهد في الدنيا واختار لنفسه أن يعيش على بقايا الذكرى.. وحدها الذكرى تكبلني، وحدها الذكرى تسوقني إلى مجاهل ذاتي.. سمعت بقصص الكثيرين والكثيرات.. لكن من سمع ليس كمن رأى، ومن تجرع مرارة الألم ليس كمن قرأ عنها.. وحدها الوحدة الفظيعة تشتتني وتلمني على طريقتها.. وحدها مسارب العزلة تقذف بي في مغارات موحشة حالكة.. وحده الظلام الدامس علمني أن أغمض عيني وأستحضر بقوة توهج النيران والأنوار في زمن ولّى واندحر.. وأنت يا بسام لك أن تهيم على وجهك وتبحث كممسوس عن ضوء النهار.. لا أجحد لك حقك في البحث واستماتتك في التنقيب عن ذرة أمل أو بصيص نور، ولو عاد الأمر إلي لسبقتك إلى هناك لأفرش لك الأرض فُلاًّ وأزرع لك الجنان نخلا.. كنت أعرف مدى تشبثك بأحلامك وكنت أعتقدني حلما من أحلامك.. وها أنا ذي أستيقظ مذعورة على ذوبانك كطبق ملح في جنح الظلام.. لك الفرّ والكر

ولـي الأحـلام الجامحـة.. سـأعيش علـى هذا الجموح الذي لا يعرف النكوص.. كنت أحسب.. ماذا تحسبين؟ وهمهم صوت من حيث لا تدرين «لو اطلعت على ما وقعت فيه قدما بسام لوليت فرارا وملئت رعبـا..» وسـاقتك قدمـاك إلـى حيـث يتردد الصـوت، ولم تترددي في اقتحام مكان مهجور خرمت حيطانه بقذائف المسدسات الأوتوماتيكية والصواريـخ اليدويـة، وجعلـت تتأملين مبهورة هـذا الخراب الذي لا يعرف الحدود، وانتبهت على نقر طائر فريد الشكل، عجيب الأطوار، وأخذت تتأملين ريشـه المنمش بشـتى ألوان الربيع الزاهية كأنه جنة تطير بجناحين، وحدق الطائر فيك بعينيه الصغيرتين وقفز وحط على كتفيك.. ومددت يدك إليه كي تمسكيه وتربتي على ذيله العجيب فإذا به يتحول إلى مزمار يتلوى، واندهشت وأنت تتلقين أنغامه الساحرة، وكاد يغمى عليك وهو يوشـوش لك بالسـر العجيب، لكنك امتثلت لتعاليمه وهو يفضي إليك بشروط المصاحبة، فوجدت نفسك تهمسين له خائفة «أنا رهن الإشـارة شـرط أن تدلني على طريقه ولو في آخر الدنيا..» وحشرج صوت المزمار بالقول: «نحن في آخر الدنيا.. فهل هناك خراب يشبه هذا الخراب؟ وهل هناك فتنة تشبه هذه الفتنة؟ وهل هناك فتك وسفك ودمار يشبه هذا الدمار؟ لو طفت بك في آخر الدنيا ما وجدت أرضا سقيت دما كهذه الأرض، ولا وجدت أناسا تشربوا هما وكربا كهؤلاء الناس..» وظل الصوت يخفت ويتلاشى حتى حطت قدماك على ربوة تعتليها شجرة أبنوس، واكتنفك الظل المديد كخيمة، والتفت تبحثين لا شعوريا عن طائر الذيل العجيب، فوجدته قد حط بدوره فوق نخلة وارفة مثقلة جرائدها بالبلح، وطفق ينقر بمنقاره حبة بلح، فسمع للتو دوي طلقة نارية خلف النخلة يهز أعنانها، فطار الطائر مذعـورا وألفيـت نفسـك خلفه تجريـن الخطى ممتثلة لحركاته، وحط ثانية على ضفاف جدول صغير، وكان العطش قد نشف جوفكما، ودنا

من الجدول فدنوت منه وما كدتما ترشفان رشفة من مائه المنساب كخيط فضة حتى طفقت يد من حيث لا تدريان تلقي عليكما بشباكها وتمنعكما من الشرب والحركة، فوشوش الطائر في أذنيك متذمرا: «ألم أحدثك عن آخر الدنيا؟ هذه آخر الدنيا حيث لا طعام ولا شراب ولا سلام ولا أمان ولا ملاذ.. هنا سترين ما لا عين رأت وتسمعين ما لا أذن سمعت.. هنا ستقفين على آخر ما صنعته أيدي البشر.. هنا سترين ما خفى وما بطن.. هنا ستمرين كالحالم المستنيم على روضة استحالت إلى قفر وعلى عيون غارت مياهها كأنما طمستها لعنة القدر.. هنا ستشهدين على أفول الدنيا وعودة المغول والتتار والبربر.. وفتحت عينيك على حشد من البشر يهرولون مذعورين من صوت القذائف ورائحة نتانة ترشح من برك الدم، وتبين لك بين الفارين بدو حفاة تتناثر من أعينهم شرارات الضجر، وسمعت امرأة بينهم تصيح بأعلى صوتها مولولة وتحدث الناس كيف أن شاحنة زوجها المملوءة بالفواكه والخضر اعترضها المرتزقة بعد أن فجروا عجلاتها فتوقفت للتو.. ولم يتوانوا عن قتل الزوج ومن معه على مرأى من أطفالها ثم ما لبثوا أن أفرغوا الشاحنة من محتوياتها وشرعوا يدوسون بأحذيتهم الثقيلة على دم أصحابها بدم بارد.. وتزايد صياح المرأة كأنما ركبها الجنون، فوصلت كلماتها كقذائف إلى مسامعك: «ألسنا بلداء حين نحج إلى الأسواق والمساجد في زمن التتار والمغول؟ ألسنا سذجا وبلها وعديمي ضمائر حين نولي العدو ظهورنا ونترك قذائفه تخترق ضلوعنا؟ ألسنا جهلاء وعملاء حين نصدق ببلاهة أن تفجير أسواق البصرة كان من صنع أهل الشيعة وتفجير مساجد كربلاء كان من صنع أفاعيل السنة، وتفجير المدارس كان من صنيع الأكراد؟ متى ستتوقف هذه المهزلة؟ متى سنستيقظ من سباتنا ونعي أن جملة القذائف التي تشق ظهورنا وصدورنا إنما هي قادمة من كانون واحد صنعه المغول

والتتار القادم من وراء البحار؟ خلعت آهات المرأة قلبك خلعا فجعلت ترتجفين ارتجافا كمن صب عليك إناء من الثلج، وحين التفت ناحية النافذة كان الطائر العجيب لا يزال ينقر زجاج نافذتك كأنما يستحثك على القيام بعد أن غمرت أشعة الشمس الخجولة المكان..

قامت مها متثاقلة من سريرها وفتحت النافذة، فقفز الطائر الفريد إلى عروش شجرة ياسمين تدلت في سخاء من بهو بيت الجيران، وطفقت تتأمل الطير ويتأملها وتحدثه ويحدثها بلغة صامتة بليغة، لكنها أدركت من إيماءاته أنه يعقد لها موعدا في كل مساء، وأدركت من نظراته أنه يود جادا أن يؤنس وحدتها ويطير بها إلى حيث يطير، وينزل بها إلى حيث ينزل ويجعلها وإياه تهيم على وجهها وهي تطل على حافة الدنيا. وانتفضت مها من سريرها متجهة إلى غرفة خالتها لتزف لها ما رأت وما سمعت. وذهلت خالتها وهي تسمع منها ما لم تتوقعه قط، واعتراها الريب وهي تقرأ في ملامحها الجدية، وخامرها شك في أن ما روته لها مها مجرد حلم اعتقدته واقعا، لكن مها أصرت على تأكيد ما رأت مبرهنة على ذلك برؤية الطائر العجيب الذي ظل ينقر زجاج نافذتها إلى أن فتحتها وقفز توا إلى عروش شجرة الياسمين المطلة على الزقاق من بيت الجيران. كانت خالة مها تنصت في دهشة وذهول كبيرين إلى حديث مها الجاد، وتمتمت في سرها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم وتفلت في كلتا يديها ومسحت على شعر مها وهي تغمغم:

– ما هذا يا ابنتي إلا مس من الشيطان، فأنا منذ فترة لم أطلق البخور في الدار..

فقالت لها مها منتهرة:

– أنت تعرفين أنني أكره البخور وأمقت الاعتقاد بالشعوذة.

– ليس في الأمر شعوذة يا ابنتي، فأنا مثلك أكره الشعوذة، لكني أخشى أن يكون أصابك مس من الجن والعياذ بالله، وهذا كما تعلمين

مذكور في القرآن.. وأتوجس أن يكون ما سمعته ورأيته من ذلك الطائر الغريب عفريتا من الجن تمثل لك في هيئة طائر عجيب يحدثك ويطلعك على ما لا يخطر ببال.. ألم تحدثيني يوما عن طائر الهدهد وقصته مع سيدنا سليمان؟

فانتفضت مها ضاحكة وهي تقول مستنكرة:

- معاذ الله، فهل أنا سيدنا سليمان كي يكلمني الهدهد؟

- وكيف تريدينني أن أفهم الأمر؟ أنا متيقنة أن الشياطين والعفاريت سكنت هذا البيت حين سافرت إلى الصويرة وغادرت بعدك إلى فاس، وأشك أن تكون إحدى جاراتنا الشمطاء قد فعلت فعلتها وقذفت بشيء والعياذ بالله فوق سطح البيت، فبات بيتنا مرتعا للشياطين والعفاريت..

- كفى يا خالتي من الأوهام ولا تشغلي بالك بما حكيته لك، ربما أكون مجرد واهمة.

- أنت لست واهمة، لقد لاحظت مؤخرا شرودك الطويل وضياع نظراتك في الفراغ، وأخشى أن يكون أحدهم سحرك..

فقالت مها في سرها وقد كبتت ضحكة خافتة: «أنت محقة في هذه، لقد سحرني أحدهم، نعم، لكن سحره لا دخل فيه لشياطينك وعفاريتك الأبرياء ولا دخل فيه أيضا لسحر الجارات وشعوذتهن، إنه سحر من نوع خاص لا ينفع معه دواء.. وتذكرت مها وهي تحدث نفسها ما نعتت به بسام يوما حين قالت له:

- أنت كالمغناطيس، وأتساءل كيف استمر مفعول مغناطيسك طيلة الستة عقود؟ هل تدعمه بشحنة جديدة من الوقود كلما أحسست منه برودا؟

وينطلق بسام في ضحكته الجهورية المعهودة ويعقب وقد ترنح من الضحك:

– الحكمة والسر الدفين يكمن في كيفية جعل هذا المغناطيس يشتغل على الدوام كبندول ساعة رملية لا يحتاج إلى بطارية.

ويعود صوت خالتها يهزها ويعيدها من حديثها الداخلي وذكرياتها المتناسلة إلى أرض الواقع:

– ها أنت تشردين ثانية، كيف تودين أن أصدق أن ليس في الأمر سحر؟ هل تعرفين أن النبي عليه الصلاة والسلام تعرّض لفعل السحر وتأثر بمفعوله؟

– نعم يا خالتي، لكن لا تهوّلي الأمر كثيرا، فأنا بألف خير، اطمئني..

ثم صمتت مها وهلة وقد انتابها الندم على ما أفضت به لخالتها، فوجدت نفسها تقول لها متأسفة:

– ندمت لأنني أسررت لك بما سمعت ورأيت، يبدو لي جليا أنني شوشت بالك كثيرا وتسببت لك في وجع الرأس من حيث لا أدري.

– إذا لم يكن أحدهم قد سحرك فعلا، وإذا كنت كما تقولين أن ليس بك لا مس من جن ولا سحر من إنس، فيقيني أن ما رأيت وسمعت كان مجرد هلوسات انتابتك من كثرة ما تقرئين من روايات مليئة بـ «التخاريف».

ولم تكد تصل إلى أذن مها هذه الكلمات حتى اهتزت ضحكا، فأردفت مؤمنة على قول خالتها:

– أنا معك في هذا التعريف الجميل للرواية، صدقيني، لم يسبقك أحد إليه، فقد فزت بالسبق في هذا النعت المذهل للرواية. هي حقا مليئة بـ«التخاريف» لكنها يا خالتي «تخاريف» لذيذة، مسلية وممتعة تنسينا رداءة هذا الزمن الأحول..

ثم ما لبثت أن وقعت عيناها على عقارب ساعة الحائط، فشهقت

وهي تراها على مشارف التاسعة، فأسرعت ترتدي ملابسها، وغادرت البيت دون أن تتناول وجبة الإفطار، رغم إصرار خالتها على شرب كوب لبن فقط. ولم تكد تطأ قدماها سلالم الوزارة وتلج مكتب الترجمة حتى وجدت صباح وباقي الزميلات يتهامسن بشأن أحد الموظفين - دون ذكر اسم الوزارة التي ينتمي إليها - الذي استولى على مساهمات بقية الموظفين الذين تكافلوا من أجل تقديم العزاء لأحد المستخدمين الضعفاء الذي ابتلي بوفاة ابنه وأخيه في حادثة سير مروعة.

- ما الأمر؟ فيما تتهامسن؟ تساءلت مها.

وردت صباح كعادتها ضاحكة ساخرة:

- هل ستظلين دوما من أهل الكهف؟

- أنا أعرف أنني آخر من يعلم، لكن يكفيني وجودك معي في هذا المكتب المليء بالهمس والأسرار.. ولولاك يا عزيزتي ما خرجت من كهف أهل الكهف، وسأظل ممنونة لك دائما..

ثم أضافت مستفسرة:

- لكنك لم تخبرينا إلى أي وزارة ينتمي هذا المخبول.

- لا علم لنا بالأمر لحد الساعة، يبدو أن هناك تسترا على أمره وأمر الوزارة التي ينتمي إليها، لكن كوني على يقين أن غدا سيأتيك الهدهد بالخبر اليقين، وستقرئين تفاصيل التفاصيل في جريدة كيخ كيخ وبيخ بيخ..

ثم تعالت ضحكات الزميلات في المكتب، فعادت صباح إلى حديثها الساخر الهامس وهي تقول:

- رجاء، عدن إلى مكاتبكن فورا وإلا ألصقت بنا في وزارتنا الموقرة تهمة القذف والشتم في حق موظف بريء ما زالت لم تثبت تهمته.

وأردفت نورا معقبة:

- أنا أعذر هذا الموظف الذي امتدت يده إلى بقشيش العزاء.. لسنا ندري أي عوز مادي يعاني منه هذا المسكين، فموجة الغلاء الفاحش الذي عرفها العالم بأسره مؤخرا وما طالنا نحن منها أيضا تدفع موظفا بسيطا كهذا إلى التفكير في السرقة لتسديد ديونه وسد نفقة البيت والزوجة والأولاد الذين أصبح معظم الناس يستنكفون عن تعليمهم في مدارس الدولة ويلجأون إلى تسجيلهم بالمدارس الخصوصية، وما يترتب عن ذلك من نفقات مادية مهولة تفوق بكثير راتب الموظف البسيط.. وإني لا أرى في هذا البائس لصا محترفا وإلا لكانت يده طالت ميزانية الوزارة بدل الطمع في بقشيش عزاء سيقدم تكافلا مع موظف آخر أكثر بؤسا منه.

ولم تكد نورا تنهي حديثها حتى قدم محمود، موظف العلاقات العامة، من الطابق الأول وهو يخفي شيئا خلف ظهره، وأخذ يقول مبتسما:

- معكن في هذا المكتب كاتبة وأنتن لا تدرين.

فردت عليه صباح هازئة:

- كيف لا ندري، نحن كلنا كاتبات منذ أن تعيّنا في هذه الوزارة بما فيهم أنت وشلتك.

- أي كاتبات وأي كتاب تقصدين؟ دعي عنك كتابة الملفات وترجمتها وترقينها جانبا، فأنا لا أقصد هذا النوع من الكتابة المملة البئيسة.

- وماذا تقصد يا شاطر؟

- أقصد يا هدهد وزارتنا الموقرة أن معك في هذا المكتب كاتبة رواية وأنت في غفلة من أمرك، لا تعلمين شيئا.

وانتاب الجميع شيء من الذهول والعجب، وحملقن في

بعضهن يستقرئن الملامح ويتحرين بنظراتهن عمن تكون رائدة هذا الأمر الجميل، إلا أن محمود أفصح عن السر بسرعة وكشف لهن عن غلاف الرواية واسم صاحبتها.

– ما شاء الله عليك يا مها، علّقت صباح، كل هذا يطلع منك وأنا أقول عنك أنك من أهل الكهف، يجدر بي أن أقلب هذا النعت وأجعله من نصيبي ما دام أفلت مني هذا السر العجيب.

فعقّب عليها محمود معرضا وقد غلبه الضحك فبانت أسنانه الصفراء كأنصاف فول يابس:

– أنت حقا يا صباح من أهل الكهف، لكن يبدو لي أن دورك ينحصر في دور ذلك الكلب الذي كان باسطا ذراعيه بالوصيد، فهو يرى ويسمع لكنه لا يفهم شيئا للأسف.

قال عبارته المعرضة وفرّ بجلده خارج المكتب قبل أن تلحق به صباح وتقذفه بأحد الملفات المتناثرة فوق مكتبها، فوجدت صباح نفسها وسط الزميلات وقد أفلت محمود من بين يديها فانطلقت في ضحكة هستيرية.

وحين أمسكت عن الضحك قالت مهددة:

– طيب يا محمود، يا فأر الوزارة المجراب، إذا كنت تراني كلبا باسطا ذراعيه بالوصيد فستكون أنت أول من أجود عليه بإحدى عضاتي المسمومة.

وضج المكتب من جديد بضحكات مدوية مسترسلة، وعادت التعليقات مجددا تصب صبا على رأس مها:

– الله.. الله.. الله.. على السكوتية، تكتبين من ورائنا ونحن في دار غفلون.

قالت صباح:

– ولِمَ لم تخبرينا؟ على الأقل كنا احتفلنا جميعا بهذه المناسبة

الجميلة، أردفت نورا.

– فيك الحق وحق كبير، ستؤدينه غاليا، أولا أشترط أن تهدي لكل واحدة منا نسخة من روايتك، ثانيا أن تؤدي عنا ثمن مشروب وحلوى كريم في أحد المقاهي الفاخرة بالعاصمة، أضافت نعيمة بنبرة كلها إلحاح.

وردت عليهن مها معقبة:

– ليس في الأمر إخفاء لسر ولا تملص من آداء هدية أو واجب، صدقنني، كنت سأقدم لكل منكن نسخة هدية من روايتي، لكن يبدو أن محمود سبقني إلى المفاجأة.. لكن لا بأس.. حصل خير..

– لكن حدثينا عن المواضيع التي احتوت عليها روايتك، قالت نورا.

وأضافت صباح على عجل:

– أخشى أن نكون نحن بطلات هذا العمل الروائي، ألم تخصصي لي في روايتك فصلا يا سعادة الكاتبة؟

– أنت تستحقين أكثر من فصل في هذه الرواية..

ودنت صباح من مها وهي تهمس لها:

– صحيح يا عزيزتي؟ هل أنت صادقة أم تمزحين؟

– كيف أمزح؟ أنا صادقة طبعا، فأنت تحفة هذه الوزارة الموقرة وتستحقين دورا رئيسيا في الرواية.

فأضافت صباح وقد ازداد صوتها خفوتا:

– إذا خصصت لي دورا في روايتك فلا تنسي مهمة الهدهد..

وأضافت نورا بنبرة ساخرة ماكرة:

– ولا تنسي أيضا مهمة الكلب الباسط ذراعيه بالوصيد..

وانفجرت ضحكات الزميلات صاخبة في الفضاء قطعها رنين هاتف المكتب الذي رن فجأة. ورفعت نورا السماعة فوصلها صوت

رئيس القسم خشنا مبحوحا وهو يردد تعليماته:

- يجب موافاتي بكافة الملفات الجاهزة كي يتسنى لي مراجعتها وسأبعث إليكن حالا مع الشاويش بمجموعة أخرى من الملفات المستعجلة، فلا تتأخرن. سيكون لنا اجتماع مع الكاتب العام في نهاية هذا الأسبوع ويجب أن تكون كل الملفات مرقنة ومنظمة كي يتم التأشير عليها.

- العمل.. العمل ثم العمل، ما هذه اللعنة التي لا نهاية لها، الله يعفو علينا من هذا العمل الذي أورثنا السقم والملل والضجر من الدنيا ومن فيها.. رددت صباح بنبرة مغيظة وهي تقذف بأحد الملفات ضجرا على المكتب وأضافت متحسرة نادمة:

- ندمت كل الندم لأنني لم أغادر طوعا من الوظيفة العمومية، كنت على الأقل سأرتاح من تعب الحافلات وترقين الملفات التي تتناسل علينا كالفطر.

وأمنت نورا على قولها مضيفة:

- على الأقل اللواتي غادرن طوعا ينمن ويستيقظن متى يشأن.

لكن صباح ما أن وصلها حديث نورا المتذمر حتى رفعت عقيرتها وبدأت تخطب وسطهن ساخرة بلهجة دكالية مثيرة:

- نكذب عليكم أصحيباتي إلى قلت ليكم راني غادي نرتاح نهائيا إلى غادرت الوظيفة، صحيح غادي نرتاح من هم الخدمة والمواصلات لكن صحيبي وعشيري اللي عندي في الدار ما غادي يخليني لا ننعس ولا نفيق، وغادي يستغلها فرصة ويولي علي طارزان في الدار.. وغادي يطلق علي واد الوحم ديالو.. ما قلتش ليكم آخر الاكتشافات والفتوحات ديال أختكم في دارها؟

فتساءلت كل من نورا ومها عن سر هذه الفتوحات، ونطقن سويا:

- زيدينا علما..

فأضافت صباح وقد جاهدت نفسها كي يطلع صوتها خافتا:

– كنت نفتش على شي بيجاما ضايعة لي وسط الماريو، وهي تطيح يدي على شي دوايات بالألوان مخشية وسط حوايج صحيبي، وجاني العجب، وقلت أش جاب هاذ الدوايات لهنا؟ وفتحت العلبة الصفراء والخضراء والليمونية حتى عيات يدي وطرطقو عويناتي وأنا تنقرا فيها كلها:

«تفتح شهية الأكل،

تريح القلب،

تساعد على الهضم،

تقوي القدرة الجنسية..

ثم جعلت تقرص خدها وتصعد فيه خدشا وندبا، وقالت بعد أن غرق صوتها في حشرجة مكتومة:

– أنا يحسب لي الرجل طبيعي، وهو خدام لي على المهيجات الجنسية، يعني باغي في الخدمة.. باغي يطرطق لي المرارة ويسكت لي الحس.. ولّى شكل آخر.. خدام يسرط ويمرط بلا شبعة وأنا ناعسة في دار غفلون.. وأختكم ولات بحال الفراكة في يد العراكة، طالعة تفرك، هابطة تعرك.. ثم أضافت وقد سبقتها ضحكتها الساخرة الصاخبة:

– ما بقى يخليني ننعس بكثرة التنوغيش.. الله يخليها عشرة.. تيظهر لي أنا خاصني ناخذ المغادرة الطوعية من الحياة الزوجية، لعل وعسى نرتاح وننعس شوي كيف بقية الخلق والعباد.

وعقبت نورا وسط كرنفال من الضحك المتواتر قائلة:

– هاذي ظاهرة خطيرة ولينا نشوفوها ونعيشوها.. حتى الشباب اللي ما زال ما كملوش خمسة وثلاثين عام بدوا يتعاطوا لهاذ المصيبة ذ المهيجات الجنسية.. واش مشات الفحولة ديال زمان مع مواليها؟

آخر الزمان هذا..

وسمع وقع خطوات في الممر، فإذا بالسيد رئيس القسم نفسه يملأ المكتب ويطلب زاجرا موافاته بمجموع الملفات، ثم ولاهم ظهره ضجرا متبرما وصوت صباح الخفي وإشاراتها البليغة تشيعه إلى مكتبه وهي تردد بشكل لا يكاد يبين:

- أنت اللي بقيت لي، عشيري في الدار وأنت في الخدمة.

ولم تكد كلمات صباح الساخرة تصل إلى مسامع الزميلات حتى سمع وقع أقدام يدنو من عتبة المكتب، فابتلعت صباح لسانها وجف ريقها من الريب وفي اعتقادها أن رئيس القسم قد تناهى إلى سمعه بعض شذرات من حديثها فعاد لتوه لتأنيبها، وفوجئت بعودة محمود ثانية إلى المكتب وقد افتر فمه عن ابتسامة عريضة، فقالت له بنبرة ناهرة:

- طيرتها مني خلعة، الله ياخذ فيك الحق، ظنيتك رئيس القسم رجع مرة أخرى..

- لهلا يعطيك ما يخلعك الحبيبة، غير رجعت نحكي ليكم واحد النكتة طرية عاد قريتها.

- يا الله اسيدي، سمعنا، ها احنا كلنا آذان صاغية..

ونظر محمود إلى كل من نورا وصباح ومها فألفاهن متأهبات لسماع نكتته الفتية، فقال لهن بحزم:

- غادي نحكيها ليكم كيفما قريتها، وشرع يقول وقد أفلتت منه ضحكة خفية:

- قالت الزوجة: لم لا تقبلني عند مغادرتك البيت وحال عودتك من العمل كما يفعل زوج جارتنا؟

فردَّ عليها الزوج مطمئنا: اطمئني يا عزيزتي، سأفعل مثله إن شاء الله وسأقبلها كل صباح ومساء.

وضجَّ المكتب بضحكات مرتفعة، إلا أن صباح لم تدعه ينصرف قبل أن تعقب على نكتته الطريفة، فقالت له مؤنبة:

- أنتما الرجال الخيانة تتجري ليكم في الدم.

وردَّ عليها بنفس النبرة قائلا:

- أما العيالات راهم ملائكة، حتى أنتما فيكم وفيكم..

- عندك الحق في هذي أخويا محمود، الزين والقبح ما خاطي حتى جنس.

- بغيت غير نعرف، واش ما عمركم سولتوا راسكم علاش الرجل تيخون مراتو؟

وعمَّ صمت مطبق فضاء المكتب وتوقع محمود أن تبادر إحداهن بالرد على تساؤله فلم تصله نأمة، فوجد نفسه يجيب بنفسه عن ذات سؤاله:

- أنا بعد تنشوف شي عيالات يستحقوا يخونوهم رجالهم، كيف بغيت الرجل يتعامل مع واحدة حوايجها موسخين ويديها تتفوح منهم ريحة الثومة والبصلة؟

وردت عليه نورا فورا بعد أن أطلقت ضحكة عالية:

- ماشي الرجال اللي تيخونوا عيالاتهم كلهم عندهم هاذ العذر، كاين شي رجال الله يحفظ عشاقين ملالين، واخا عيالاتهم عياوا يزوقوا وينوقوا ما نفع معهم والو، لأن هاذ الصنف من الرجال عينهم غير على بنات الزنقة المساليات..

وأجابها محمود وهو يتعمد إغاظتها:

- إيوا حتى البنات كثروا بلا قياس، ولات العنوسة ضاربة الأطناب ديالها.

- إيوا شنو تتقترح كحل أسي محمود؟ نرجعوا للجاهلية الأولى ونبداوا نوأدوا البنات؟

- عـلاش أختـي نوأدوهـم؟ الديـن ديالنا أعطانا أربعة، غير أنتما العيالات الله يهديكم، دم أسنانكم هي الضرة.

- إيوا أخويا سي محمود الحمد لله على المدونة الجديدة اللي عطات شوي د الحق للمرأة مسكينة.

وحين بلغ الحديث ذروته ووجد محمود ذاته محاصرا بنظرات ثلاث نساء متربصات كفأر وقع بغتة في شرك ثلاث هرات شرسات، استجمع قـواه وعـزم أن يفرقـع وسـطهن قنبلتـه الموقوتـة قبل أن يفر بجلده آمنا، فقال وهو على عتبة المكتب:

- أنا بعد عندي حل لهاذ العنوسـة تحت شـعار «كلنا من أجل محو العنوسة» على غرار الشعار القائل «كلنا من أجل محو الأمية»، وطفـق يخطـب عليهـن بالفصحـى كأنـه علـى منبر الوعظ والإرشـاد، فخرجت الكلمات من حلقه رصينة ثابتة:

- أقترح أن تنظم الجهات المعنية حملة وطنية كبيرة تعم المدن والقـرى شـبيهة بحملـة الانتخابـات. وأن يتكفـل مقدمـو الحارات في المـدن وشـيوخ المداشـر فـي القرى بالمهمة فيقومـون بعملية إحصاء دقيقـة لعـدد الرجـال وعـدد الفتيـات العوانـس، ويتـم تطبيق الشـريعة الإسلامية بالحرف الواحد بحيث يكون لكل رجل الحق في أربع نساء: ثـلاث زوجـات بيـض والرابعـة سـوداء، على أن يقبلـن بمهر متواضع ويتحملن العيش تحت سـقف واحد، هو بيت الزوجية بالنسـبة لهن جميعا.

وتوقع محمود أن تمطر شتائم الزميلات فوق رأسه كالرذاذ إلا أن تعليق صباح فاجأه وهي تقول له معقبة:

- إيوا واللي ما فيه ما يتزوج أربعة؟

فرد عليها وقد سبقته ضحكته الجهورية عالية:

- علاه لخاطره، بالسـيف على باباه ويديه فوق راسـه، هاذا راه

القانون، عليه وعلى غيره.

وسايرته صباح في لعبته العبثية المازحة متظاهرة بالسذاجة، فأضافت:

- إيوا واللي بغى غير زوج عيالات مثلا؟

فرد عليها بنفس النبرة الساخرة بعد أن خرج كليا من المكتب ومد رأسه من خلف الباب كسلحفاة النهر في يوم شتوي دافئ:

- إلى دخلنا في لعبة النقصان غادي يقول لينا أنا بغيت غير زوج بيضات والكحلة خليها ليكم وحدكم.

وأطلق محمود ساقيه للريح في الممر قبل أن ينسكب عليه سيل السباب عارما، تاركا الزميلات يتماوجن من الضحك على مقترحه العجيب والطريف. إلا أن حديث الصباح لم يقف عند هذا الحد بل فتح على مصراعيه شقا آخر من موضوع الخيانة الزوجية شرعته نورا بقولها:

- محمود تكلم على الخيانة الزوجية وبرر خيانة بعض الرجال لعيالاتهم، أما أنا غادي نتكلم على خيانة بعض العيالات لرجالهم وغادي نقول كيفما قال محمود: «كاين شي رجال يستحقوا يخونوهم عيالاتهم لأنهم أشبه بالأموات وهم أحياء، وتيعاشروا عيالاتهم ببرود مميت وبلا ما يفكروا ولو مرة واحدة في حياتهم واش ذيك المرأة راضية عليهم.

وقبل أن تنهي نورا حديثها تلقفتها صباح بتعليق ساخر اهتز له المكتب على إثر ضحكات الزميلات المدوية:

- أنا عمري ما ننسى حديث واحد الصاحبة من الرشيدية بخصوص هاذ الموضوع، واش عرفتوا آش قالت هاذ المسخوطة؟

واشرأبت أعناق الزميلات نحو صباح واتسعت أحداقهن في انتظار أن تفرقع صباح بالونتها، فقالت لهن وهي تتمايل يمينا وشمالا:

- كلامها خطر ألبنات، قالت باللي الرجل قبل ما يتزوج خاصو يتعلم يديرها في 16، يدخن ويشرب ويفسد ويتحشش.. إلى بغى يكون رجل، وإلى زهد في هاذ شي كلو غادي يتلاقى بمراتو وهو بحال شي قطة مغمضة، والمرأة تتبغي الرجل يكون شوي قافز وفايق وعايق..

وعقبت نورا وسط ضجة الضحكات المسترسلة العالية:

- إيوا هكذا يكونوا الرجال وإلا فلا..

وحانت ساعة الانصراف، لكن نورا وصباح لم يدعا الفرصة تفلت من أيديهما، فأعادتا حديثهما على آذان مها وأخذتا منها وعدا باللقاء مساء يوم السبت بأحد المقاهي للاحتفال بصدور باكورتها الأولى. وسرت مها لحماسهما وأكدت لهما أنها ترغب جادة في اللقاء بهما خارج جدران الوزارة لتغيير الجو وضخ دماء جديدة وهواء نقي في حياتهن الرتيبة. ونزلت مها كعادتها بحي حسان وأخذت تحث الخطى للوصول إلى البيت وهي على عجلة من أمرها كأنها على موعد ما أو أمر هام لا يجدر بها التخلف عنه. ولم تكد تدنو من الزقاق حتى سمعت خلفها وقع خطوات حثيثة، وخيل إليها أنها لمحت شبح رجل يتعقبها، فانتابها الوجل ولم تجرؤ على التلفت. وزاد من خوفها أن طرق سمعها هسيس كلمات تردد كموال حزين يصدر من جوف بئر، واتضحت نبرة الكلمات في مسامعها بعد أن ارتفع صدى الموال واكتشفت بعد لأي أن ما بدا لها شبحا يتعقب أثرها لم يكن سوى عبد العليم المكنى في زقاق بوقرون ودرب فران السانية ودرب الطاجين وشارع الجزاء بالمهبول أو الهبيل أو الأهبل. واطمأنت لرؤيته، وحانت منها نظرة إليه فإذا به يفتل حبلا ويلويه على ساقيه وكأنه يود جادا أن يكبل نفسه بنفسه وهو يردد بشكل مسموع وبنغمة شجية مؤثرة:

بحور القوافي سايلة نغمة
ولسان المهابيل يقطر حكمة
والحبيب إلى غاب
ما تسكبي عليه نواحك
خليه يصول ويجول
راه مصيره يرجع
يتدفأ تحت جناحك..

وشدهت مها وهي تتأمل مضمون كلماته العجيبة، وبدا لها وكأن المهبول قد تسلل خفية إلى أعماق أعماقها وسار يصول ويجول ويكتشف خبايا نفسها. وارتبكت أيما ارتباك حين أحست بكلماته كريح باردة قوية تجردها من أسمالها وتتركها عارية أمام العابرين. ماذا يقول هذا المهبول الذي أضحى كلامه الموزون مليئا بالألغاز والمعاني الخفية؟ صدقت تلك الجارة التي قالت عنه يوما: «الله يرحم من سماه عبد العليم.. إنه ولي صالح.. يستحق منا الاحترام والتبجيل، وكلامه كله حكم.. وكأنه ينظر بعين الغيب فتخرج كلماته كالرصاص، يصيب بها الهدف بدون تردد ولا مواربة». وكانت هذه الجارة الطريفة قد شرعت تقتفي آثاره حتى عثرت يوما على مأواه، وطفقت كمهبولة حقيقية تتربص خروجه صباحا من قصره المشيد في حي الصفيح، ثم تتسلل إليه وترشه بالحناء المخلوطة بماء الزهر والورد، وبعدها تنير شمعة في بهوه وعند عتبته، وتعيد قفل بابه القصديري الذي لم يكن يلزمه مفتاح ولا مزلاج، بل كان فتحه وإقفاله يتم ببساطة وهي تشبك حزمة من الأسلاك الصدئة حول مسمار كبير غرس في الجدار الداخلي بعد أن تمد يدها إليه من خرم واسع كبير في دفة الباب.. وحدث في يوم نحس أن ضبطها وهي تتسلل خلسة إلى بهو قصره القصديري

فأقفل عليها الباب وهي في غفلة من أمرها، لاهية ساهية، وأطفأ شموعها المنيرة وأخرج من كيسه ثعبانا وشرع يزمر له وهو يتلوى بحاشيتها والجارة المصونة تصيح بأعلى صوتها مرعوبة، متوسلة: «أنا في عارك أسيدي عبد العليم.. هذي والتوبة.. غير محبتي فيك هي اللي خلاتني نجي لدارك، نبوس العتبة ونتبرك بالرحبة.. أُلو كان ما نيتي سليمة ما كنت نرش الحناء وماء الزهر والورد البلدي المقطر..» ولما أيقن المهبول من صدق نواياها وصفاء سريرتها أطلق سراحها، لكنه هدد بتركها عرضة للدغات الثعبان إن هي أعادت الكرة ثانية. ولما كان المهبول طيبا، عطوفا ورقيق الحاشية فقد أسر لها هامسا في أذنها وهي تغادر بهو قصره العامر: «راني تنأذن لك ترشي الحناء وماء الزهر والورد لكن من خارج الدار وماشي فوسطها»، فأفرج عن الجارة، وانطلقت مذعورة إلى بيتها لا تلوي على شيء. وتتذكر مها الآن تفاصيل قصة الجارة العجيبة فتعود إلى ذاكرتها كلماتها الساخرة وهي تصف قصر المهبول الرابض بحي القصدير في أول زيارة له:

«عند الباب مباشرة من القصر العامر تجدن أنفسكن قبالة دفة عجيبة من القصدير رشقت صفحتها بمئات المسامير، وكأن المهبول يخشى على باب قصره من الطيران فثبته وأثقل صفحته بالمسامير الصدئة، فالأجدر بنا أن نسميه «بومسمار» بدل المهبول.. ثم ينفتح الباب على بهو تخيم على سقفه أطمار من أكياس قمح فارغة وكأنه يتقي بها حر الهجير وبرد الصقيع. وحين تعرجن على اليمين مباشرة تجدن جناحا خصصه المهبول لشتى ألوان الأعشاب اليابسة بما فيها الحريكة.. ولست أدري فيم تنفعه هذه الأعشاب ولا فيم يستعملها.. أما الجناح الأيسر من القصر فقد وضع فيه المهبول سريره الوثير الذي لم يكن سوى كومة مكدسة من أوبار الماعز والخرفان وقد فقدت لونها.. ثم زيّن زوايا قصره - فلا يفتكنّ أن المهبول فنان

وذواقي - بمحنطات لرؤوس الذئاب والثعالب والنسور والضربان..» ثم تنهي الجارة جردها الوصفي لهذا القصر العامر قائلة: «ولعل أشد ما أذهلني وأنا بين جدران قصره المهيب هو عثوري على صور لامرأة فائقة الجمال وقد خبأها بعناية في حُق ودسّه في خرم خلف باب إحدى غرف قصره المعلوم، واعتقدته في البداية حُقّا يحتوي على سم الفئران.. يبدو لي أن مهبولنا المصون عاشق ولهان.. قد جرعته مرارة العشق جنية من جنيات هذا الزمان..» تتذكر مها كل هذه التفاصيل المثيرة من حياة المهبول المليئة بالغموض والأسرار، ثم تلتفت إليه ثانية وهو غارق يفتل حباله، لا يفتأ ينتهي من أحدها حتى يتحول إلى حبل ثان في عملية مكرورة لا يبدو لها آخر. وتدير له ظهرها وتشرع في فتح الباب وهو يشيعها بنظرات متيقظة وقد عاد إلى مواله السابق مترنما:

الحبيب إلى غاب
ما تسكبي عليه نواحك
خليه يصول ويجول
راه مصيره يرجع
يتدفأ تحت جناحك..

«آه منك يا مهبول»، تنهدت مها في دخيلتها، «من أدراك بغياب الحبيب؟ وكيف توصي بعدم سكب النواح عليه بل وتتنبأ بعودته حتما؟ كيف علمت بكل هذه الخفايا، أم تراك تتوجع لغياب حبيبة تطمع دوما في عودتها كما أوعزت لنا بذلك تلك الجارة المخبولة؟» لا أجد مهبولا أكثر هبلا من تلك المرأة أو ذلك الرجل الذي سماك المهبول.. حديثك لا يصدر إلا من حكيم، وعيناك الثاقبتان، الساهمتان، النائمتان

تنظران إلى الأعماق مباشرة وتغوصان في خبايا هذا الصدر المكلوم، وإلا فكيف لي أن أفسر اقتفاءك لأثري وقعيك عند أقرب زاوية في الزقاق تطل على باب بيتي ثم شروعك في دق المسمار أو تقصدك لذلك وأنت تقرع طبلة أذني برفق بموالك المليء بالحكم والألغاز؟» تلفتت مها حولها فوجدت نفسها غارقة في تأملاتها تحدث نفسها في شأن هذا المهبول الغريب الأطوار، لكنها استثارت وهي تلحظ هدوءا شاملا يعم أرجاء البيت. ونادت على خالتها فارتد الصوت إليها بلا جواب، وعجبت لأمر خالتها التي لم تتعود غيابها في مثل هذه الساعة من النهار. ما لم يدر بخلد مها لحظتها أن تكون هي محور حديث سري لكمشة من الناس تفرقهم الجغرافيات، يتهامسن عنها وينبشون سيرتها بكثير من الحب أحيانا أو كثير من حب الاستطلاع والرغبة الدفينة في اكتشاف مغاور هذه الفتاة الغافلة، الهائمة في الضفة الأخرى من حافة الدنيا الشاهقة. فقد كانت خالتها تفضي بلوعة إلى صديقتها الحميمة وهي تودعها عند عتبة بيتها قائلة: «إنه ليحز في خاطري أن أرى شباب مها ينفرط كحبات عقد ثمين، والبنت شبه زاهدة في الزواج.. تعيش عنوسة بلا حدود، ويتقطع قلبي من الألم حين يخامرني شك في أن يكون قد عُمل لها معمول..» وقال إياد في ذات اللحظة لبسام وهو يخاطبه في مكالمة هاتفية سريعة حين سأله عن أخبار مها: «لم أرها منذ فترة..» ثم استدرك قائلا: «بلى، رأيتها منذ شهر تقريبا، وكانت واقفة على ما يبدو في انتظار قدوم تاكسي، وبدت لي وأنا ألمحها من طرف خفي كأنها حمامة تخلى عنها السرب في يوم عاصف..» وقال إيهاب في ذات الآن وهو على بعد آلاف الأميال، بعد أن ودع والده السوري وعزم على رحلته الكيشوتية الأبيدة إلى العراق، وكان على متن تاكسي أجرة برفقة مسافرين آخرين ليقطع به المسافة الفاصلة بين دمشق ومدينة القامشلي الحدودية: «سأبحث

عنـك يـا أبـي فـي بلـد الأعـراق والأجـداد، وما كنـت لأتوجه توا إلى العراق لولا أن أوعز لي المخرج بذلك، بعد أن أخبرني بأنك الآن في العراق في زيارة عائلية لأحد أقربائك.. سأبحث عنك هناك وأنا كلي أمل ورجاء أن تهون علي الأقدار مشقة البحث والتنقيب.. وإن عزّت علي الأمور وباعدت بيننا الأقدار، وهذا ما لا أرجوه ولا أتمناه، فلن أجد مندوحة وقتها من أن أقتفي أثرك في آخر الدنيا، وهناك سيصير بحثي منصباً علـى أمريـن جلليـن، أن أعثر عليك أنت أولاً ثم العثور بيسـر على محبوبتك ثانيا..» خرجت من بين أسـنانه مضغوطة لفظة «محبوبتك» فارتبك وهو لا يدري يقينا إن كان يحقد عليها.. أو يغار منها.. أو عليها.. وتشابكت المعاني الغامضة في رأسه ووجدانه، وأراد أن يزيحها مؤقتا من صفحة ذاكرته فوجّه سؤاله إلى السائق قائلا:

– كم بقي لنا على الحدود؟

– صدقني، لا أشـغل نفسـي بعد الكيلومترات، لأني أحس أنني كلمـا خطـوت بـك ميـلا نحـو الأمام كلما اقتربت بك من الحدود مع الجحيم..

– كيف تقول هذا وأنت سائق تاكسي؟ المفروض أن تشجعني لا أن تهول علي الأمر وتفزعني.

– أنا لا أقصد إفزاعك، لكني أتساءل بصدق عما يمكن أن يأتي بك إلى هناك في هذه الظروف السـيئة والرهيبة.. هل هو الجنون أو حـب المغامـرة وركـوب الأهـوال أم أن هنـاك أمـرا جللا يدفعك إلى تجشم متاعب هذه الرحلة غير الآمنة؟

– وماذا يعنيك أنت في الأمر؟

– صدقنـي، تعنينـي كثيـرا سـلامتك.. فـإذا كنت ترغب في رؤية إخوانـك العراقييـن فهـم فـي شـمال سـوريا على الحدود مباشـرة، قد تكدسـوا بالمئـات، يعانـون مـن البطالة وقلة المؤونـة والتدفئة اللازمة

إبان فصل الشتاء القارص.

- أنت غريب الأطوار يا أخي.. أنت تسترزق الله من عملك في سياقة التاكسي، فكيف تسعى إلى دفعي للنكوص والعزوف عن اجتياز الحدود؟

- صدقني، لو رأيت ما رأيته يوما في مدينة الموصل ما فكرت قط، كسوري، في عبور الحدود.

وكاد يفلت من إيهاب تساؤل استفزازي فيقول للسائق: «من أدراك أنني سوري؟» فأحجم عن طرحه واستدرك قائلا كمن يرغب جادا في إنهاء هذا الجدل الطويل الذي ذكره بحديث أبيه السوري مؤخرا:

- إن أمرا ملحا يدفعني إلى الذهاب إلى العراق في هذا الظرف الدقيق، ولولاه ما غامرت بحياتي.

وظن إيهاب أنه أقفل الموضوع الشائك بالشمع الأحمر، فإذا بالسائق يفجر في وجهه المفاجأة صارخا:

- أنا أعرف أباك.

وارتج إيهاب من الأعماق كأن زلزالا عنيفا هزه، وقال له وقد ارتجفت جفونه واصفر وجهه:

- كيف تعرف أبي؟

- أعرف أباك نوري بك الصمدي، وهو من أثرياء دمشق..

فهمد البركان في صدر إيهاب ولعن في سره هذا السائق - الشيطان الذي ما فتئ يسكب من شواظه على قلبه. لكن السائق أردف قائلا كمن يتحدث إلى صديق قديم:

- وأعرف أمك العراقية أيضا.

فتلقف إيهاب هذا الجرد المفصل لأصول عائلته بأعصاب متوفزة وجعل يترقب، وقد افترسه الشك وشتته الذهول. ماذا سيضيف هذا

السائق وماذا عساه سيقول؟ إلا أن السائق أضاف ببرود وهو لا يدري ولا يمكن أن يتصور أن إيهاب يكاد ينقض عليه من الخلف ويقسم رقبته:

– هل أنت ذاهب إلى العراق في زيارة عائلية لأحد أخوالك أو خالاتك؟

هنا لم يتمالك إيهاب نفسه فأطلق ضحكة مدوية من الغيظ أفاق على إثرها كل من كان نائما بالتاكسي، ووجد نفسه يقول بشكل ساخر:

– لن أصدقك إذا قلت لي أنك تعرف أخوالي وخالاتي أيضا.

تبسم السائق من قوله ورد بأناة عجيبة بعد أن أغمض عينيه وفتحهما:

– صدقني، لا أعرفهم، وسيكون لي الشرف لو عرفتهم، فأبوك رجل طيب وأمك امرأة كريمة.

وبدا لإيهاب أنه لو جارى هذا السائق العجيب في النقاش لبلغ بهما تشعب الحديث إلى ما لا تحمد عقباه، فأغمض عينيه توا وتظاهر بالنوم. إلا أن النوم أخذه إلى مجاهله الغريبة ورأى فيما يراه النائم أن قدميه ساقتاه إلى أرض جرداء حيث لا كلأ ولا ماء.. وسمع صوتا غريبا يناديه من مكان قصي، فإذا به مطل على هاوية ذات عمق سحيق، وازداد الصوت ارتفاعا كأنه صوت غريق، وتبين له وهو يدنو من حافة الهاوية أنه صوت رجل تكاد تخنقه العبرات وهو يتوسل إليه طالبا النجدة وقدماه تغرقان في طين لزج.. وحاول جاهدا أن يمد يديه إليه لكن ريحا خفية قوية كانت تجذبه إلى الخلف مانعة إياه من التقدم نحو الحافة.. وبدا له أن يطلب بدوره النجدة من العابرين لكن لا أحد التفت إليه رغم كثرتهم، وفجأة أقفر المكان واصفر وجه السماء، فخيل إليه أن الصوت ذاته يناديه مجددا، فحاول يائسا أن يتبين مصدره لكن الأمر تعذر عليه، وأسرع الخطى يستكنه الصدى وأصاخ سمعه مليا،

فـإذا بعينيـه تقعـان علـى الرجل الغريـق وهو ملقى على قارعة الطريق وقـد أحاطـت بـه الصقـور والغربـان، فداخله شـبه يقيـن أن الرجل قد فارق الحياة. وأراد أن يولي ظهره للجثة الهامدة والطيور الكاسرة فإذا بطلقات نارية تفرقع المكان، فطار سرب الكواسر وسقط بعضها ميتا فالتفت مذعورا ينظر إلى المشهد المهيب في ذهول وتوهان، وازداد دهشة وهو يرى بأم عينيه الغريق قد استقام واقفا وتأبط سلاحا وأخرج آخر من جيبه وألقاه بين يديه وهو يردد على مسمعه بشكل آلي رتيب: «لا تخلو مفازة من بئر ولا قفر من واحة ولا نهر من طعام ولا بر من أمان..» وتناسلت الكلمات من حلقه كسيل عرم، وأيقن أنه لو جاراه في وقفته متسمرا لاندحر النهار وهبط عليهما الليل كصقر في خلاء موحش، فأومأ إليه أن يغادرا المكان، لكن يد الغريق الناجي بأعجوبة القـدر أخـذت تلـوح بعيـدا حيث يتنامى نور شـفيف، واتضح لإيهاب أن ذلـك النـور هـو الطريـق الآمـن لعبور القفـر وولوج إحدى بوابات المدينة العامرة.. وأراد أن يسرع الخطى فخشي أن يسقط السلاح من يديه فخطر له أن يعيد السلاح إلى صاحبه، وما كاد يمده بالمسدس حتى بدرت من الغريق- الناجي ابتسـامة أسـيفة سـاخرة، وجعل يقول له بصوت جهوري قوي: «هذا لك.. هذا لك.. هذا لك..» وترددت أصداء الكلمات في الفضاء كصفارة إنذار، ولم يكد يعيد المسـدس إلى حشـية سـرواله حتى امتدت يد السـائق إليه توقظه مخبرا إياه أنه قد وصل إلى مدينة القامشلي الحدودية حيث المخيمات آهلة بمئات الأطفال والنساء والشيوخ والفتيان. ارتعب إيهاب وهو يستيقظ فجأة من حلمه الغريب، وازداد ذعرا وهو يسترجع تفاصيل حلمه العجيب. وسـمع سـائق التاكسـي يهنئه بسـلامة الوصول ويتمنى له عودة ميمونة إلى أرض الوطن، وتذكر للتو تلك العبارة المجنونة التي نطقها السائق وهو لا يزال في بداية رحلته حين قال له مرتابا: «إني أحس أنني كلما

خطوت بك نحو الأمام كلما اقتربت بك من الحدود مع الجحيم..»
ولم ينقض يوم واحد على رحلته البرية الفاصلة بين مدينة القامشلي السورية ومدينة الموصل العراقية حتى وجد ذاته يسير بخطوات وئيدة مرتخيا، مترنحا من عياء الرحلة. وعنّ له أن يقطع الطريق الفاصل بين المحطة والسوق الشعبي حيث المتاجر والمطاعم مشيا على الأقدام. وانتابه إحساس غريب في البدء كأنه آدم يطأ الأرض لأول مرة، فنظر حوله بذهول وسرعان ما أطلق لحواسه العنان، فبدت له السماء هي عين السماء والأرض هي ذات الأرض والطير يهيم في ملكوت الفضاء أو يحط فوق الشجر، وقوافل العابرين يسيرون قاصدين مآربهم كبقية البشر، فداخله شعور بالارتياح وانزاح من صدره ذلك الشعور بالريب والخوف المبكر من الأشياء. وجعل ينظر حوله وقد غمره فرح طفولي وهو يكتشف لأول مرة أرض الآباء والأجداد. وسار بخطوات جذلى يترنم وعيناه ترمقان قبة السماء الزرقاء المشعة بنور الشمس المتوهجة، وعنان شجر اللبلاب الذي يحف شوارع المدينة، وحشود السيارات التي تمرق مسرعة مخلفة وراءها الضوضاء والدخان، وجموع الناس الذين يمرون مسرعين وكأن وراءهم أمرا جللا. وقال يحدث نفسه ساخرا من ذلك السائق الذي ملأ صدره بالهواجس والوساوس: «تبا لك أيها السائق المجنون.. يا غراب الشؤم.. تنعق كالبوم بيد أن لا شيء يدعو للنعيق.. الدنيا هنا بألف خير.. فلم التشاؤم؟» وانسابت من مخيلته مناظر ومشاهد كانت قد اختزلتها ذاكرته من أيام الصبا حين كانت أمه تحدثه بشجى عن بلد آبائها وأجدادها.. لكن حديثها كان منصبا على بغداد حيث عاشت طفولتها وشبابها الأول. وأعاده إلى أرض الواقع زعيق سيارة مزعج، فالتفت حوله فإذا بالسائق قد أخرج عنقه من زجاج نافذته ولوح بيديه بحركات بذيئة وهو يسب ويشتم: «ابتعد من الطريق يا حيوان وإلا دستك كذبابة». ارتبك إيهاب وهو

يستقبل وابل الشتائم من حيث لا يتوقع فابتعد مذعورا إلى جانب قصي من الرصيف علما أنه كان يسير على الرصيف. وطفق يحث الخطى كأنما أحس بإشارة خطر بعد أن انهال عليه سيل السباب المجاني بلا سبب وجيه ولا وجه حق. وسرعان ما ألفى نفسه يعرج على مدخل السوق الشعبي حيث تكدست أكوام البضائع أرضا وأصحابها يصيحون بأعلى أصواتهم منادين على الزبائن القادمين من كل حدب وصوب. وتذكر إيهاب سوق الحميدية بدمشق الذي لا تهدأ له ساكنة طيلة النهار وإبان الليل أيضا. وكان الجوع قد بدأ يقرع أبواب معدته فالتفت إلى أقرب مطعم يطلب الغداء. وقبل أن يقف عليه النادل تذكر أمه وهي تحدثه عن أكلة «الباتشا» العراقية التي تهيأ خصيصا من رأس البقر أو الخرفان، وانفتحت شهيته عليها فأمر بطبق منها.. أكل بنهم وهمّ بالانصراف بعد أن مد النادل بثمن الوجبة وبقشيش الخدمة، فابتسم له النادل شاكرا، ثم انصرف قاصدا بيت خالته فوزية التي تقيم بالموصل. لم يكن يخطر بباله قبل اللحظة أن يزور خالته ولا بقية الأهل بالعراق، فقد كان مكتفيا بأمه وأبيه السوري وعائلة أبيه، وكان ينظر إلى أقارب أمه المقيمين بالعراق كما لو أن بينه وبينهم بعد السماوات عن الأرض. وها هي ذي الأقدار تسوقه إليهم في ظرف عصيب. كيف سيستقبلونه وماذا عساه سيقول لهم وكيف له أن يبرر عزوفه الأبدي عن زيارتهم؟ فهو لا يذكر عن خالته وأبنائها سوى زيارة يتيمة قامت بها خالته فوزية إلى دمشق في بداية عهدهم بها، وهو لا يستطيع أن ينسى ذلك الحدث الطريف والفظيع الذي عاشه برفقة ابن خالته في أول أيام زيارتهم لهم بدمشق. يتذكر الآن ويغلبه الابتسام حين يسترجع ذلك المشهد الطفولي الشبيه بالفانتازيا وهو يحث ابن خالته على التجوال في أزقة دمشق العتيقة. وتلقى تحذير والدته باستخفاف وهي تنبهه إلى كونه ما يزال طفلا على التجوال

برفقة ابن خالته الضيف في أزقة دمشق المنعرجة والمتشابكة. وانتفخ أمامها زهوا وهو يؤكد لها جازما أنه يعرف المدينة القديمة أحسن منها، معزيا ذلك لكونه يخرج بشكل دائم من البيت بينما هي تظل قابعة فيه ولا تغادره إلا لماما. وقام يحث ابن خالته مشجعا إياه على التجوال والسرحان في أزقة دمشق وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن دمشق أكبر من الموصل، وأن أسواقها أجمل من أسواق الموصل وأناسها ألطف من أهل الموصل رغم أنه لم يزر الموصل قط. وكانت سنه لا تتجاوز وقتها العاشرة بينما يصغره ابن خالته بعام أو أقل. وطفقا يهيمان على وجهيهما في الأزقة العامرة والخالية، ولا يفرغان من زقاق حتى يجدا أنفسهما قد انحشرا في زقاق آخر وأعينهما تحملق في السلع المعروضة بانبهار. وكان إيهاب يجر ابن خالته بشيء من الفخر والاعتداد وفي كل مرة يخرم أذنيه بقوله: «هل تستطيع أن تجوب بي أزقة الموصل كما فعلت بك الآن؟» ثم لا ينتظر جوابه فيجره ثانية إلى مجمع دكاكين الحلوى الشامية. وهنا سيجد إيهاب ضالته وتسرقه خطواته فينتبه مذعورا، وهو على عتبة الحلواني، أنه بمفرده وأن ابن خالته قد أفلت منه في الزحام. والتفت يمنة ويسرة يبحث عنه يائسا فلم يعثر له على أثر، كأن الأرض انشقت وابتلعته. وأظلمت الدنيا في عينيه. صحيح أنه شاطر، فهو يستطيع العودة بيسر إلى بيته لكن أنى له أن يعود وقد أضاع ابن خالته منه في أول يوم الزيارة. وتخيل نفسه وقد انقضت عليه كل من أمه وخالته وأخذتا تشبعانه لطما ولكما، فأحجم عن التفكير في العودة إليهما دون أن يتمكن من العثور على ابن خالته الضال. وأخذ يجوب جريا كل الأزقة التي ما فتئا يعبرانها، ويقف تارة ويسأل تارة أخرى أصحاب الدكاكين الذين يعرفهم ويعرفونه عن مواصفات ابن خالته التائه، فيردون عليه آسفين. وضاقت نفسه ذرعا فلم يجد بدا من سكب الدموع أسفا

على ضياع الضيف من يديه وخوفا مما ينتظره من عقاب إن هو عاد إلى البيت خاوي الوفاض. ثم تماسك نفسه فخطر له أن يعود من حيث أتى مقتفيا آثار ابن خالته. وشاء القدر أن يقصر من عمر محنته فوقعت عيناه على زحام في مفترق طرق بين الأزقة، فجرى بلهفة نحو الحشد المتزاحم من النسوة، فوجد ابن خالته وقد احمرت عيناه من أثر الدموع يقول لإحدى السيدات:

- أنا جيت ويا أمي من الموصل عند خالتي وعم نوري.
- شو اسم خالتك؟
- خالة هدى.
- وين عم تسكن؟
- هما يسكنون في بيت كبير وحلو هواي..

استفاق إيهاب من شريط الذكريات الطفولية على قبضة يد قوية أمسكت كتفه من الخلف، وحين استدار وجد نفسه وجها لوجه أمام شابين مفتولي العضلات وقد مد أحدهما يده إليه آمرا:

- سيجارة؟
- أنا لا أدخن.
- هات ما عندك، أكيد تحمل معك شيئا حلوا في حقيبتك.

ولم يكد ينبس بكلمة حتى كان أنفه ووركه قد أخذا نصيبهما من اللكم والركل، ولم ينتبه إلا وحقيبته قد طارت من بين يديه والشابين قد أطلقا ساقيهما للريح. وبقي ملقى على الثرى لا يقوى على القيام. والتفت حوله فإذا بجموع الناس قد تفرقوا ولا أحد منهم أعاره اهتماما. وهمّ بالوقوف فإذا بصبية ذات وجه صبوح تنحني عليه وتفتح علبة مناديل وتشرع في مسح الدم والتراب الذي عفر وجهه، فعجب لأمر هؤلاء الناس، كيف ينسحب الرجال والنساء على السواء وتتشجع هذه الصبية بمفردها على الاقتراب منه ومساندته؟ فقال

في خاطره «الرحلة باينة من أولها» ورنت في أذنيه مزمرة كلمات السائق الذي حذره من مغبة الرحلة في الظرف الراهن، وها هو ذا يتلقى في أول يوم تحية الصباح، فاكفهرت السماء في عينيه، وأعاده صوت الصبية إلى أرض الواقع وهي تقول: «لقد خطفوا حقيبتك، أولاد الحرام» وحمد الله في سره أن خبأ أوراقه الثبوتية وماله في جيب داخلي بقميصه، وضحك من نفسه ساخرا حين تذكر أن حقيبته كانت تحوي ضمن ما تحويه قميص نوم وبذلة موحدة وجاكتة جلدية وسروال دجينز من نوع رفيع، فهمهم في سره: «يبدو أنني لن أحتاج إلى قميص نوم، فلا نوم يبدو في هذه البلاد، وأما البذلة والجاكتة فهما لزمان ومكان آخر وليس هذا بالمكان المناسب لهما..» ثم أضاف وقد أفلتت منه ضحكة خافتة: «لقد أراحوني من هذه الحقيبة التي ربما ستجلب لي الشبهات.. وأجدر بي أن أجلب لي ثيابا من سوق الملابس المستعملة حتى لا أبدو في أعين المتسكعين وقطاع الطرق بورجوازيا». ثم هبّ واقفا فألفى يد الصبية قد امتدت إليه في حركة عفوية وهي ترغب جادة في مساعدته على الوقوف، لكنه اعتمد على نفسه واستقام واقفا وهو ينظر إليها باندهاش.. ها قد بدأ يداخله الشك والريب في كل شيء حتى في حركات هذه الصبية التلقائية التي تبدو بريئة من كل ما ذهبت إليه ظنونه. وخامره شك في أن يكون أحدهم قد ألقى بها في طريقه متقصدا وكأنه يمتحنه عن كثب وينتظر أن تزل عيناه أو يداه، فوجد نفسه ينظر إليها بارتياب أفزعها.. ثم أراد أن يوليها ظهره فسمعها تتوسله كي يشتري منها علبة المناديل.. إنها إذن تبيع علب المناديل في السوق الشعبية.. هذه حرفتها.. ولم يعقب على سؤالها فمدها بدينارين دون أن يأخذ منها العلبة، فانحنت على يديه تود تقبيلهما فأدهشه سلوكها، وفكر أنها من أهل البدو، همُ الذين لا تزال في طباعهم بعض السذاجة المثيرة أحيانا. فربت على كتفها

وهم بالانصراف لكنه وجدها تقتفي أثره ولا تنوي مفارقته. وأراد أن يتخلص منها بالحيلة لكنها كانت أسرع منه تتعقبه، فأضجره سلوكها فوقف وانتهرها قائلا:

- فيه حد مسلطك علي؟

وقالت له بنبرة كلها توسل ورجاء:

- باين عليك ابن ناس..

ورد عليها منفعلا:

- وبعدين؟

فأجابته بصوت آلمه من الأعماق بعد أن رأى دموعها تنسكب بسخاء على خدها:

- أنا بنت فقدت كل أهلي.. اعتبرني أختك أو بنتك أو قريبتك.. رجاء خذني معك..

فأيقن إيهاب أنه يعيش فعلا تجربة آدم حين وطأت قدماه الأرض لأول مرة.. سيرى ما لم تره عين ويسمع ما لم تسمعه أذن.. فليستعد إذن لزمن المفاجآت وليعتبر رحلته من الآن موغلة في سراديب المجهول. ولم يصدق أذنيه وهو يسمعها تتوسل إليه وتتشبث بأهدابه راجية إياه أن يأخذها معه. وأطرق برهة كمن غفا ثم نظر إليها مذهولا فقال لها في محاولة للتخلص منها:

- أنا مجرد سائح، لا أهل لي مثلك، فإلى أين سآخذك معي؟

- لأكن خادمتك إذن.

- أنا لا أقيم في بيت كما يبدو لك، أنا مجرد عابر سبيل ورحلتي طويلة لا نهاية لها.

- صدقني، أنا وجه خير وسعد، فلا تضجر مني، خذني معك وسأكون لك خادما ودليلا في رحلتك.

وانفغر فوه وهو يتلقف كلامها العجيب، وشدته بقوة كلمة

«دليل»، فقال لها متحيرا:

- هل أنت من الموصل؟

- أنا من ضواحي الموصل، لكني طفت وجلت البلاد كلها من الموصل إلى بغداد وحتى أقاصي الجنوب، وسأكون لك نعم الدليل في رحلتك. يبدو جليا أنك لست عراقيا؟

بماذا يرد على هذه الصبية البائسة التي لا يتعدى سنها اثنا عشر عاما، وهل هي صادقة فيما أفضت به إليه؟ عيناها النجلاوان تنمان عن براءة ندرت في هذا الزمان.. ووجد ذاته يتأملها باستغراب.. إنها فعلا تبعث على الشفقة بملامحها الغارقة في البؤس والكدح وبشرتها الكالحة وشعرها الكستنائي الذي غمق لونه من القذارة.. ثم سرح في تأمله فرآها صبية جميلة جدا رغم طبقات القذارة التي تكلست على جلدها وبشرتها وأحالتها إلى لون لا وصف له، ورأى كلتا يديه تكشطانها من أطمارها وتدعكان جسدها الغض بالصابون ثم رأى يديه تتحولان إلى شعرها وتفرغان عليه من الماء الفاتر والشامبو وتشرعان في فركه وشطفه.. وتصورها باسمة متألقة ببشرة سمراء فاتنة وشعر كستنائي حريري منسدل. وانتبه من غفوته فوجدها تنظر إليه بنظرات حانية تقطعت لها أوصال قلبه، فتأمل وضعه ووجد أنه من الاستحالة بمكان أن يأخذها معه إلى بيت خالته، لكنه أحس بهاتف خفي يزين له رفقتها ومصاحبتها.. ومن يدري، هجس في دخيلته، لعلها تكون وجه خير وسعد كما قالت عن نفسها، ثم قرع صدره هاجس أقوى من سابقه يحذره من خطورة قبول صحبتها، فارتبك وهو يعترف بينه وبين نفسه «كيف لي أن أحميها أنا الذي لم أستطع حماية نفسي؟ وإذا استطعت حمايتها من الآخرين فهل لي أن أحميها من غرائز ذاتي الدفينة؟» فاندهش من نفسه وهو ينتهي بسرعة إلى هذه الخلاصة، لكنه وجد لسان حاله يقول لها فجأة وقد قرر وعزم:

- لنلتقِ غدا في نفس المكان.. أنا لا أستطيع أن أصحبك معي إلى بيت أحد المعارف.. قد يظنون بي الظنون..

ويبدو أن الصبية صدقته فابتسمت لقراره لكنها سرعان ما عادت تقول له عابسة:

- أخشى أن يكون حديثك مجرد مراوغة ذكية للتخلص مني.

فضحك لذكائها وطمأنها أنه يرغب صادقا في رؤيتها غدا.

«ليكن، قالت في سريرتها، سأتركه يذهب لكن عيني لن تغفلا عنه وسأتعقبه مجددا كي لا يفلت مني..» وباتت الليلة متيقظة، لا يرف لها جفن وقد تكومت على نفسها عند زاوية في مدخل الزقاق حيث بيت خالته.

بعد تصرم تسعة أشهر على هذا الحدث سيذكر إيهاب بفرقة ولوعة، وهو على عتبة المطار، ملامح هذه الصبية الجميلة التي على صغر سنها لقنته درسا في الحياة لن ينساه ما حيي. على عتبة المطار كان إيهاب يرقب ساعة يده بأعصاب متوترة وينتظر قدوم صاحب الصورة التي طالما تأملها وهو يقرأ خطاب أمه التليد، ويستغرب في نفس الآن غرابة الأقدار ومفارقاتها العجيبة التي رمت في طريقه بكل العوائق لتحول دون عثوره بيسر على أبيه. وكان إيهاب قبل هذه اللحظة بشهر تقريبا قد استعان بكل المعلومات السرية التي حملها خطاب أمه. وانتابته الدهشة وقتها لقدرة أمه العجيبة على إبقاء هذا الخيط الرفيع الذي ربطها يوما بوالده الحقيقي. فكانت علاقتها بصديقتها الحميمة ليانة، التي لم تكن في الأصل سوى أخت إياد صديق بسام في المغرب، هي خيط الوصل الذي جعل أم إيهاب تطل عن كثب - رغم بعدها في الواقع بآلاف الكيلومترات عن زوجها السابق بسام - على أخبار بسام وخصوصياته وحيثيات ظروفه. ولم تكن هذه الصورة التي التقطها إياد برفقة بسام سوى إحدى الصور

التذكارية التي بعثها لأخته ليانة كي يذكرها بصديقه القديم بسام وابن جيرانهما في بغداد العتيقة، وقد كتب لها معلقا على الصورة: «لا شك أنك تذكرين هذا الوجه، فهو إضافة إلى كونه ابن جيراننا القديم وزوج صديقتك السابق يمثل لي في الغربة السند المعنوي.. فقد وجدت فيه الصديق الحميم الذي ملأ علي الفراغ وهدأ وجوده بجانبي رياح الوجع التي تلم بي أحيانا حين أستشعر تلك الرغبة الجامحة في العودة إلى الوطن..».

ولم يكن ليخطر ببال إياد أن تصل هذه الصورة إلى يدي أم إيهاب ولا تصور قط أن تصبح هذه الصورة الدليل الوحيد الذي سيوصل ابن بسام إليه بعد أن تزود عن طريق أمه بكل المعلومات الضرورية. وكانت أمه بحصافتها المعهودة وكياستها البالغة قد تمكنت من الحصول على عنوان إياد وهاتفه دون أن تدري صديقتها بالأمر. فأم رولا لم تكن على علم البتة بالدوافع الدفينة والخبيئة في شغاف قلب صديقتها، التي جعلتها تتحين الفرص كي تتحصل على المعلومات بطرق غاية في الحيطة والذكاء. وكانت أخت إياد تعتقد - وهي لا يمكن أن يجول بخاطرها ذلك السر الدفين الثاوي في أعمق منطقة بوجدان صديقتها - أن ذلك الحديث عن بسام لا يأتي إلا عفوا وأن ذكراه عفا عنها الزمن بعد أن تزوجت صديقتها وأنجبت من زوجها السوري الثري ابنها الوحيد. وكانت تعتقد أن حديثهما لا يأتي إلا عرضا وهما تستعرضان شذرات من شبابهما في بغداد. وجاء يوم من أيام أذار الجميلة بدمشق اجتمعت فيه أم رولا بأم إيهاب في نزهة عائلية على ضفاف نهر بردى. وبينما كان كل من إيهاب ورولا يتقافزان حول الأشجار، منصهرين في ألعابهما الطفولية التي لا تنتهي وكان الزوجان قد غادرا الحلقة وأخذا يتجولان مشيا على الأقدام ويبتعدان تدريجيا عن جماعة المتنزهين، فتحت ليانة

حقيبتها وسحبت منها مغلفا مغلقا وطفقت تلوح به في الهواء في عملية تشويق جادة وهي تقول متسائلة وقد غلبها الابتسام:

- احزري هذا الظرف شكو بي؟

هكذا رأت أم إيهاب، بعد عشر سنوات على طلاقها من بسام أبي إيهاب، وملت عينيها في ملامحه وتأملت ذلك التحول الذي طرأ عليه بشيء من الذهول. وكان بسام قد امتلأ جسده وغزا شعره الشيب واكتسحت نظراته مسحة حزينة. لكن الأقدار تلعب لعبتها الغريبة، فتهدي لبعض الأشخاص هدايا نوعية ما كانوا ليتحصلوا عليها ولو بذلوا من أجلها الجهد الجهيد. ذلك أن ليانة ما كادت تعيد الظرف إلى حقيبتها حتى انتهى إلى مسمعها صراخ ابنتها المدوي، فارتعبت فرائصها وهبت واقفة مذعورة تتلمس مصدر الصوت وهي تعتقد من جزعها أن النهر قد جرف ابنتها. وبعد لحظات جرت خلفها أم إيهاب لتتحرى الأمر وتطلع على الذي جرى، فلم يكن الأمر بالفظاعة التي تخيلتها صديقتها، فقد جرف النهر فعلا شيئا كان في عيني ابنتها ثمينا بيد أنه لم يكن سوى كرة مطاطية تنازعت عليها مع إيهاب فما كان منه إلا أن قذفها في عرض النهر ردا على تعنتها ونزقها ورغبة منه في إغاظتها. وحين عادت ليانة وأم إيهاب إلى جذع الشجرة حيث كانتا تحتميان بظلها من قيظ الظهيرة كان الظرف قد اختفى، ولم تتذكره ليانة إلا بعد انقضاء النزهة بيومين، وكان يحوي ضمن ما يحويه عنوان إياد مكتوبا على مغلف الرسالة ورقم هاتفه على ظهر الصورة التي جمعت إياد بصديقه بسام.

بعد عشرين سنة على هذا الحدث سيجد إيهاب نفسه واقفا في مطار محمد الخامس وقد اكتسى نظراته نفس الذهول والرهبة اللذين كان يستشعرهما وهو يرمق لأول مرة الصورة التي جمعت أباه بصديقه إياد. ولم يكن دخوله للمغرب بالسهولة التي كان يتوقعها، فقد

كان قاب قوسين أو أدنى من أن يرفض دخوله إلى البلد من طرف سلطات المطار التي تعللت بكون التأشيرة التي حصل عليها لم تكن من سفارة المغرب ببلده سوريا وإنما من السفارة المغربية بتركيا. مما اضطر إيهاب إلى الاتصال ثانية بإياد وإخباره بالأمر. فكان تدخل إياد مجديا حين خطر بباله أن يلجأ إلى أحد أصدقائه العراقيين الأثرياء القدامى المقيمين بالدار البيضاء ويطلب منه متوسلا تدخله السريع قصد تسهيل عملية العبور لإيهاب الذي بقي عالقا بالمطار ما يزيد عن ثمان ساعات متواصلة.

في هذه الليلة سيحتضن بيت إياد ضيفا قال عن نفسه إنه أحد أقارب بسام، وما كان إياد ليستقبله ويسعى لمساعدته لولا معزته الكبيرة لصديقه بسام الذي انقطعت أخباره فجأة ولم يعد يتوصل منه بأي شيء على الإطلاق بعد أن كانت الأيام السالفة من الشهور المنصرمة حافلة بالمكالمات والرسائل الإلكترونية. والآن يجد إياد ذاته أمام مفارقة عجيبة ذهلت نفسه لها وهو يلمح إيهاب لأول مرة في قاعة الانتظار بالمطار. أحس كأن الزمن دار دورته كاملة وعاد به من حيث بدأت صداقته لبسام. وهو يرقب إيهاب عن كثب، خيل إليه أنه يرى بسام إبان سنوات شبابه الأولى حين كانا يلتقيان في مدرجات الكلية أيام الجامعة ببغداد. وعادت به الذاكرة أدراجها فرأى نفسه مقرفصا على دكة خشبية ينصت إلى بسام باهتمام وهو يقرأ على مسامعه إحدى قصائده التليدة في الحب. وتذكر تفاصيل قصة حبه العارم للفتاة الأردنية الشقراء.. ثم عادت خواطره تنبض بآخر التفاصيل التي حفلت بها الأيام التي سبقت رحيل بسام الأخير. والتمعت مشعة على صفحة ذاكرته صورة مها متألقة، فأحس تجاهها بمشاعر مربكة استعصى عليه فهمها. ووجد ذاته يدمدم في نفسه قائلا: «لا أستطيع أن أفهمك يا بسام.. بعد عودتك من سفرتك الأخيرة لم يخطر ببالي

قـط أن تفكـر بالرجـوع ثانيـة إلـى العراق خاصة في مثل هذه الظروف العصيبة.. لم يجل بذهني أن تتجرأ ثانية فتلقي بهذه الفتاة التي انتظرتك عمرا في دوامة اليأس والقنوط..» ثم أضاف وقد خرجت كلماته خافتة مضغوطة: «أنت حقا لا تستحقها.. أنت يا إما مجنون أو أنك تسعى - مع سبق الإصرار والترصد - إلى دفع هذه الفتاة إلى حافة الجنون..» ثم استحضر لقاء الصدفة الذي جمعه بمها في إحدى المكتبات وكيف أنها أشاحت عنه بوجهها راغبة عن مواجهته أو الحديث إليه.. ثم تذكر أنها في زمن آفل كانت قد التقته صدفة أيام سـفرة بسـام الأولى إلى العراق، وسـألته عن بسـام ولمحة كدر تطفح من عينيها.. لكنها هذه المـرة تشـيح بوجههـا عنـه وهو الذي يلاحقهـا ويرغب في محادثتها. وكان لـه ذلـك، فتمكـن مـن دفعهـا إلى الحديث لكنها لم تزد على أن قالت له: «أرجو أن تكون بألف خير» وولته ظهرها وابتسـامة خفيفة على شفتيها.. واستغرب كونها لم تسأله عن بسام ولا استفسرت عن أخباره.. هل تكون على اتصال به وتعلم عنه ما لا يعلم، أم أنها بكل بسـاطة ضجرت من لعبة الانتظار المملة وقررت أن تمسـح بسـام من ذاكرتها وتدير ظهرها للماضي بلا أسـف؟ وقرأ في عينيها تحديا من نوع ما، وبدا له أنها أضحت أقوى منه ومن صديقه ومن كل البشر. فهي لم تنبس أمامه بكلمة شكوى أو تذمر ولم تبد أي اهتمام لمعرفة الجديد عن بسـام. واسـتحضر نظراتها الهادئة وابتسـامتها الشـفافة في هدأة الليل وحلكة الظلام فبدت له بعينين تشعان بألق غريب، ثم عاد يدمدم ثانية كأنه يصرخ في وجه بسام هذه المرة «أنت لا تستحقها.. أنت مجنون ومتهور يا بسام..».

ورنَّ هاتف مها في هذه اللحظة فقامت مفزوعة من نومها تستقبل المكالمة. وكان الرقم مجهولا لديها، وبعد هنيهة وصلها صوت امرأة يقول:

- أهلا عزيزتي، كيف الصحة والأحوال؟
- أنا بخير والحمد لله، من تكونين، سيدتي؟
- أرجو أن تكوني بألف صحة وعافية وألا أكون أزعجتك بهذه المكالمة الفجائية في هذه الساعة من الليل.
- ليس في الأمر أي إزعاج، سيدتي، هلا شرفتني بمعرفتك؟
- أنا بدوري أرغب في التعرف إليك.
- كيف؟
- هلا قبلت بأن نلتقي في أحد المقاهي ونتحدث كما ينبغي، ولك أن تختاري المكان والزمان الذي يناسبك.
- لقد شوشت بالي بحديثك المبهم، كيف لي أن ألتقي بك وأنا لم يسبق لي أن تعرفت عليك؟

وألحت المرأة في طلب اللقاء ووجدت مها نفسها منصاعة إلى قبول المقابلة وفي صدرها يضج أكثر من تساؤل. ما السر وراء هذه المرأة الغريبة؟ هي بلا شك تعرفني ولهذا ترغب في رؤيتي والحديث إلي.. فيم ستحدثني إذن؟ ودارت الهواجس كلها ببال مها فأخذت تربط الأحداث والصور التي سمعتها ورأتها في الأيام الأواخر، ولم تعثر على شيء ذي بال يستقيم تماما لتخميناتها. وقبل أن تضع الهاتف على طاولتها الصغيرة كانت خالتها قد تسمرت على عتبة غرفتها تسأل في صمت عن سر المكالمة. وكانت مها قد تنبهت لكون خالتها شرعت تتنصت عليها بدأب وتراقب كل حركاتها وخلجاتها بشيء من الريب منذ يوم قصة العصفور العجيب، فألفت نفسها مضطرة لإخبارها بفحوى المكالمة، فقالت لها خالتها بنبرة صارمة:

- لا تذهبي لمقابلة هذه المرأة، قلبي لا يحدثني عنها خيرا.
- ولِمَ سوء الظن يا خالتي؟
- إن من الحزم سوء الظن، فلا تتعاملي مع الغرباء ببراءة وسذاجة

متناهية، فالناس يا ابنتي ليسوا كلهم مثلك.

– لقد وعدتها باللقاء يا خالتي ويجب أن أفي بوعدي لها.

– ومَن تكون بالنسبة لك حتى تلزمي نفسك بالوفاء لها؟ تذكري أنها لم ترغب في الإفصاح عن هويتها، يعني وراءها ما وراءها.

– أنت تضخمين الأمور يا خالتي، ربما يكون الأمر مجرد مقلب من طرف إحدى زميلاتي في العمل أو إحدى صديقاتي القديمات اللواتي انقطعت صلتي بهن. ثم إنني إذا لم أذهب للقائها قد تعيد الاتصال بي ثانية.

– أنا نصحتك، لكن يبدو لي أنك ترغبين في ركوب رأسك، فافعلي ما شئت إذن ولا تلومي إلا نفسك.

وأوشكت مها أن تتعنت لرأيها لكنها وجدت من اللياقة ألا تظهر ذلك لخالتها. فقالت لها مطمئنة إياها ومصطنعة في الآن نفسه تفهمها ورضوخها لنصيحة خالتها:

– اطمئني يا عزيزتي، لن أذهب لمقابلتها.

لكنها قالت في سرها: «يجب أن أذهب لمقابلة هذه المرأة الغريبة، قد يكون وراءها أمر هام يعنيني»، وكان حدسها صائبا. وجاء يوم اللقاء، وكانتا قد اتفقتا على التقابل في مقهى باليما المعروف على الساعة الخامسة مساء. واستعدت مها لهذا اللقاء وقد تلبسها إحساس غريب بأن التي ستراها سيكون وراءها سر ما أو ستكون على صلة وثيقة بشيء يعنيها كثيرا. فوقفت أمام المرآة تتزين واضعة لمسات بديعة من ماكياج فرنسي رفيع، ثم سرحت شعرها القصير تسريحة عادية فبدا لها أن ترفعه على شكل حذوة حصان أو ذيل أرنب، فهي بذلك تبدو أكثر شبابا وتألقا. وفتحت دولاب ملابسها فوقع اختيارها على بذلة شبابية رائقة، منسقة الألوان والتصميم، فبدا جسدها أكثر رشاقة وجاذبية. وعادت بها الذاكرة إلى أول لقاء لها ببسام في طرابلس

حين وضعت يدها على قلادة جميلة من الخرز تتناسب والبذلة، فذكرتها القلادة اللازوردية ببسام وبأيام طرابلس الخالدة. وضحكت من نفسها حين بدا لها وكأنها تستعد للقاء خطيب. وحين همت بالخروج تذكرت عطرها الفرنسي المفضل، فرشت بذلتها بزخات متتالية منه تاركة وراءها نسمته الفواحة تعبق في الهواء، ثم انتعلت صندالها ذا الكعب العالي وهي تسترجع تعليمات إحدى المشرفات على برامج التجميل بحذافيرها: «الشعر المرفوع إلى الأعلى والكحل الخفيف وقد رسم ذيلا رفيعا على حافة العين مع بودرة وردية طفيفة وأحمر شفاه شفاف يتناسبان تماما مع أحذية بكعب عال، فيزيد الفتاة رشاقة وتألقا وجاذبية، على أن يتناسق لون الحذاء مع لون الحقيبة اليدوية..» وهكذا وجدت مها نفسها وهي تغذ في السير إلى مقهى باليما وكأنها خارجة لتوها من إحدى صالات التجميل وذاهبة للتو إلى إحدى قاعات التصوير. وأفلتت منها ضحكة خفية وهي تتلقف معاكسة شاب كان يمتطي دراجته النارية، بشعر حليق من الأمام وعرف ديك يبدأ من مقدمة رأسه وينتهي إلى قفاه وقد ارتدى سروال دجينز ممزق من الركبتين. وابتسم لها ابتسامة الواثق من نفسه ثم قال بلهجة دكالية أصيلة: «نوصلك أزوينات ديالي؟ عز علي هذا الزين كله غادي على رجله، نوصلك على الموطور ديالي..؟ ما تخافيش على خوك.. راني نبرعك..».

قرعت أذني مها كلمة «نبرعك» فجلجلت في أعماقها ضحكة مكبوتة وردت عليه في سريرتها: «غادي تبرعني عالموطور، زوينة هاذي، يشويني فيك». وانتبهت إلى ساعة يدها فأدركت أنها ستصل مبكرة إلى مكان اللقاء المعلوم، واستسلمت لنداء خفي يحثها على التمهل قليلا كي تجد المرأة في انتظارها وليس العكس ما دامت هي من طلبت المقابلة. وابتسمت لهذا الخاطر الشيطاني الذي لا

يخلو من خبث، وتذكرت للتو حديث زميلتها صباح ذات مساء وهي تحدثهن عن ضرورة التخابث أحيانا خاصة إذا كان الأمر يتعلق بعلاقة حديثة لفتاة مع رجل يرغب في التعرف عليها. وأصرت على أن المرأة يجب أن تتزود دائما بجرعة خفيفة - أو ثقيلة أحيانا حسب الظروف والمواقف - من التخابث في علاقتها مع الرجل كيفما كان نوع العلاقة التي تربطها به. وعرجت الذكريات بمها إلى دروب الماضي البعيد والقريب فاكتشفت أنها لم تكن تحترم البتة نصيحة صباح وكانت تتعامل مع بسام على الفطرة، بكامل التلقائية والعفوية، ولما كانت تكره حد المقت أولئك الذين يعبثون بالمواعيد حتى أصبح يضرب المثل بالموعد المغربي، فقد كانت حريصة كل الحرص على أن تعاكس المثل، فكانت جل مواعيدها - إلا فيما ندر - مضبوطة مع بسام، غاية في الضبط والربط، بل إنها كانت أحيانا تتفانى في قلب المثل فتصل قبل بسام بدقائق. وانقطع سيل خواطرها وهي تنتبه إلى ساعتها مجددا، فجفلت حين لمحت عقرب الساعة يشير إلى الخامسة وعشر دقائق. فأخذت تحث الخطى وقد انتابها شيء من الوجل. ثم صعدت تلهث أدراج المقهى المفتوح على الطبيعة وهي تتأمل الوجوه متحرية في صمت عن وجه المرأة التي تنتظرها. وكان المقهى مكتظا كعادته بالرواد المغاربة والأجانب، وانتظرت ثانية قبل أن تقرر الجلوس على أمل أن تسمع نداء أو تلمح إشارة من أحد أركان المقهى، فجلست وقد رن في دخيلتها صوت ذلك النداء الخفي، وكان هذه المرة يهمس لها ساخرا، مستخفا: «اللي في راس الجمل في راس الجمالة»، لكن يدا ربتت بلطف على كتفها من الخلف فسمعت المرأة تقول: «كنت جالسة في المقاعد الخلفية ولم أنتبه لقدومك إلا حين هممت بالجلوس..» وتملت مها ملامح المرأة بتؤدة علها تنتزع من أرشيف ذاكرتها خيطا رفيعا يدلها على معرفة قديمة بالمرأة، لكنها وهي تعتصر

ذاكرتها لم تعثر على أي دليل، فاستيقنت أن هذا الوجه لم يسبق لها أن رأته ولو في الأحلام. لكنها أدركت أيضا وهي تتملاها متفحصة أن حدسها لم يخيبها. فالمرأة بل الفتاة كانت غاية في الأناقة، مذهلة الجمال، وتيقنت حقا أن «اللي في راس الجمل في راس الجمالة» وحمدت الله كثيرا في سرها أن استعدت لهذه المقابلة الفريدة وهي على نفس الشاكلة تقريبا من الأناقة وحسن الذوق. وطفقت تترقب بلهفة ما سيسفر عنه هذا اللقاء وتنتظر بإصرار غريب أن تفرغ هذه الفتاة جعبتها وجرارها بما تحويه من أسرار، وكأنها تحمل سرا من أسرار الحياة أو أكسيرا عجيبا من أكسيراتها النادرة. وجاء صوت الفتاة الحسناء متكسرا يقول:

- أخشى أن أكون أزعجتك بطلب مقابلتك.

- ليس في الأمر أي إزعاج، مرحبا بك.. تسرني معرفتك..

- أنا أشعر بالحرج ولا أعرف كيف أبدأ حديثي إليك..

- «**مم الحرج يا عزيزتي؟ أنا مجرد فتاة مثلك، بالله عليك أفصحي**».

- وأخشى أن تفهميني خطأ.

- «**هذه الفتاة سترهقني، حتما، وستزيدني عذابا فوق العذاب بهذه المقدمات المتلعثمة المطولة.. لا تفقديني صبري.. هلا أفرغت جعبتك..؟**».

وانتبهت مها إلى نفسها وقد غاصت في أحاديثها الداخلية الصامتة ونظرات الفتاة مصوبة نحوها كأنها هي من تنتظر من مها أن تفصح، فقالت لها معقبة وقد انتابها الارتباك:

- لا تشغلي بالك بأية هواجس لا أساس لها من الصحة.. تحدثي بدون وجل ولا تحفظ، اعتبريني صديقة أو أختا لك «**وكنت أنا من تنهبها الهواجس وأنا أقرأ في عيني هذه الغادة الحسناء ألف سهم**

مصوب بدقة نحو هدف معلوم..».

وانطلق أول سهم قاصد من لسانها حين أفصحت وقالت:

- أنا سيمون، صديقة بسام.

وارتجت مها رجة عنيفة عند سماع صوت الطلقة الأولى وأدركت أن حدسها لم يكن بعيدا تماما عن دائرة الاحتمالات الممكنة. فهي حين تأنقت و«تشيكت» كأنها كانت تستعد مسبقا لموقف مشابه دون أن تستطيع استقراء الغيب (ومن ذا الذي يستطيع استقراء الغيب؟)، لكن قلبها حدثها بأن وراء هذه المرأة ما وراءها. وبدا لها المشهد مثيرا حين تخيلت نفسها والفتاة كنمرتين تتربصان بغزال. وازدادت مخيلتها جموحا فرسمت لها مشهدا كاريكاتوريا مضحكا لقطتين تتربصان بفأر خائف جزعان. وأخذت تستبق الأحداث وتتصور ما ستضيفه هذه الفتاة بعد أن صرحت بصداقتها لبسام بعينين ولهانتين. واستعدت مها للمواجهة بصبر وأناة منحية إلى أبعد الحدود سمات الانفعال أو إظهار أي إحساس حقيقي تجاه بسام. فوصلت الطلقة الثانية هادئة حين أضافت سيمون:

- أخبرني أحد الأصدقاء أنك صديقة عزيزة لبسام وأردت أن أستعلم منك عن سر غيابه الطويل.

- «**بِمَ أرد على هذه الفتاة التي تريدني أن أزودها بما لا أعلم؟**».

فقالت لها بنبرة هادئة باردة:

- من يكون هذا الصديق؟

- هي في الأصل صديقة وليست صديقا.

- «**زيديني علما**».

- ومن تكون هذه الصديقة إذن؟

- لا يهم معرفتها.

فقاطعتها مها بسؤالها المفاجئ:

- هي من زودتك برقم هاتفي؟

- نعم.

- يبدو أنها صديقة مخلصة.

وأدركت سيمون نبرة السخرية التي انطوت عليها عبارة مها الأخيرة، فعقبت قائلة:

- صدقيني، لا دخل لصديقتي في الموضوع وهي لا تعلم البتة بلقائنا.

واستشفت مها من حديث سيمون ولكنتها المخضرمة ومن اسمها أيضا أنها ليست مغربية أو بالأحرى لم تعش بالمغرب، ففاجأتها وهي تبدي ملاحظتها بتلقائية:

- يبدو أنك لست مغربية؟

وأجابت سيمون بنبرة متوترة وقد بدأت تفقد صبرها أمام برودة الأعصاب التي أبدتها مها:

- أنا مغربية، والدي رجل أعمال، لكن أمي لبنانية وقد عشت ما يقارب العشرين سنة من حياتي في لبنان ولم نعد إلى المغرب إلا مؤخرا.

وتلقفت مها هذا الجواب بشيء من الارتياح بعد أن أدركت أن صداقة هذه الفتاة لبسام، كما تدعي، لا تزيد على بضعة أشهر إن لم تكن بضعة أسابيع، وشعرت بالحبور حين استحضرت طبع بسام الذي يغلب عليه التأني الشديد في اختيار علاقاته. فهي تدرك يقينا بحكم صداقتها الطويلة لبسام والتي أتاحت لها مع كر السنين والأيام سبر أعمق أغواره أن بسام يشبه ذلك القدر الذي لا يحلو له أن يغلي إلا على جمر تحت الرماد، ولا يأبه البتة لتلك العلاقات العابرة التي تطوح ألسنة نيرانها في السماء وتشتعل بجموح كنار في الهشيم ثم سرعان ما تنطفئ كما بدأت. واختلست مها نظرة خاطفة من سيمون

فقرأت ما يشبه التذمر في نظراتها. لكن سيمون أعادت سؤالها ثانية بشيء من الإصرار هذه المرة، فقالت لمها مستفهمة:

- ألم يخبرك بسام بوجهة سفره؟

وتذكرت مها نصيحة زميلتها صباح، وطفقت تطبقها بتفنن وتفان وهي تدرك جيدا أنها قلبت القاعدة وأفرغت محتواها على امرأة بدل رجل. وقالت في دخيلتها بكثير من التخابث «ما دامت هذه الفتاة الرعناء التي تدعي أنها صديقة بسام، ترغب في أن أزودها بأخبار بسام فلن تعود إلى صديقتها التي زودتها برقم هاتفي إلا صفر اليدين كما جاءت..» وبحدس الأنثى الغريزي أيقنت مها أن هذه الفتاة الماكرة لم يكن سؤالها عن وجهة سفر بسام سوى تلويح مبطن لمها، رغبت من ورائه - بل من طلب المقابلة أصلا - أن توصل لها رسالة ملغزة مفادها أن تدرك مها بالملموس وعلى المكشوف أن حبيبها بسام على علاقة بفتاة فاتنة وثرية، وأن تدفعها بطريقة ذكية إلى الابتعاد عنه أو في أهون الأحوال الشك في صدق حبه لها. وحين بلغ الحدس بمها إلى أقصى درجات اليقين وجدت نفسها تقول لسيمون بعد أن تزودت بجرعة إضافية من التخابث:

- أنا لا علم لي بوجهة سفره ولا حتى بغيابه، فكيف لم يخبرك بالأمر علما أنك صديقته؟

فارتبكت سيمون وهي تتلقى ردود مها الجوفاء، فقالت لها مبررة ذلك بشيء من الذكاء:

- إن ظروف المرء أحيانا تمنعه من إطلاع أقرب الناس إليه على قراراته.

«إذا كنت تلمحين إلى كونك أقرب الناس إليه فإن نجوم السماء أقرب إليك إذن من معرفة جديد أخباره وسجل أحواله..».

ورفعت مها دورق عصير التفاح من على المائدة وأضافت إليه

بأناة جرعة خامة من عصير التخابث وقالت لسيمون وقد أشرق وجهها بابتسامة رائقة:

– اطمئني عزيزتي، سأخبرك بجديد بسام حال عودته فورا من غيبته، فلا تقلقي ونامي قريرة العين.

وظنت مها أن المقابلة ودوافعها قد انتهت هنا، لكن صوت سيمون انتعش مجددا فوصلها اقتراحها وهي تردد في شبه توسل:

– رجاء، لا تخيبي ظني، فأنا طلبت مقابلتك لسبب وجيه وهو رغبتي الصادقة في أن تقبلي دعوتي وتشاركينا حفلة الأصدقاء الشهرية. فأصدقاء بسام يجتمعون كل شهر تقريبا عند أحدهم فتكون الحفلة رائقة بحضور الكثير من الأصدقاء والصديقات.. ويسرني أن تشاركينا حفلتنا، وتتعرفي بالمناسبة على أصدقاء بسام..

«من قال لهذه الفتاة أنني أرغب في التعرف على أصدقاء بسام في غيابه؟».

وحملقت مها في وجه سيمون مذهولة وهي تقرأ رسالة من نوع آخر هذه المرة، وكي لا تفسد أجواء المسرحية قالت مها بنبرة رزينة وعلى وجهها سيماء صدق لا يرقى إليه الشك وقد طفرت من عينيها ابتسامة مشرقة:

– سأكون سعيدة جدا بالتعرف على أصدقاء بسام في غيابه.. تلفني لي حين يتحدد موعد الحفلة وسأكون إن شاء الله من الحاضرين..

وتذكرت وهي تنطق هذه العبارة التي تضمر أكثر مما تظهر تلك اللوحة العريضة المزينة بالآية الكريمة والتي علقت على المدخل الرئيسي لميناء القاهرة الجوي «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» والمصريون يعتبرون كل من يدخل أرضهم قد دخل أرض السلام والأمان ويتجاهلون نصف الآية المشروطة بـ«إن شاء الله..»، يعني

إذا لم يشأ الله فلا وجود للأمن هناك ولا هم يحزنون.

وانتهت المقابلة عند هذا الحد فقامت سيمون تطبع قبلات حارة على وجنتي مها، وودعتها على وعد اللقاء القريب حين يتحدد موعد الحفلة. وشيعتها مها بنظرات مرتابة حتى توارت عنها وهي تهمس في سرها: «يبدو أن هذه الفتاة المذهلة قد جمعت في جعبتها خبث المغربيات والمشرقيات على السواء.. ما شاء الله عليها ولله الأمر من قبل ومن بعد..».

وسارت بخطوات وئيدة تجتر ما سمعت وما رأت وهي تذرع شارع محمد الخامس العامر بالعابرين وتنصت بذهول لصوت خفي يتردد بداخلها ساخرا، مستفزا: «شرايكات المزلوط.. زوينة هاذي» وعادت أدراجها إلى بيت خالتها توا بعد أن استولت عليها فجأة قبضة حزن شديدة الوطأة. وعرجت على الزقاق منكسرة وصوت المهبول يقرع آذانها بأهازيجه الملغزة.

ودخلت سريرها مبكرة تلك الليلة وهي تتساءل جادة إن كانت رأت فعلا المهبول قابعا عند زاوية الزقاق وسمعته يرتل أهزوجته المعهودة أم أن حضوره المرتبط في وعيها بأهزوجته سكن لا وعيها ووجدانها فتراءى لها مكوما ككيس صخور عند زاوية الزقاق، وعيناه الغائرتان تبرقان كنجوم كاسفة في ليلة ليلاء وفمه المترم يصدر تراتيله كعهدها به دائما. ولم ينقر الطائر العجيب زجاج نافذتها في تلك الليلة لكنه زارها في هيأة قبرة وهي بين أدغال أحلام متشابكة، ودلها بإشارة من جناحيه على أرض جرداء.. ورفعت مها عينيها إلى قبة السماء فإذا بها سماء مكفهرة، قفر من النجوم.. وعادت تتأمل بدهشة شساعة الخلاء المترامي الذي لا يحده أفق، وراعها مشهد مذهل وهي ترى بأم عينيها كيف تبرعمت للتو شجيرة خضراء يانعة في قلب القفر.. واستطالت أغصانها واشرأبت فروعها وانسدلت أوراقها كأنها تدعوها

إلى الاقتراب والاحتماء بظلها الوريف.. وهالها منظر الشجيرة تنمو بغتة وسط خلاء لا متناه، ودنت نحو الشجيرة تملي النظر إلى يناعتها فاجتذبتها ريح غريبة كأن يدا خفية خرجت من حيث لا تدري وجذبتها إلى جذع الشجرة، فوجدت ذاتها تحت ظل الشجرة الوارفة، السامقة تنظر بوجوم كأنها على أرض كوكب آخر.. ورفعت عينيها إلى فروع الشجرة فإذا هي محملة بشتى ألوان الثمار.. وذهلت حين تجمهرت على حين غرة زمرة من الناس حول الشجرة وشرعوا في قطف تلك الثمار في حركة دؤوبة.. وخطر لها أن تسأل أحدهم عن وجهتهم فتجاهلوها قبل أن تسألهم.. وجاءها أحدهم وكأنه أحس بغربتها، وناولها صحيفة مليئة بالثمار، وأمسكت عنه الصحيفة وهي في غاية الارتباك والذهول، فأوعز لها أن تتذوق الثمار وشجعها بقوله إنها طيبة وحلوة، لكن شبعها الشديد حال دون تحقيق رغبته، وفكرت أن تعيد إليه صحيفته كما تسلمتها فكانت يد خالتها تربت على كتفها بلطف وتقول لها «اسم الله عليك.. كنت تتحدثين جهرا وأنت تحلمين.. خيرا وسلاما إن شاء الله..» فارتابت مها من حديث خالتها وانتابها شك أن يكون لسانها قد نطق في حضورها بما لا يجدر لها أن تسمعه، ولم تجد ما تقوله لخالتها، لكنها سألتها مشفقة:

- ماذا سمعتني أقول يا خالتي؟

- كلاما مبهما يا عزيزتي لم أتبين مضمونه.

واستقبلت مها جواب خالتها بارتياح عميق وحمدت الله أن لسانها لم يخنها وهي في قبضة حلم غريب. وهزتها مشاهد الحلم بشكل قوي حين غادرت خالتها الغرفة، واستعصى عليها النوم مجددا فاستسلمت لخواطرها. وسرعان ما استحضرت ذاكرتها تفاصيل لقائها بسيمون، وألح عليها تساؤل حاولت أن تكبته في حضور سيمون لكنه يعود اللحظة وقد أحكم قبضته الشديدة على وجدانها: «هل صحيح

ما ادعته الفتاة أم أنها مجرد محتالة تود أن تستحوذ على بسام في غيابه وترغمني على الانسحاب بهدوء من المعركة؟ من يكون زودها برقم هاتفي؟ أتكون صديقتها كما ادعت أم هي في الأصل صديق تنكرت سيمون لوجوده ومشاركتها اللعبة في حضور مها؟» ورجحت مها هذا التخمين معتمدة في ذلك على عزوف سيمون عن التعريف بهوية صديقتها. «وإذا كان الرجل صديقا لسيمون فهل هو أيضا صديق لبسام؟ وكيف تحصّل على هاتفي علما بأن بسام يتكتم على أقل الأشياء ولا يطلع أحدا على خصوصياته؟ وما مصلحة هذا الصديق في تقديم هذه الخدمة لسيمون؟» وذهبت بمها الظنون بعيدا لكنها لم تستطع أن تجزم بشيء.

كان الفجر على مشارف البزوغ والنوم قد طار من الجفون، فقامت مها متثاقلة تتوضأ لتصلي الصبح، وانتبهت إلى غرفة خالتها فإذا الضوء كاسح، وتناهت إليها خافتة همهمة صوتها وهي تتلو المعوذتين في عجلة ولهوجة، ثم تعيد تلاوتهما في عملية مكرورة. وعنّ لها أن تدخل عليها لتصبّح عليها لكنها عزفت عن الأمر وقد بدا لها من غير اللائق أن تقطع عليها تلاوتها وتسبيحها. وحين خفت الصوت في هدأة الفجر دخلت تلقي تحية الصباح على خالتها فبدت لها بعينين متورمتين وأجفان متعبة ونظرات ساهمة وغلالة من الوجوم تلفها. وترددت قبل أن تقول لها:

- هل أنت بخير؟ خالتي.

- أنا بخير والحمد لله، لكن..

وقبل أن تتم كلامها أردفت مها مستفهمة:

- لكن ماذا يا خالتي؟ إني أراك متعبة وشاردة البال كأنك لم تنامي الليلة.

- أنا فعلا لم أنم.

- هل أيقظتك حين كنت أتكلم وأنا في قبضة الحلم؟
- أنا لم أنم أصلا.
- ولماذا لم تنامي يا خالتي؟ خذي بالك من صحتك، إن الأرق قد يرهقك.
- ما يرهقني حقا هو أحوالك التي لم تعد تعجبني.
- وما بها أحوالي؟ أنا بألف خير يا خالتي، دعي الأوهام جانبا واطمئني وارتاحي ونامي قريرة العين.
- كيف أنام وأنا أراك بأم عيني تهدرين شبابك في عنوسة لا يبدو لها آخر؟
- الزواج قسمة ونصيب يا خالتي، فلماذا تشغلين بالك بأمور ليس باستطاعتنا حلها ولا عقدها.
- بل باستطاعتك أن تحليها، لدي يقين كبير أنك ترفضين كل من يتقدم إليك بطلب الزواج أو حتى التعرف عليك.
- وهل تريدينني أن أقبل بالزواج دون الرضى التام بأحدهم؟

ورنت إليها خالتها بنظرات حانية وقد تقطع قلبها شفقة على حال ابنة أختها الوحيدة العازفة عن الزواج، فخففت من حدة صوتها ومن نبرة اللوم التي اكتنفته، فدنت منها وربتت على كتفيها وضمتها إليها بحنو وقبّلت خدها فامتلأت عينا مها بدموع خفية حاولت جاهدة منعها من النزول على خدها، ثم قالت لها بلهجة كلها استعطاف وتودد:

- أرجوك حبيبتي، فكري جيدا في مستقبلك، فالأعمار بيد الله، وأنا أود من كل قلبي أن أطمئن عليك قبل أن أغمض عيني، فلا تحرميني من تحقيق هذا الحلم، رجاء.
- كل شيء بيد الله يا خالتي، إن الله يرزق من يشاء ويقدر.

واختلست مها نظرة خاطفة إلى عيني خالتها فقرأت فيهما كلاما غير منطوق وكأن ريشة نثرت ما في خبايا القلب وحنايا الصدر ورسمته

بشكل مبهم في بؤبؤ عينيها. وأوشكت مها أن تستفهم خالتها عما كشفته عيناها، لكنها شعرت بشيء عقد لسانها وأرغمها على الصمت. وخشيت أن يتطور الحديث إلى جدال أو خصام وهي لا تجرؤ على مجرد التفكير في تعكير صفو حياة خالتها التي هي جزء من حياتها. وطوت الموضوع بأن قبّلت جبين خالتها مطمئنة إياها بأن الله سبحانه أكرم الأكرمين وهو لا ينسى عباده الصابرين، وزادت في طمأنتها حين أضافت بأن قلبها يحدثها خيرا ويبشرها بأن الأيام القادمة ستحمل بشائر الخير وتزف على أجنحتها كل المسرات والأفراح بإذن الله. ولم تكن مها مداهنة بل كانت تعبّر عن صدق طويّتها وحسن نيّتها بالله وحدسها المتفائل بالمستقبل. وكان ذلك الإحساس الغريب الشفيف بالأشياء والأحداث قد تنامى لديها حين بدأت تستقبل بلهفة وشوشات الطائر الغريب الذي يسمعها الأعاجيب وتطير على جناحيه فترى ما تذهل له العيون. وحين تراءى لها في الحلم على هيئة قبرة وأراها كيف تبرعمت في قفر لا حد له شجيرة خضراء، وكيف طفقت تتسامق إلى السماء، أحست كأن رخاء طيبة هبت على صحراء قلبها وخضبته بالأمل والفرح الموعود.

وسارت تلك الصبيحة تقطع الطريق الفاصل بين المدينة القديمة ومحطة الحافلات بخطو وئيد وقد جمحت بها المخيلة بعيدا فشرعت تسمع في زعيق السيارات المتواتر أحاديث بسام الصاخبة وترى في هفهفة أغصان اللبلاب حركة يديه الدافئة وهي تربت بحنو على كتفيها، وفي تشابك أغصانه تشابك أصابعها في ذلك المساء البعيد الذي جمعهما على طريق الوداية بعد غيبتها الطويلة في الصويرة. وأعادتها بغتة إلى أرض الواقع تحية ودودة ألقاها بشكل خجول على مسمعها أحد معارفها:

- صباح الخير، خالتي، كيف حالك؟

– أنا بخير يا ولدي، وأنت كيف تسير أمورك وكيف هي الوالدة العزيزة؟ أشتاق لرؤيتها.

– هي أيضا تسأل عنك دوما، لكن لماذا لم تعودي تزورينا كما كان الحال منذ سنوات مضت؟

– لا تعاتبني يا عصام، فمشاغل الحياة كثيرة ومتاعبها بلا حدود، والعمل يرهقني كثيرا.. هذا كل ما في الأمر.. لكنك لم تخبرني شيئا عن جديد ملفكم المطلبي.

– لا شيء يا خالتي، للأسف، وقد بدأ اليأس يتسرب إلى نفوسنا، فنحن كثر كما تعلمين، فهناك الآلاف من المجازين المعطلين والحكومة لا تبدي أي حماس لحل هذه المعضلة، ولا ينالنا من اعتصاماتنا المكرورة سوى دق الرؤوس بالفؤوس.

– كيف؟ هل يضربونكم بالفؤوس؟

– أقصد الهراوات الصلبة كرؤوس الفؤوس.

تذكر مها جيدا سيرة هذا الشاب الوسيم اللطيف حين كان لا يزال جنينا في بطن أمه، وكانت أمه المغلوبة على أمرها قد رحلت به من مدينة فاس وقصدت العاصمة حيث وعدها أحد أقاربها بأن يضمن لها عملا في إحدى المخبزات. وشرعت تعمل في المخبزة وهي في شهرها الرابع، وسكنت في غرفة على السطوح في بيت أقاربها الذين أبدوا تعاطفا معها وأسفوا على تعثر حظها، فأمنوا لها السكن والعمل وساعدوها على قدر المستطاع على تحمل نفقات تربية الطفل وتعليمه. وكانت أم عصام يتيمة الأبوين أجبرها أخوها الأكبر على الزواج من رجل ميسور سبق له أن تزوج من امرأتين قبلها وطلقهما بدزينتين من الأولاد. وكان هذا الزوج – كما تصف أم عصام – الأقرع المتجبر يكن للنساء في سريرته حقدا لا تتحمل ثقله الجبال، ذلك أن أولى زوجاته – كما شيع هو في عموم الناس –

التي تزوجها عن حب، خانته مع أحد أصدقائه بعد أن رزق منها بستة أولاد، ولم يكن ليصدق أمر خيانتها لولا أن ضبطها متلبسة في بيت صديقه وهي في حالة لا لبس فيها، فطلقها بعد أن شنع بها وجردها من كل ثيابها وحليها وأطفالها، ثم تزوج ثانية من فتاة عذراء تصغره بعشرين سنة، وأنجب منها ستة آخرين. ولم يكمل الطفل السادس الستين من عمره حتى لقيت أمه نفس مصير سابقتها، فكان نصيبها الطلاق رغم أنها لم تقترف أي جرم يلزمه بتطليقها. ولم تكن زوجته الثانية قد وعت جيدا ما ينطوي عليه صدر زوجها من ضغينة، فلم تستسغ أن يتم تطليقها بدون مبرر منطقي يقبله العقل، فلجأت إلى دار القاضي تشكوه، لكن القاضي لم يستطع شيئا بعد أن كان الطلاق قد تم، فقال لها متأسفا «فوضي أمرك لله.. لديك الحق فقط في طلب المتعة أما النفقة فلا نفقة لك ما دام هو من سيتكفل بتربية أبنائه..» ثم جاء دور أم عصام التي تزوجها وهو على مشارف الستين، ولم تكد تحبل منه حتى أصيب بسرطان الكبد الذي لم يمهله كثيرا. وبينما هو على فراش الموت، وقد أحاط به كل أبنائه برفقة أمهاتهم المطلقات، قام مترنحا ونادى على أكبر أبنائه وطلب منه بصوت واهن أن يأتيه بعدل، وتعجب الأبناء وأمهاتهم من طلبه وذهبت بهم الظنون بعيدا، وانتظروا مجيء العدل والريبة تنهشهم، وكانت دهشتهم كبيرة وهم يتلقفون كلماته التي خرجت مبحوحة مخنوقة وقد وجهها إلى زوجته الثالثة: «أنت طالق بالثلاث» ثم أضاف، وخرج صوته مخشوشنا: «ما زالت لم تخلق بعد المرأة التي ترثني». لكن القدر كان أقوى منه فتوفي بعد أسبوعين وزوجته الثالثة لم تكمل بعد عدتها مما أهلها شرعا لترثه. فكانت حصتها من الإرث مبلغا ماليا محترما كان كافيا وقتها لاقتناء بيت صغير متواضع في أحد أزقة المدينة القديمة بالعاصمة.

وكان وجه عصام الهادئ الودود يوقظ في مها مشاعر ساجية،

وكأنها ترى فيه ابنا كان بإمكانها أن تنجبه من بسام. وهي حين تناديه «ولدي» إنما تخرج هذه الكلمة من أعماقها وتعبّر صادقة عن خالص مشاعرها تجاه الولد، وتحسه يبادلها نفس الشعور حين يناديها «خالتي». وكم تسعد لهذا النداء من شاب لاعبته كثيرا في صباه واشترت له الهدايا وأغرته بقطع الحلوى كي يغني لها بلسانه المتكسر أناشيد وأهازيج الطفولة وهو ينطق الكاف ثاء والعين هاء.

وأعادها تساؤل عصام ثانية إلى نفسها وهو يستفسرها بقوله:

- أظنك ذاهبة إلى العمل يا خالتي، أليس كذلك؟

- نعم، يا ولدي، وأنت إلى أين أنت ذاهب في هذا الصباح الباكر؟

- لدينا اجتماع عام سيحضره كافة ممثلي المجازين المعطلين على الصعيد الوطني في مقر الاتحاد المغربي للشغل، وسنسعى لتنظيم أضخم تظاهرة للمجازين أمام مقر البرلمان كي نسمع الحكومة أصواتنا..

- أتمنى لكم كل التوفيق يا ولدي، فما ضاع حق وراءه طالب، سيروا على الدرب ولا تيأسوا.

- ادعي الله معنا يا خالتي بالسلامة، فالأمر لا يخلو من مغامرة غير مأمونة وقوات الأمن لنا بالمرصاد.

- الله ينجيكم من كل أذى يا ولدي، بالسلامة والعافية والتوفيق إن شاء الله.

وقبل أن يودعها كانت مها قد استلت يدها خلسة من جيب محفظتها ودست في جيب جاكتته قدرا من المال، فاحمر وجه الفتى وجفل وأراد أن يعيد لها المبلغ لكنها أصرت على أن يتقبله وهي تقول له مرددة ومعاتبة:

- إذا كنت تحسبني في مقام خالتك فأنا أحسبك في مقام ابني،

فـلا تخجـل منـي إذن إذا سـلمتك قـدرا مـن المـال، فهـو بمثابة هدية متواضعة مني..

وابتسم الفتى بامتنان وازدادت وجنتاه احمرارا وكاد ينحني على يدهـا ليقبلهـا، فجفلـت مهـا وهـي تسـتعيذ بالله ولسـانها لا يفتر يردد دعاءها الخالص له بالسلامة والتوفيق.

* * *

لم تكن مها لتتوقع في تلك الصبيحة الربيعية الهادئة أن يفاجئها القدر بمقدم شخص إلى مقر عملها كانت قد نسيته تماما في غمرة انشغالاتها وبؤسها الناجم أصلا عن غياب بسام المقصود هذه المرة. وحين رمقته جالسا على كرسي قبالة مكتبها ذهلت ولفت بها الدنيا وعادت بها الذاكرة مرفرفة إلى جامع الفنا وشارع فرنسا والمنارة حيث جالت رحابها رفقة بسمة.. وحين لمحته من الخلف تذكرت للتو كرمه الحاتمي في تلك الليلة الجميلة التي لن تتكرر وكيف أنه عاملها معاملة خاصة وأكرمها بمأدبة عشاء فاخرة برفقة بسمة ابنة أخته في قاعة ضيافة من أجمل الرياض بمراكش. ولم تكد تردد على مسامعه تحية الصباح حتى وقف الرجل وجلا، مرتبكا وقد اكتست ملامحه مسحة من الحبور حاول جاهدا أن يجعلها تطفو وتخفي ما انطبع على وجهه من الارتباك والتردد. وحين رحبت مها بمقدمه قائلة:

- مرحبا بأهل مراكش في رباط الخير..

قال لها وهو لا يزال يداري خجله واضطرابه:

- أنا سعيد برؤيتك مجددا، وأبلغك تحيات بسمة التي تعاتبك كثيرا على صمتك وغيابك.

ولما كان المكتب لا يتسع لحديث يجهل كلاهما أفقه في حضور كاتبات أخريات أعينهن ترصد الحركات وآذانهن تصيخ السمع وتلتقط باللاسلكي ما قيل وما لم تفصح عنه الألسن، قام خال بسمة لتوه يستأذن مها لبضع دقائق كي يتم حديثه المقتضب خارج المكتب. وأدركت مها بحدس الأنثى ومن نظرات الرجل المرتبكة أن خال بسمة في جعبته حديث خاص يود أن يفضي به إليها في منأى عن الأعين والآذان. فاستأذنت بدورها زميلاتها وهي تعدهن بالعودة سريعا إلى

المكتب. ولم تدع صباح الفرصة النادرة تفلت منها فسربت لمها غمزة خفية بعينيها الذكيتين وكأنها تقول لها «لا تدعي الفرصة تفلت منك..» أو بأسلوبها الفكاهي الساخر «تهلاي في الطوير وعندك تخليه يهرب من يديك..» وكانت صباح تلقب جمهور الرجال «بالبراطل» الطائرة التي يصعب اصطيادها، ولا يقعون في الشباك إلا على يد قناصة ماهرة، متمرسة تتقن فن السير والكلام والحركة والهمس واللمز و«الشوف بالتاويل»، وكانت دائما تنهي حديثها الشائق عن معشر الرجال بقولها: «راهم دايرين بحال القطط المغمضة واخا يبانوا ليكم فايقين وعايقين.. خاص غير المرأة تكون ذكية وعلى بال وتعرف كيفاش تقولب عليهم، وما تنساوش نصيحتي ليكم «راه غير بالتاويل يتكال بودنجال..».

وغادرت مها المكتب خلف الرجل وهي بالكاد تكبت ضحكة مدوية بداخلها، فغمزة صباح أربكتها وشحنتها بدفقة مفاجئة من الترقب. وتوفزت أعصابها لاستقبال حديث شائك من رجل كادت ذكراه تمحي من سجل ذاكرتها، في خضم ما عاشته من أحداث أضرمت صدرها بموجة من المتناقضات التي لم تستطع تحمل ضراوتها. فمن فرح غامر بلقاء بسام إلى حزن دفين على غيابه المجدد وغير المبرر، ومن عالم أفلاطوني تؤثثه سعادة منفلتة إلى واقع مرير ينفتح على الغياب والكآبة وانسداد الأفق وكل ما تحمله معاني الموت بالتقسيط. وفجأة، ودون سابق إعلان أو انتظار، يظهر هذا الرجل الذي يحمل في جعبته ما يحمل، فتجد مها نفسها قبالته في الساحة الخارجية للوزارة وقد سربلهما ظل شجرة وارفة. ورفعت مها عينيها إلى عينيه في ارتباك واضح وترددت نظراتها بين شفتيه وعينيه وكأنها تستقرئ حديثا خفيا سينفلت فجأة من شفتيه المرتعشتين أو من عينيه الساهمتين. ووجدت ذاتها ترحب به ثانية وكأنها تشجعه على تكسير جدار الصمت والشروع فورا في الموضوع. ولم يلبث

أن قال لها متلعثما:

- الحقيقة أنني أتيت إليك في طلب خدمة..

وقبل أن ينهي حديثه أدركت مها قصد الرجل واستبعدت ما قصدت إليه صباح بغمزاتها، وأدركت أيضا أن حديث الرجل سينطوي لا محالة على سخرية القدر. فقد ذهبت بها الظنون بعيدا وتوقعت أن يحدثها في أمر شخصي يعنيه هو بالذات، وتركزت توقعاتها على موضوع الزواج بالتحديد، فإذا به يقول لها:

- إن بسمة ترغب في إجراء مرحلة تدريبية بإحدى المعاهد بالرباط، وترجوك كما أرجوك أنا أيضا أن تقبلي بإقامتها عندك لبضعة أيام ريثما تجد سكنا مناسبا بالعاصمة.

ولم تكد مها تتلقف تتمة الحديث حتى كرت بها الذاكرة إلى تفاصيل حديث بسمة عن خالها وكيف أنها أخبرتها أنه عازف عن الزواج، ويعيش حياة العزوبية في طمأنينة وهناء. والآن تكتشف بالملموس أن رأس هذا الرجل خال تماما من هذا الحلم، وأنه لا يتوخى من هذه الدنيا سوى العيش بسلام في منأى عن عالم الزواج المشحون بالنكد والضيم والندم. وتمثل لمها القدر ساخرا وقد اصطخب الزمان والمكان بضحكاته المجلجلة التي تصك الآذان. وتمثلت لها أيضا مفارقة عجيبة، ذلك أنها كانت قد هيأت جوابا على مقترحه الافتراضي وهي تنزل درجات السلم. فهي لم تكن لتقبل عرضه بالزواج رغم توفره على أكبر الأقساط من القبول والاستحسان، وهي برفضها لمقترحه المفترض لا ترفضه هو بالذات وإنما ترفض فكرة الزواج من الأصل ولا تجد في ذاتها رغبة ولا استعدادا لخوض غمار تجربة من هذا النوع بعدما عاشته من صراع نفسي ضار في معترك حبها الشائك لبسام. فهل أفقدها بسام شهية الحب والزواج والحياة؟ سؤال وحدها مها تستطيع الجواب عنه،

ولهذا كانت قد هيأت جوابا مسبقا بالرفض على مقترح خال بسمة فجاءها عرضه بعيدا كل البعد عما ذهبت إليه ظنونها، وكشف لها القدر عن ابتسامته الساخرة وسخريته اللاذعة، وكأنه يقول لها: «لا تتوقعي الأفضل». وعادت أدراجها إلى المكتب وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة هازئة، فاترة، ولم تكد تلج عتبته حتى قفزت إليها كل من نورا وصباح تستفسرانها عن سر زيارة الرجل. لكنهما، وقبل أن تنبس مها بكلمة، استشعرتا من نظراتها فتورا ينم عن كدر ما أحدثته الزيارة في نفسها. ولم تشأ مها أن تعكر جو العمل فأطلقت ضحكة عالية أخرجت الزميلتان من وجومهما فشاركتاها ضحكها وهما تقولان لها:

- آش جابو لعندك إذن؟

وردت مها على استفسارهما قائلة:

- جاء في طلب خدمة..

ولوت صباح شفتيها في حركة لا تتقنها إلا هي ثم قالت متذمرة:

- تخدمه جنية إن شاء الله.. خلّي يقول ليك «جيت طالب القرب من للات البنات وجاء يطلبك في خدمة، واش هذا أعمى ولا قلبه اللي أعمى؟ كيفاش ما يحسش بهاذ الزين المسرار.. بهاذ الغزالة التالف حظها في الفيافي وقرون الجبال؟» وأنهت زجلها المرتل وهي تدعو عليه بدعائها المعهود كلما أغاظها أحدهم «الله ياخذ فيه الحق».

لكن كلماتها العفوية زادت الجو توترا ولمحت صباح إشارة من نورا تحثها على الصمت بعد أن اغرورقت عينا مها بالدموع. إلا أن صباح أضافت بنبرة فكاهية لتمحو عن محيا مها أثر الحزن والضيم:

- خلينا من هاذ التغوبيشة واضحكي للدنيا راها غير تضحك علينا وإلا حتى احنا غنكسو الأعلام ونفتحو قناة السودان ونتفرغو للبكاء والنيحان..».

في تلك الليلة استحضرتِ حديث خالتك الأخير وهي تتهمك

«بتطفيش العرسان»، وضجت بأذنيك أهزوجة المهبول المسربلة بالألغاز فتراءى لك بعينيه العمشاوين يردد بصوت واهن:

لا تكذبي الحنينة
راها صادقة وأمينة،
وشوفي من حالها يا الضنينة
والطير الغريب إلى حط
فوق جنانك
بسطي ليه جناحك،
ولا تكذبي أخباره
واخا كلامه يدمي جراحك..

نعم، لقد عملتِ بحماس دؤوب ومنذ ما يزيد عن العقدين على «تطفيشهم» بشتى الوسائل ملتمسة حبلا من الأعذار لا ينتهي. هل أذكركِ بسحناتهم وهيآتهم ووظائفهم وكل ما يتعلق بهم أم أنك في غنى عمن يذكرك بطابور طويل وعريض من رجال طرقوا بابك خاطبين ودك؟ لست أدري إن كنت سأنكأ جراحك بفعلتي هذه أم أنك قد ضربت عنهم صفحا وجعلتهم يغورون في غياهب النسيان لأنهم لا يعنون لك شيئا ولا شغلوا دائرة اهتمامك يوما. لكني أجد في لعبة التذكر شيئا من التلهي الممتع بنماذج من الناس أقاسمك تماما سبب إعراضك عنهم ورفضك لهم. تحضرني الآن بشيء من الإصرار ملامح أحدهم ادعى أنه مقاول كبير بكرشه المنتفخة وسرواله القصير وجاكتته الضيقة التي زاد من ضيقها كونه أقفل كل أزرارها وكأنه يتوخى بذلك إخفاء حجم كرشه الحقيقي. وزادك أمره عجبا حين جاءك وهو يحمل بيده كيسا بلاستيكيا أسود مملوءً حتى الأنف بالبلوط، وكان يقضمه

بشـراهة ملقيا بالقشـور ذات اليمين وذات الشـمال وشـفتاه تمزان لب البلوط بكثير من التلذذ والانتشاء. ولم يفته أن يمدك أنتِ أيضا ببضع حبات من البلوط وهو يقول لك وقد علت شفتاه ابتسامة بلهاء:

- أنا روحي في البلوط ألبلوطة ديالي..

طبعـا هـو كان يبحـث عـن حجـر واحـد يصيـب بـه طائرين في آن واحـد، فهـو قـد اتخـذ البلوط وسـيلة للاسـتغناء عـن الجلوس في المقهـى ووسـيلة أخـرى لمغازلتـك، ويبـدو أن حظـه كان عاثـرا معك فأفلـت الطائـر مـن رميـة حجره ووجد نفسـه يقضم بلوطه بمفرده وقد قفـزتِ فـي رمشـة عيـن إلـى الرصيف الآخر من الشـارع وتركته يلوح لك بكلتا يديه المملوءتين بالبلوط ويصرخ قائلا:

- إلى ما عجبك البلوط غير رجعي ونشري ليك كاوكو أكوكاوة ديالي..

أمـا ذلـك الأسـتاذ الجامعـي العجـوز، فقـد كان مذهلا بصراحته وطلاقـة لسـانه. ويبـدو أن أصولـه الفاسـية قد أمدتـه بكثير من زخرف الكلام. إلا أن ملامحه المثيرة لا تمت بصلة إلى جمال ووسامة أهل فـاس. فـكان بعينيـه الضيقتيـن الخاليتيـن من الهـدب، وأنفه الأفطس، وشفاهه الغليظة، وشعره المجعد الأشعث أشبه ما يكون بسكان إفريقيا الوسطى، ينطق لسانه بلكنة فاسية رخوة تتناسب تماما مع لون بشرته البيضـاء التـي مثلـت نشـازا أمـام ملامحه الإفريقية. لكنه أبدى لك ودا عجيبا من أول مقابلة لك، وعبر بتلقائية مثيرة عن مدى إعجابه بك، إلا أنه لاحظ شرودك وهو يحدثك فأراد أن يردك إلى أرض الواقع بطلبه الجاد غير المتوقع، فرن في أذنيك سؤاله المضمخ بالكلام المعسول، المنمق على الطريقة الفاسـية: «آش تقول الغزالة ديالي إلى قلت ليها أنا طالب القرب وخاطب الود؟» وصلك سـؤاله المفاجئ وارتسـمت علـى محيـاك زرافـات مـن علامات التعجب، وكان الرجل فطنا فأدرك

في لمح البصر أنك تستغربين طلبه وهو يقارب سن أبيك، فاستدرك قائلا وهو يهفو إلى تحقيق أيسر الآمال، فقال لك مبتسما بود:

– إلى قبل الزين الزواج بي نحطه فوق راسي ونتيه بيه في الجنانات والسواقي.. وإلى ما قبلشي، احنا نطمعه غير في الصداقة.. بركة علينا غير العتبة.. وحتى جلسة العتبة عندها ما تقول، ونزيدك الزين ديالي، إلى قبلتني صديق راني نحطك فوق أكتافي ونغيظ بك قلوب العادي والبادي..

أثارتك كلماته الرنانة وبلاغته الزجلية التي يبدو جليا أنه تشربها مع حليب أمه، فأضحت جزءا من قاموسه اللغوي الخاص. فالرجل يتحدث بطلاقة مثيرة وكلما استرسل في الحديث انثالت من جعبته قوالب لغوية محبوكة تتوافق ومحور الحديث ومفاصله، ولم تتمكني من تمالك نفسك فأفلتت منك ضحكة عالية وأنت تتخيلين نفسك محمولة على كتفي الرجل وأعين الحاقدين تنظر إليك شزرا. وشاركك الضحك بعفوية وطيب خاطر وهو يردد بامتنان:

– إيوا غير هاذ الضحكة الصافية بركة علينا، تحيي الروح وتزيد في العمر عشر سنين..

ورنت كلماته في أذنيك كموسيقى عندليبية وهو ينطق الراء غينا خافتة وتخيلته بملامح أندلسية جذابة. وكان حظ الرجل عاثرا معك وهو لا يدري أنه الرجل كذا وستين في طابور المرفوضين. هل كانت ملامحه المثيرة أم سنه المتقدم أم وضعه الاجتماعي كمطلق وأب لطفل من زوجة أجنبية هو ما نفرّك منه؟ أم أن هذا الرجل قد اجتمعت فيه بالصدفة كل أسباب الرفض لديك عدا وظيفته؟ وبقيت ذاكرتك الحية تحتفظ في حناياها بطريقته اللذيذة في الكلام. أنت بلا شك تبحثين عن الكمال، أليس كذلك؟ لست مبالغا، فأنا أعرف كل من ألقى به القدر في طريقك، كنتُ رفيقك الصامت الذي يراقبك

عـن كثـب ويضـع فـي أرشـيف الذكريات ما قـد تمحوه ذاكرتك عفوا أو عنـوة. كنـتُ بينكمـا، بينكـم، بينـك وبينك، قريبا منك، ملتصقا بك حد الانصهار، عارفا بأسرارك حد الانبهار. كنتُ أعرف طبعا - وأنا العارف بك كما لم يعرفك أحد - أن هذه من الأمور التي تزعجك، تفقدك شـهية الكلام، شـهية الأحلام، شـهية التفكير في ما قل أو علا شـأنه، أنتِ التي تتسـترين على كل شـيء، حتى تلك الأشـياء التي قد تفضحهـا نظـرة أو بسـمة أو إيمـاءة خفيـة.. أعـرف جيدا أنك رفضت صاحب العينين الزرقاوين الجاحظتين.. وأعرف أنك رفضت صاحب الشـفة المقسـومة إلى نصفين.. وأعرف أيضا أنك رفضت المهندس «اللي عينه خضرين».. ورفضت الطبيب الذي أجلسك على «الجازون» ليقيس مدى حساسيتك للبرد.. ورفضت أيضا عون البلدية.. وأعرف أنك رفضت سائق شاحنة الأزبال المعتد بوظيفته والذي قال لك بعد أن أدرك رفضك له: «راني الشيفور زعما، كاع ما تحقريني» وأعرف أيضا أنك رفضت بائع الأسماك بالتقسيط ورفضت أيضا أستاذا جامعيا شابا لا يصحو من السكر.. ما بك إذن يا مها؟ لقد أمتعك القدر بقدر هائـل ومتنـوع مـن شـتى الأشـكال والألـوان والمهن، ويبـدو أن القدر أهداك في الختام شابا وسيما يبلغ طوله 1.90 سنتيم، بكتفين مفتولين، وقدّ متناسـق جذاب، وشـعر أسـود لامع وعينين مليحتين «وكله زين، ما تختاري غير هو» لكنه يعمل «كارسـونا» في أحد المقاهي بمدينة سـلا، وفـي الليـل يسـعى إلـى زبائنـه من المرضى بالصـرع، وهو بارع أيضا في قراءة الكف وتكهن المستقبل، وفيه من كل المواصفات ما جعلك ترفضينه أيضا.. ولا أظنك نسيت عبارته الطريفة التي ختم بها خطبته الشهيرة لك، حين قال وقد افترت شفتاه عن ابتسامة رائقة:

- أنتِ زينك سوسـي وأنا تنموت في السوسـيات، وباينة عليك بنت ناس وتتخدمي شي خدمة فاعلة تاركة.. وأنا غير على قد حالي..

لكـن إلـى قبلـت تزوجنـي رانـي نبوس التـراب د رجليك ونكون ليك خاتم تدوريه بين يديك.. آش قلت أبنت الناس؟

«إيـوا آش قلـت يـا مهـا؟ هـذه فرصة ذهبية تركتها تفلت من بين يديك، إنه شاب كامل مكمول، الزين والرجلة، لو أنك تجاهلت قليلا عيوبه المهنية.. ومالها خدمة الجارسـون، ماشـي خدمة؟ أراك تقولين الآن بـل تصرخيـن فـي وجهـي مزمجـرة: «واش بغيتينـي نتزوج دجال وشواف ويحسب ليه راسه غادي يغريني بزينه؟»».

حين صادفت مها هذا الشاب الوسيم وصرح لها بكل تفاصيل حياتـه دفعـة واحـدة ودون موارابـة أدركت أن القدر انقلب عليها فجأة ولبس رداء السخرية، فجاءها بالوسامة في أبهى صورها لكنه جردها من مواصفات الرجل الاجتماعية والثقافية المقبولة لديها. وحين ولته ظهرها وغذت في السـير نحو بيتها تراءى لها في مشـهد مثير للغرابة كيف أن يديها امتدتا في حركة آلية، لاإرادية إلى عنق الشـاب تجتزه جزا ثم استحضرت جسد الأستاذ الجامعي العجوز ذي اللكنة الفاسية ونصبت رأس الشاب فوق عنق العجوز وأصاخت السمع إلى كلامهما وهما يتوددان كل بطريقته الخاصة: «ونزيدك الزين ديالي.. إلى قبلتيني صديق راني نحطك فوق أكتافي ونغيظ بك قلوب العادي والبادي..»، «إلى قبلت تزوجيني راني نبوس التراب د رجليك ونكون ليك خاتم تدوريه بين يديك..».

واسـتدارت مهـا ناحيـة الجـدار تسـتحث النوم الـذي يتأبى كلما اضطربـت مشـاعرها وامتزجـت فـي مخيلتهـا صور لذكريـات متنافرة تحـدث مـا يشـبه الرجـة العنيفـة فـي ذاكرتها. وتراءى لها مشـهد خال بسمة المضطرب، الوجل، المرتبك وهو يتحدث إليها وكأنه سيفضي إليها بسر دفين، واستغربت أحواله حين أسفر حديثه عن طلب خدمة تخـص بسـمة. وبـدا لهـا المشـهد سـخيفا ينطبـق عليه المثل السـائر:

«تمخض الجبل فولد فأرا»، بيد أنها عجبت من أمر نفسها أكثر حين استحضرت مشهد تأثرها بما حدث إلى حد جعل عينيها تغرورقان بالدموع. فلمَ التأثر والدموع لأمر كنتِ قد هيأت له الجواب السلبي مسبقا؟ ولماذا التأثر لعدم حصول شيء غير مرغوب فيه أصلا؟ أهو تعود النفس على ممارسة لعبة الرفض وبالتالي التلذذ السري بمشهد مسرحي تكون لك فيه كلمة الفصل التي تنتهي دوما بالرفض؟ أم أن الأمر بكل بساطة مصادفات غريبة جعلت نفس الحدث يتكرر برتابة مملة مع تغير الحيثيات والشخوص مما جعل النهاية متشابهة حتما كحلقة مفرغة، تدور وتدور لكنها تدور في الفراغ ولا يتولد عنها شيء ولا حتى الزبد؟ أتكون تلك الدموع إذن تعبيرا لاإراديا على التذمر من هذا الحظ العاثر الذي أضحى يحاصرك ويتسربل كل يوم بشتى الأسمال والغلالات؟

وانطوت صفحة الإبحار والاستبطان واستنطاق الذات بسماع رنين الهاتف المفاجئ الذي أحدث ريبة في نفس مها. وألقت نظرة خاطفة على ساعة الجدار التي كانت بجانبها فوجدت عقاربها تشير إلى العاشرة والنصف ليلا. وسكت الرنين فجأة وهو يعلن عن وصول رسالة هاتفية. وضغطت مها على زر الرسائل بلهفة ففتر حماسها حين سقطت عيناها على رسالة من سيمون. «هذه أنتِ إذن، يبدو أن القدر أراد أن يشاكسني بهذه الفتاة الرعناء التي تدعي أنها صديقة بسام، ويبدو أن لعبة القدر الساخرة أرادت أن تعوضني عن بسام بصديقته الفاتنة في غيابه، وهي على ما يبدو مصرة كل الإصرار على الاستمرار في لعبتها وتود خالصة أن تجرني «بالفن» إلى حظيرة أصحاب بسام في سهرتهم الشهرية التليدة. وتراءت لي وأنا أقرأ رسالتها تحدق إلي بعينين ماكرتين وابتسامة خبيثة وتقول بدلال: «عزيزتي مها، سأكون في غاية السعادة إذا شاركتنا حفلتنا الشهرية التي ستصادف هذه المرة عيد

ميلادي، وكي أوفر عليك المشقة سآتي لآخذك معي في سيارتي كي أعفيك من تعب البحث عن عنوان الشقة حيث ستتم الحفلة. تحياتي وقبلاتي الحارة.. سيمون».

وتأكد لي بالملموس أن صديقة بسام العجيبة ترغب جادة في «جري بالحبل» إلى حفلة أصدقائها الشهرية. عجيب أمر حواء وغريب أمر مقالبها. كل شيء يبدو مرتبا بكامل الوعي والثقة في النفس مع سبق الإصرار والترصد. إلا أن سيمون النبيهة لم تعمل حسابها جيدا لعامل القدر الذي يقرع الأبواب بشكل مباغت ويقلب الموازين ويجعل البحر يرغي ويزبد مؤشرا على قدوم عاصفة هوجاء لا تبقي ولا تذر في ليلة ليلاء؛ أو يجعل القطار ينتكص فجأة فيخرج عن سكة الحديد مسفرا عن ضحايا ما فتئوا يملأون فضاءات المقصورات بالأحاديث المنطوقة والصامتة ويسبحون في عوالمهم الضاجة بالأحلام والضجر والعتاب. «طيب عزيزتي، سأكون في الميعاد»، هكذا كان ردي على سيمون بعد أن حثني صوت داخلي على مسايرتها في لعبتها دون أن أفصح عن حقيقة نواياي. والحقيقة أنني استشعرت في دواخلي قابلية للعبة القط والفأر، وأردت أن أمد الحبل لهذه الفتاة الجميلة لأرى ما هي فاعلة إن أنا أفسدت عليها مخططها وكسرت زجاج لعبتها الهشة وهي تعتقد جازمة أنها ممسكة بكل خيوط اللعبة، حتى أنها ستأتيني بسيارتها وتتجشم بدلي تعب المواصلات كي تعفيني من مشقة البحث عن عنوان الشقة وتعفيني أيضا من التفكير مستقبلا في صديق مشترك اسمه بسام.

بسام إذن هو المشكلة ومن أجله تحاك كل هذه المكائد والمؤامرات. من أجل الفوز برجل تفعل المرأة الأفاعيل، وقد يصل بها العمى أحيانا إلى ارتكاب جريمة. نجنا يا رب من مخالب الكواسر، سيمون الجميلة لا تعرف أن السعي وراء رجل مثل بسام يؤدي حتما

إلى الخبل أو الجنون.. سيمون الحسناء لا تدرك أن الحوم حول رجل كبسام يورث فقدان شهية الحب والحياة.. وهي لا تعلم أن غريمتها مهما قد أبلت بلاء حسنا في مشوار الانتظار الطويل حتى كادت تفقد الأمل وتخبو بداخلها شمعة التفاؤل، وفجأة طفا على السطح وانبعث كمهدي منتظر يحمل في أكفه السلام وترفرف عيناه بالمحبة والمودة والشوق العارم، لكنه فجأة أخرى عاد ليغطس ثانية في يم الغياب وكأن لعبة الغياب استهوته وأضحى يمارسها في حياته مع نفسه ومع الناس بكامل الشرعية، متلذذا بفصولها، غير عابئ بمن ينتظر أو بمن يتحرّق على جمر اللظى.. سيمون الفاتنة لا تدرك أن شخصا مثل بسام تورث مفاجآته غير المتوقعة والملتبسة ما يشبه الوخزات الكهربائية القاتلة التي تورط الضحية في الكآبة والضجر والسقم والأرق المريب.. سيمون يا غادة الغادات، أنتِ لا تعرفين عمق اليم ولا غور تجاويفه ويبدو لي أنك صبية غرة تسعى إلى إرضاء مشاعرها ولو على حساب مشاعر امرأة أخرى، وأنا حبا فيك وخوفا عليك سأسعى بما أملكه من جهد كي أمنعك من الوصول إلى مرافئ بسام.. لا أريدك أن تغرقي كما غرقت ولا أن تتعبي كما تعبت ولا أن تضجري كما ضجرت، ولأني لا أدرك يقينا مدى إيمانك وحدود ضجرك فإني أيضا أخشى على بسام منك، بسام الذي أضحى جزءا مني ولا أستطيع أن ألقي به جزافا في أحضان امرأة فاتنة قد لا تتحمل صده وغموضه وهروبه وتنظر في لحظة عبث عارم إلى مرآة شيطانها فتحدثها بالتخلص منه نهائيا كأن تسقيه سما أو تغرس في ظهره أو صدره سكينا.. أو في أهون الأحوال تحيك له المكائد كي تقلب حياته إلى بؤرة من جحيم.. من أجل بسام الذي هو أنا، كإصبع من أصابع اليد أصابه الجذام فلا نستطيع استئصاله، سأسعى بما أملك من طاقة لإبعاده عنك وعن رياحك الشرسة الشديدة ولك

أن تركبي حماقاتك مع رجل آخر إن شئت..».

وانتهى الهمس الصاخب بداخل مها كشمعة تحتضر، إلا أن نورا أينع من حيث لا تتوقع بعد أن غشاها ضباب كثيف ممتد إلى ما لا نهاية. وطفقت تسبح وسط موجات الضباب متوخية الوصول إلى ربوة النور الذي بزغ على حين غرة، وبغتة ألفت ذاتها على حافة الربوة وهي لا تدري كيف وصلت ولا أي مسلك سلكت لتقطع فجا عميقا كان يفصل الربوة عن أرض الضباب. وعند الحافة مدت مها عنقها متطلعة لرؤية ذلك العمق السحيق الذي خلفته وراءها وهي تقطع سابحة الفضاء وكأنها على جناح طائر أسطوري. ولفت انتباهها تجمهر ثلة من الناس حول شيء لم تتبين هويته، وفجأة هالها منظر بسام المنتحب رفقة زمرة من رجال يعرفونه، وارتفع صوت النحيب بأذنيها فأضحى عويلا، وأرادت أن تتبين ماهية ذلك الشيء المكوم فصدمت برؤية جسد مسجى التف حوله بسام ومعارفه، فأيقنت أن في الأمر جنازة، وتوقعت أن يهيلوا التراب على الجثة لكنهم لم يفعلوا، وظلوا ماكثين يترقبون كأنهم يتوقعون حدوث معجزة. وبغتة تململ الجسد المسجى فارتاب الجمع وهب هاربا، فزعا، وتحركت يد من حيث لا يدرون وامتدت إلى الجسد العائد لتوه من غياهب المنون إلى رحاب الدنيا، واتسعت أحداق الجمع من الذهول وانتابهم ما يشبه الخرس. وفجأة، ودون سابق توقع، انطلقت الضحكات كالهسيس وارتفعت وتيرتها فانتبهت مها على رنين الساعة التي توقظها عادة على السابعة صباحا وصوت خالتها من الغرفة الأخرى يناديها ويأمرها بإسكات منبه الساعة الذي ظل يرن ما يزيد عن ثلاث دقائق.

في ساعة الأصيل المتثائبة كانت مها تنزل درجات السلم مغادرة الوزارة ومتوجهة رفقة زميلاتها صوب محطة الحافلة التي تنتظر قدوم الموظفين في المساء. وكان العياء قد استنزفها فلم تنبس

ببنت شفة وهي على متن الحافلة رغم أحاديث الزميلات الضاجة بالهزل والنميمة والتذمر من رتابة اليومي المعيش. ووصلت الحافلة إلى محطتها المعهودة ومها غارقة في سهو بلا ضفاف حتى كادت تفوت عليها محطة النزول لولا أن ربتت صباح على كتفها حاثة إياها على مغادرة الحافلة بسرعة.

بعد انقضاء يومين على هذا الحدث الذي يبدو في ظاهره بسيطا، عاديا ورتيبا ستجد صباح نفسها تتحدث وزميلاتها وهي في غاية التذمر والندم على فعل شيء لم يكن لها يد فيه، لكن القدر شاء أن يتزامن كلامها مع حدوث شيء مريع، فظلت طيلة أوقات تواجدها بالوزارة تقول بأسف شديد لزميلاتها:

- تمنيت لو لم أحثها على النزول من الحافلة في ذلك اليوم.. لقد كانت مها غارقة في سهو عميق وكأنها في دنيا أخرى فأيقظتها بحديثي حين نبهتها إلى ضرورة مغادرة الحافلة، فكان ما شاء الله أن يكون.

وكان القدر متأهبا ليزج بمها في دوامة جديدة لا أفق لها. ونزلت في محطتها المعتادة وحثت الخطى إلى بيتها عارجة عبر شوارع المدينة الكبيرة.. ووصلها هدير أصوات أو خيل لها ذلك وسط ضجة السيارات وحركة الناس العابرين التي لا تنقطع.. وسارت عبر شارع علال بن عبد الله وهي تدنو بشكل حثيث من مصدر الصخب، فتراءت لعينيها وكأنها تحلم حشود غفيرة تجري في كافة الاتجاهات منطلقة من بوابة البرلمان ومتجهة كنمل باغته جند سليمان صوب الشوارع الخلفية المحاذية لشارع محمد الخامس، وداهمها صوت فتية يحثونها على الفرار والابتعاد عن الشارع الرئيسي فألفت ذاتها تفر مع الفارين وهي لا تدرك تماما سبب الفرار.. قدماها تورمتا من الجري المحموم وفردة حذائها انسلت جراء وطأة قدم مباغتة لشاب كان يجري خلفها

كالمجنون. واستمر جريهما بلا وجهة، وفجأة امتدت يد الشاب إلى أعطاف ثوبها وهو يتوخى منعها من اجتياز طريق تضج بزعيق سيارات تمرق كالسهام، وانفلت الثوب من يده كريشة طائر في مهب الريح وسمع صوت ارتطام قوي بجسد ما على رصيف الراجلين، وكأن سائق السيارة المفتون فقد توازنه فعرج صوب عمود الكهرباء المركون في زاوية الرصيف، وتأرجح العمود الحديدي بطريقة آلية ثم نزل بثقله متهاويا على حافة الرصيف.. وسمع الشاب أنينها ودنا منها ورفع خصلة شعرها التي انسدلت فوق عينيها، وراعه مشهد نزيفها حين رأى خيط دم رفيع ينساب في هدوء من خياشيم أنفها، فلم يتمالك نفسه من الصياح طالبا الإسعاف، مستغيثا بالفارين الهلعين والمارقين في سياراتهم كالمجانين.

كانت سيمون وقتها في غرفة جانبية ببيت إياد رفقة صديقتها نادية منهمكة في تعديل ماكياجها وتغيير ملابسها، وقبل أن تطرق نعمة باب الغرفة تناهى إلى سمعها خلف الباب الموارب حديث سيمون المتوتر وهي تقول لصديقتها نادية بحدة وعزم شديد على الانتقام:

– سألقنها درسا لن تنساه وسأجعلها تنسى نفسها وتنسى بسام..

وردت عليها نادية بهدوء وهي تستغرب من صديقتها دافعها على الانتقام:

– لست أدري يقينا ما الذي فعلته هذه الفتاة حتى تفكري في الانتقام منها، يبدو لي أنك ستظلمينها.

– ما فعلته يا حبيبتي هو أنها خطفت مني بسام، هذا كل ما في الأمر، وإذا شئت أن تسمعي المزيد سأقول لك إنني بكل صراحة أود أن أنتقم منه ومنها، فبسام أهانني بسبب هذه الفتاة وأنا سأنتقم منه بإيذائها..

– هذا جنون يا سيمون، صدقيني، أنت الآن ترغبين في ارتكاب

حماقة ستندمين عليها ما حييت. وإذا كان بسام يحب هذه الفتاة فما ذنبها هي إذا كان لم يبادلك حبا بحب؟ هل أجرمت في حقك؟ ارجعي إلى نفسك واعلمي أن في السماء إلاها..

في هذه اللحظة بالذات طرقت نعمة الباب واستأذنت بالدخول، فجفلت سيمون لرؤيتها وارتسمت في عينيها ملامح الريبة، وأدركت بحس خفي أن حديثها الشائك مع نادية قد وصل إلى مسامع نعمة، فارتبكت وشعرت كما لو أنها ضبطت في حالة تلبس. وخيل إليها أنها تعرت تماما أمام نعمة، خاصة عندما قرأت في عيني نعمة حديثا خافتا سربل نظرتها العميقة التي تقول صمتا ما لم تقله لغة الكلمات. وجاء حديث نعمة صادما كصنبور ماء بارد اندلق فجأة فوق جمر ملتهب حين قالت لسيمون مبتسمة:

- فيمَ تتهامسان؟ يبدو أن في الأمر سرا ما..

وردت سيمون بهدوء مفتعل:

- ليس في الأمر أي سر، كل ما هناك أننا نهيئ لمفاجأة في سهرة المساء ستعرفينها حين يجتمع الأصدقاء.

وجاء المساء واجتمع السمار على مائدة واحدة اجتهدت سيمون كي تجعلها متميزة بكل ما يزخر به الطبخ المشرقي والمغربي على السواء، فتجاور على مائدة أكل واحدة صحن البسطيلة وصحن الملفوف، واحتسى الرفاق بعد مأدبة العشاء كؤوس الشاي الأسود والمغربي مرفوقا بحلوى البقلاوة وكعب غزال. وهمت نادية بفتح قنينة شراب إضافية فرمقت غمزة سيمون الخفية وهي تنسحب في هدوء من زمرة الرفاق وتعرج بتوجس على المطبخ. ولم تكد تضغط على زر هاتفها حتى كان إياد خلفها يبحث بعينيه عن كوب ماء، فالتقطت أذناه كلماتها الخافتة:

- ألو مها..

وارتبكت سيمون وارتعشت يداها حتى كاد يسقط منها الهاتف حين استدارت فألفت أمامها إياد ينظر إليها مستفسرا. إلا أن صوت مخاطبها على الهاتف هزها من الأعماق بعنف، فدق قلبها وهي تسمعه يقول لها بنبرة حزينة:

- مَن معي على الهاتف؟ سيدتي.

- أنا صديقة مها..

- يؤسفني أن أخبرك بأن مها قد أصيبت في حادثة سير مروعة..

- كيف؟ غير معقول..

- وهي الآن طريحة الفراش في مستشفى ابن سيناء في قسم الإنعاش.. كنت بجوارها ساعة حدوث الحادثة. رجاء سيدتي إن كان وقتك يسمح أن تأتي فورا إلى المستشفى كي أسلمك حقيبة مها.

وارتج صوت ساخر بداخل سيمون كصفعة قوية غير مرتقبة يهمس: «ما رأيك في هذه المفاجأة حبيبتي؟» والتفتت سيمون صوب إياد فألفت عينيه تكادان تلتهمانها، وتناثر فوق رأسها سؤال إياد كالفراش قائلا:

- مَن تكون مها؟

- وما دخلك أنت بالأمر؟

- إنه مجرد حب استطلاع ليس إلا.

- إنها صديقتي..

ثم صمتت برهة كما لتهرب من نظرات إياد المتوجسة وقالت:

- أنا مضطرة لأنسحب الآن من السهرة، إن صديقتي مها في حاجة إلى مساعدتي وسأذهب لزيارتها.

- في هذه الساعة من الليل؟

- نعم.

- سأرافقك إذن.

- لست في حاجة إلى مساعدتك.

- بل سأرافقك، أخشى أن يصيبك مكروه في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

ووجدت سيمون ذاتها محاصرة بإصرار إياد على مرافقتها، واندهشت أكثر حين سبقها إلى الصالون وأعلن أمام رفاق السهرة الخبر المفاجئ. ولم تكد سيمون تستفيق من وقع المفاجأة الصادمة حتى تطوع إيهاب بإيصالهما بسيارته إلى حيث تتواجد صديقة سيمون. والتقت نظرات نادية بسيمون وتبادلتا حديثا صامتا ذا مغزى، وأحست سيمون بوخزات تصلها من نظرات نادية العميقة وكأنها تقول لها في صمت يضج بالسخرية والازدراء:

«ها هو القدر إذن يدخل معك حلبة العراك، فلا بأس الآن من وقفة تأمل طويلة لفك شفرة القدر الشفيفة.. قد نسعى أحيانا إلى عقد أمور نظن أنه في وسعنا أن نربطها ونضبطها كما يحلو لنا، فيباغتنا القدر بقهقهاته الساخرة وهو يفك بأنامله اللامرئية عقد الخيوط المتشابكة، فيتركها تنسدل وتترنح لهبات الريح.. آه.. ما أدهى القدر وما أبلدنا..».

وسنح بخاطر سيمون أن تهرب من الإثنين بابتداع كذبة ذكية، إلا أنها خشيت أن يسقطها تذاكيها في ورطة عصيبة أو يدفعها لارتكاب ذنب لا يغتفر. فسلمت ذاتها بطواعية إلى الأمر الواقع، فوجدت لسانها يقول بتلعثم وهي على متن سيارة إيهاب:

- إن صديقتي تعرضت لحادثة سير وهي الآن بقسم الإنعاش بمستشفى ابن سيناء.

ودلف ثلاثتهم إلى قسم الإنعاش فوجدوا على باب الغرفة شابين يتهامسان، فدنت منهما سيمون وقالت لهما متوددة:

- أنا صديقة مها.

ورد عليها أحد الشابين قائلا:

- أهلا، سيدتي، كنت خلفها ساعة وقوع الحادثة، وحز في نفسي أن أتركها بمفردها في المستشفى، وخشيت أن يسرقوا محفظتها فاحتفظت بها، ووجدت بداخلها هاتفها النقال وبطاقة تعريفها التي تحمل عنوانها بمدينة فاس، مما صعب علينا الاتصال بأقاربها.. وكنت قد أجريت بضع مكالمات على بعض الأرقام الهاتفية المسجلة بذاكرة الهاتف فكان حظي عاثرا، فجل الأرقام كانت لأناس يجهلون مها أو لإدارات عمومية، وجاءت مكالمتك المفاجئة كزورق مطاطي ظهر فجأة أمام غريق..

- لكن كيف حصل الحادث؟

- يبدو أن مظاهرة صاخبة لأصحاب الشواهد العليا المعطلين كانت قبالة البرلمان، فقابلها صد عنيف من طرف القوات المساعدة التي داهمت الحشود بسياراتها وهراواتها، مخلفة العشرات من الجرحى.. ففر من فر وأسر من أسر، وقد سمعت إشاعات تتحدث عن سقوط ضحايا وقتلى، كما تحدث البعض عن وقوع إصابات بليغة في صفوف المتظاهرين.

- وكيف وجدت نفسك وسط المتظاهرين؟

- نعم، ألفيت ذاتي وسط طوفان عارم من الشباب الفارين من جحيم العصي وسوط السلاسل الحديدية حين كنت في طريقي إلى باب الأحد، وكنت أجري بالصدفة حذاء هذه الفتاة، وفجأة أذهلني زعيق سيارة مداهمة وكأن سائقها فقد صوابه، ورأيت الفتاة تمرق أمامي كسهم من شدة الفزع دون أن تعي بدنو السيارة، وأردت أن أمسك بأعطاف ثوبها في محاولة يائسة لمنعها من الاصطدام بمقدمة السيارة فلم أفلح، ويبدو أن السائق نفسه حاول أن يتقي بمقوده جسد الفتاة فزاغت عجلات سيارته ناحية العمود الكهربائي.. صدقيني لم

أعرف لحد الساعة هل كان سقوط الفتاة بسبب تهاوي العمود أم بسبب ارتطامها المباشر بالسيارة؟ فالصدمة لم تترك لي مجالا للرؤية الواضحة، وازددت ذهولا حين رأيتها تستسلم للغيبوبة بعد أن بدأت تنزف..

وأمسك الشاب هنيهة عن الكلام وهم بتسليمها محفظة مها حين فتح باب الغرفة فجأة وخرج منها الطبيب رفقة ممرضتين. وسارعت سيمون إلى الطبيب تسأله عن أحوال الفتاة فجاءها الجواب صادما كوخزة كهربائية قوية حين قال لها:

- يبدو أنها تعرضت لنزيف في الدماغ..

- وهل حالتها خطيرة؟

- لست أدري، كل ما أستطيع قوله أن نسبة نجاتها مرتبطة أساسا بمدى تجاوبها مع العلاج الكيماوي، وإلا سنضطر لإجراء عملية جراحية.

وذهلت سيمون لحديث الطبيب الصريح، وتلقفت شذرات تصريحاته كطلقات نارية صامتة، وفوجئت بتساؤل الطبيب وهو يقول لهم:

- هل أنتم من أقاربها؟

ورن السؤال في مسمعها كالطنين، ووجدت نفسها فجأة تجيب الطبيب قائلة:

- نحن أحد معارفها.

ونظر الطبيب إليهم مليا ثم استدرك قائلا:

- إن عنوانها الشخصي المثبت على بطاقة تعريفها هو في مدينة فاس، فرجاء أن تتكفلوا بإخبار أولياء أمرها أو مسؤولي عملها. يتوجب حضور أحد أقاربها في حالة اضطرارنا لإجراء العملية.

وقال إياد بنبرة من يرغب جادا في التعرف على هوية الفتاة

المصابة:

- هل تسمحوا لنا برؤيتها الآن؟

وأذن لهم الطبيب بذلك على ألا تتعدى الزيارة خمس دقائق، ودخلت سيمون خائفة تترقب وكأنها إلى هوة سحيقة سيلقى بها فجأة، ثم دنت منها مستبقة إياد وكأن لها عليه حق الأسبقية أو تربطها بها خيط قرابة أو مودة. واندهش إياد من حركاتها وهو يراها تدنو منها وتلمس ظهر يدها بحنو بالغ، وفزع حد الجزع حين لمحت عيناه وجه مها مصفرا، غائم الملامح، فتحير طيف دمعة في مآقيه، واقترب منه إيهاب وربت على كتفيه وهو يقول له:

- ما الأمر؟

وفرت الكلمات من شفتيه وجف حلقه قبل أن يرد عليه مرتجفا:

- لقد آلمني وضعها..

وجاءت لحظة الحقيقة العارية التي فرت منها سيمون لتجد نفسها واقفة ساهمة مشدوهة أمام المصابة بعينين مسمرتين ومحدقتين بإصرار في الفراغ. وتشبثت نفسها المضطربة بأهداب المستحيل وهي تهجس لذاتها قائلة: «ليت عينا إياد تعجزان عن اكتشاف هوية مها»، إلا أنه أربكها وهو يستفسرها بعيون صامتة عن سر معرفتها لهذه الفتاة التي تدعي أنها صديقتها، فجذبته سيمون من كم قميصه حاثة إياه على النزول إلى حديقة المستشفى للحديث في الأمر بكامل الحرية والتلقائية. وحين وجدت ذاتها وجها لوجه أمام إياد قالت له مصطنعة الهدوء وطول البال:

- تعرفت عليها في الآونة الأخيرة، وكنت قد دعوتها لحضور حفلة عيد ميلادي إلا أن القدر كان عجيبا.

فرد عليها إياد مغتاظا:

- أنت غريبة الأطوار، فلماذا لم تخبريني بالأمر حين كنا بالبيت؟

- خشيت أن تظن بي سوءا.

فأجابها إياد منفعلا:

- بل السوء كل السوء حين فكرت بإخفاء حقيقة الفتاة، فكأنك تخفين سرا ما بجوانحك.

واصفر وجه سيبمون وهي تتلقف تهمة إياد بالإساءة، ثم أردف قائلا:

- لست أدري كيف خطر ببالك أن تدعيها لحضور حفلة الأصدقاء، علما أنها لم يسبق لها قط أن حضرت حفلة من حفلاتنا.

وتذكر إياد بغتة حديث بسام عن سيمون وتفاصيل قصتها الشائكة معه، وكيف أنها خططت لغوايته حين سحبته كالمتلبسة سكران من الحانة إلى بيته، وكيف أنها اغتاظت كثيرا حين نطق في حضورها باسم مها، ثم همهم في نفسه «ما أغرب حواء». واستغرب أكثر من يد القدر التي امتدت لتحول دون حضور مها إلى هذه الحفلة، فقال في دخيلته وقد تنسم شيئا من الرضى والارتياح «رب ضارة نافعة». وفتر حديث الهمس في نفس إياد والتفت إلى سيمون فألفاها غارقة في شرودها، فأومأ لها بالعودة إلى المستشفى حيث تركا إيهاب، إلا أنها رفضت أن تعود معه ثانية، فسلمته حقيبة مها وهرولت بلا وجهة مغادرة المستشفى.

وعاد إياد أدراجه إلى طابق الإنعاش فهمست حناياه بما لم يجرؤ لسانه على النطق به، وأدرك في قرارة نفسه أن للقدر العجيب أساليبه الخاصة التي تذهل منها الأنفس، وأدرك بما لا يترك مجالا للريب أن القدر الغريب يسير بخطى حثيثة نحو كشف المستور. «**ها هي ذي إذن رياح الشرق الساخنة، على حد تعبير المغاربة، تهب من حيث لا ندري وتجري بما لا نشتهي، فتضعنا عراة أمام ذواتنا. وقد جاهدت نفسي كي أخفي هذه الفتاة عن أعين إيهاب فشاءت الأقدار**

أن تلقي بها في طريقه وكأنها تعاكسني وتتمرد على قراراتي الواهية.. واستقام فجأة في وقفته متظاهرا بالصلابة والقوة. ورفت عيناه كطائر ينفش ريشه بغتة على ندى الصباح المبكر. وانتفض من غفوته كمن استفاق فجأة على اصطفاق قوي لباب من حديد، وتذكر أن صديقه بسام يعرف بيت خالتها وسبق له أيضا أن زار مقر عملها إبان غيبة مها الطويلة في مدينة الصويرة، وتمنى لو كان بسام بجانبه كي يعفيه من مسؤولية إبلاغ أهلها بخبر مشؤوم كهذا. فهو يكره حد المقت أن يقترن صوته بنعيق غراب أو ملامح وجهه بشبح بومة، وهو في الأصل لا يتشاءم لا من غراب ولا من بومة، لكن عامة الناس تعودت أن تلصق بهذين الطائرين المسالمين صفة الشؤم والنذير.

واهتز إياد على صوت إيهاب الخفيض وهو يستعلم منه إن كان يعرف عنوان أهلها أو مقر عملها، فجاء صوت الممرضة ليعيدهما إلى أرض الواقع وهي تحثهما على الخروج فورا من غرفة المصابة.

الوحل..

كيف تتصيد خطواتي

وتجرني قسرا إلى بحيراتك الآسنة،

وأنا الفار دوما من محيطك الزئبقي

وتربتك اللزجة المفعمة

بالثغرات؟

غـادر إيهـاب مقهـاه المعتاد وحفيف أشـجان أسـية يهز جوانحه كأنه حسيس أفعى تسعى حثيثة إلى جحرها وقد داهمها خطر مبهم. وألفى ذاته يجر خطوا ثقيلا، مترنحا إلى بيته ومشاهد الصباح والمساء ترتطـم بوجدانـه كمـوج عتـي عنيـد يأبـى إلا أن يوقـظ فـي صدره كل ألوان المشاعر المتناقضة. واشتدت وطأة الكرب بصدره فامتلأت عيناه دموعـا سـاخنة والتمعـت بمآقيـه كموج هـادئ رقيق يتهادى في بحيرة ساكنة. ثم دلف إلى بيته متحيرا مكروبا كأن سحابة داكنة لفته بسوادها. وقبـل أن ينـزع حـذاءه وخـزه هاجـس داخلي عنيف يحثه على مغادرة المنزل فورا والتوجه توا إلى شاطئ الهرهورة. ووجد نفسه ينزل الدرج كممسوس لا يلتفت، ويغذ في السير نحو مرآب سيارته. وما هي إلا دقائق معدودة حتى وطأت قدماه رمال الشاطئ المبللة بموج المساء المتكسـر في وداعة وسـكون. ولم تسـعفه قدماه على الوقوف فوجد نفسـه يبحث بدأب عن مكان واطئ فوق الصخور يتسـع له. واقتعد صخرة مصفحة ملسـاء، وطفقت قدماه تداعبان ذرات الرمال الدقيقة الراسية في قعر بركة ماء ساكنة. ورحلت به الذاكرة إلى ربوع دمشقه الآسـرة، وتراءت لعينيه السـاهمتين ضفاف نهر بردى محفوفة بالزوار أيام فصل الربيع الزاهر. وانسـابت صور الطفولة كرذاذ سـخي يتدفق أمام ناظريه، إلا أن وخزا قويا عاد يوقظه مجددا من غفوته فسمع ما يشـبه الرنين المسترسـل المتواتر، والتفت مفزوعا حوله فلم يجد أثرا لإنس ولا جان. إنه وحده على شاطئ الأطلسي يمخر عباب الأحزان، ثـم عـاد الرنيـن يرتـج ثانيـة فأضحـى أقوى وأعنف من سـابقه، ورأى موجـة عاتيـة تنقـض عليه وتسـعى جـادة لزحزحته من فوق الصخور، واسـتحوذ عليه إحسـاس غامض بأنه يفر من شـيء مبهم، فاسـتجمع

قـواه وأراد أن يقفـز مـن فـوق الصخـور، إلا أن موج البحر العنيد كان أدهى وأعتى فكسر ساقيه من الخلف وجره نحو العمق السحيق بخفة ومكـر متناهييـن. وانفتحـت لـه تجاويف البحـر العريض على متاهات سـديمية لا يسـمع في أحشـائها عدا هسـيس موج دفين.. ودعك عينيه وكأنه يرغب في استعادة وعيه المسلوب، إلا أن يدا خفية أدارته من الخلـف وأقعدتـه قسـرا علـى مقعـد حجـري دس فجـأة في قلب غابة نائية.. واقتعده وقد أطار الوجل صوابه، وأخذ يقلب نظراته ذات اليمين وذات الشـمال فإذا بأيد تلوح له من بعيد في إصرار.. ثم تناهى إلى سمعه صوت استغاثة آدمية يستحثه على الدنو ومد يد العون، فدنا منه وكأنه يهفو إلى التحصن بصداه.. واكتسح الصوت الفضاء حتى أضحى على وشك اكتشاف مصدره، وفجأة تمثلت لعينيه جموع نساء.. ونظر إليهن مبهورا وكأن مسا من الجن أصابه، وحاول أن يفلت من حصار نظراتهن النافذة المصوبة نحوه كسهام من نار إلا أن أيديهن الطويلة امتدت إليه من حيث لا يدري وأعادته بعنف إلى عمق الغابة.. وأمعن النظر إليهن ثانية فإذا بصبية تبتسم له بحنو وتمده بإناء من لبن، وحاول أن يمسك الإناء إلا أن يديه خانتاه، ثم استدار ناحية اليمين فإذا بوجه أليف يدنو منه ويحتضنه ويدس رأسه في أعطاف صدره وكأن الوجه الرقيق يستجدي عطفا ودفئا.. وانبهرت أذناه ثانية وهو يتلقف حديثا لا ينكر نبراته، وتمثل لعينيه طيف أمه مسربلا في أحد قمصانها الزاهية وهي تقول له بإصرار عجيب:

- لا تتركها لوحدها يا ولدي.. خذ بيدها يا ولدي..
- من تكون يا أمي؟ إني أجهلها.
- لكنها تعرفك..
- وكيف أتبين هويتها؟
- إنهـا دانيـة منـك، علـى بعـد خطـوة فقـط.. إنهـا مسـربلة فـي

البيـاض.. نائمـة نومـة صبي.. ستسـتيقظ بمجرد سـماع صوتك.. أُدنُ منها وسترى.. حدّثها وسترى.. مُدّ يدك إلى يدها وسترى.. لا تخذلها يا ولدي..

وتلاشـى الصـوت الدافـئ والطيـف المليـح حين ارتج الشـاطئ بحشرجة صوت خشن، وامتدت يد بغتة إلى كتف إيهاب من الخلف وأدارته نحوها بقبضتها القوية كعملاق الأسـاطير، وخيّل لإيهاب أنه أضحـى قزمـا أمـام سـطوة الرجـل ذي النظـرات النارية، ثم باغته وهو يطالبه بإفراغ جيوبه من محتواها فلم يجد إيهاب شيئا ذا بال يمده به، ولـم يتـرك لـه الرجـل فرصـة الإفلات فباغته بلكمة قوية أفقدته توازنه وكادت تسـقطه في جوف الصخور الناتئة، وسـمعه يردد بغيظ وحنق شديدين كلمات نافرة وسبابا فاحشا لم يدرك فحواه:

- أعطني البورتابل.

- شو؟

- جيابك خاويين لأمك وجاي للهرهورة تتمختر في الطوموبيل، غـادي نوخـل بابـاك هـاذ النهـار وغـادي نوري ليك الظـلام في النهار القهار، باش مرة أخرى ما تخرجش من دارك بجيابك خاويين..

ولـم يكـد ينهـي حديثـه الفائـر حتـى صـوب له لكمـة أقوى من سابقتها، إلا أن إيهاب تفاداها بحركة مراوغة، وحدثته نفسه بأن يدافع عن ذاته بما يملك من جهد، فابتعد قليلا عن قبضة الرجل المجنون وأمسك صخرة وصوبها نحوه، فلم تخطئ الصخرة وجهتها ففار الدم من جبين الرجل المعتوه، وأراد أن يعيد الكرة ثانية فأمسـك بصخرة أكبر منها ورفعها في اتجاه الرجل إلا أن أيد صلبة انبعثت من العدم وكبلتـه مـن الخلـف وأشـبعته لكما وركلا وتركتـه طريح الثرى يلهث من الألم والأذى المباغت، وفي أذنيه يرن صدى أصواتهم المتشنجة الساخرة:

- إيوا دابا رجع لأمك للرباط على رجليك.

والتفت إيهاب بغتة فإذا الخلاء قد ابتلع عصابة اللصوص الماكرة، وألفى قواه خائرة على جانب الطريق المؤدية إلى مدينة تمارة، وخطر له أن يلوح بإشارة استغاثة إلى العابرين في سياراتهم المارقة فكان زفير سرعتهم الجنونية يقرع طبلة أذنيه كسمفونية في أوج تصاعد وتيرتها. وامتدت يده إلى وجهه فإذا بقطرات دم تنزل من خياشيمه بتؤدة وقد استشعر دفئها فوق شفتيه الداميتين. وتحسس برؤوس أصابعه وجنتيه فآلمتاه، وأحس من لمسة يده المرتجفة تورما وانتفاخا حول الجفون. وتخيل نفسه قبل أن يراها كبالونة بيضاء دكت دكا عنيفا بالأقدام تاركة على صفحتها أثر الرفس بالأشكال والألوان، واستوعب جيدا لماذا يمعن العابرون في تجاهله تاركين إياه لرحمة التيه والخلاء. وبغتة، ودون توقع ولا ترقب، توقفت عند قدميه سيارة كانت تمرق في أوج سرعتها، فجرّ خطواته متباطئا نحوها وكأن السماء جادت عليه فجأة بأكف الرحمة، وانفتح باب السيارة أوتوماتيكيا، وإذا بصوت أنثوي رفيع يحثه على دخول السيارة. وخشي في دخيلته أن يجره تهوره إلى الوقوع في مصيدة أخرى، إلا أنه فضل مغامرة الركوب مع امرأة يجهلها على أن يبيت في العراء وهو في حالة صحية جد متدهورة. وذهلت المرأة وهي ترمق حالته البئيسة، واكتشفت توا أنه تعرض لاعتداء ما. ووجد نفسه يقول لها في استعطاف وتذلل:

- رجاء، أوصليني إلى الرباط.

وأدركت المرأة من لهجته أنه ليس مغربيا وسألته عن هويته، إلا أنه رغب عن الجواب وراوغها وهو يقول بصوت متكسر من الألم:

- لقد تعرضت لاعتداء شنيع على أيدي عصابة من اللصوص سرقوا سيارتي..

ونظرت إليه المرأة نظرة حانية وقد امتلأت عيناها بطيف دمعة،

وامتدت يدها توا إلى صندوق السيارة الأمامي، وجلبت منه علبة أدوية، ثم سحبت قطنا ودهنته بقطرات من الكحل الصيدلي وطفقت تنظف جرحه بأناة ورقة. وتسللت نظراته دون وعي منه إلى ساقيها المتناسقتين وتنورتها القصيرة التي تكشف عن مفاتن فخذيها، ورفع عينيه إلى صدرها فشده منظر نهديها النافرين المختبئن خلف ثوب حريري مرقط بالأسود والأحمر كأنه جلد أفعى، وتخيلها أفعى رقطاء تسعى إلى استمالته بعطفها الزائد، فبدرت منه نظرة جافلة شزراء. والتقطت المرأة نظراته المريبة خلسة فأدركت أنه يشك في حسن نواياها، فشعرت بوخز قاس في صدرها، ولم تتمالك نفسها من الغيظ فقالت له مقرعة:

- لا تنظر إلي هكذا، نظراتك استفزازية ومليئة بالاحتقار.. ولا تنس أنني وقفت لإنقاذك وسط مئات الرجال العابرين في سياراتهم بلا مبالاة وتجاهل تام. صحيح، أنا امرأة مظهري يفضحني.. وليكن أنني فتاة شوارع، لكن صدقني إذا قلت لك أنني أنظف وأشرف من أولئك النساء اللواتي يعتبرن أنفسهن يعتلين عرش الشرف ويتوجن بتيجانه المرصعة.. أنا بنت خذلتني الأيام فوجدتني بدون تخطيط مسبق أتهاوى في دركات الرذيلة، لكن قلبي ظل دوما ينبض بالإنسانية والعطف وبذل المعروف. وما كنت لأقف لك لولا أنني تعرضت يوما إلى ما يشبه حادثتك، لكن حادثتي كانت أفظع لأنني تعرضت وقتها لاغتصاب بشع على أيد رجال نهشت الغريزة صدورهم وعشش الشره والبشاعة في قلوبهم وأنا لا أزال لم أتخط بعد ربيعي السادس عشر..

وشده إيهاب لحديثها العفوي الذي انثال من بين شفتيها كصنبور ماء تفجر على حين غرة، وأدرك أنه أخطأ في حقها حين قذفها بنظرات احتقارية، وأدرك أيضا أن عليه أن يعتذر منها أو ينفي ما ذهبت إليه ظنونها. وكبرت في عينيه ولم يعد ينظر إلى جسدها العاري بنظرته

السالفة. فيكفيه منها أنها أشفقت عليه ولم ينتابها الخوف منه، ومدت يدها إليه بالمساعدة ولم تتركه مخذولا على قارعة الطريق ينزف دما ويتضور ألما. واستغرب في أعماق ذاته من هذه المفارقة العجيبة التي وضعته وجها لوجه أمام فتاة تعترف جهارا أنها ابنة شوارع، لكنها تملك قلبا من ذهب يفتقده الكثير من الرجال والنساء على السواء. وتذكر للتو حكاية أمه التي حدثته يوما عن قصة امرأة عاهرة في زمن غابر خرجت في رحلة لوحدها في القفار متوجهة إلى إحدى القرى المجاورة، وبينما هي في طريقها صادفت كلبا يلهث من العطش وأنفاسه تكاد تنقطع من شدة الظمأ وحر الهجير، وفتشت المرأة في المنطقة القفراء فعثرت على بئر مهجورة ولم تجد بها دلوا فدلت في قعره نعلها ثم أخرجته ممتلئا بالماء وجعلت تسكبه في فم الكلب اللاهث، فكان أن أنقذته من موت محتوم فكتب لها بذلك العمل الجنة..

وانتشله صوت المرأة من حديثه الداخلي وهي تقول له بنبرة دافئة:

- أين تود أن أوصلك؟

- إلى حي الليمون.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت السيارة تقف حيث أشار لها أن تقف، وقد تعمد أن يشير لها بالوقوف في مكان عمومي يخلو من المنازل السكنية. ويبدو أن المرأة أدركت قصده الخفي ففاجأته وهي تقول له بنبرة حادة وهو يهم بالنزول من سيارتها:

- لن أقول لك رافقني إلى بيتي، ولن أطلب منك مرافقتك إلى سكنك.. صحيح أنا بنت شوارع كما بدوت لك لكن عندي كرامة، ولا أتمسح بأقدام أحد لأنني اغتنيت ولم أعد أمارس الدعارة لأعيش.. فلدي ما يكفي ويزيد من المال.. فأنا لا أبيع نفسي لكني أسعى للعثور

على رجل يشتريني وهو ولهان وهيمان من حبه لي.. وسأقبل به حتى ولو لم تجمعنا الروابط الشرعية..

وأمسكت عن الكلام كما لتأخذ نفسا ثم عادت تقول:

- أنا بدوري تعرضت لحادث اغتصاب بشع.. الفرق بيني وبينك أنني كنت مسؤولة إلى حد كبير عما حدث لي، لأنني ركبت بمحض إرادتي في سيارة أحد العابرين على الطريق الساحلية المتجهة توا إلى الدار البيضاء، فكان ما كان. ولن أنسى قط حديث ذلك الرجل الكهل الذي نهرني بشدة حين أفضيت له ولزوجته، وأنا في حالة من الهلع يرثى لها، بحقيقة أمري.. وحين أوصلني إلى قلب الدار البيضاء نصحني بأن أعود إلى رشدي، إلا أن خفة عقلي ورغبتي الجنونية في الاغتناء دفعتاني إلى تسلق سلالم الدعارة واكتشاف سراديبها المحفوفة بكل ألوان البشاعة والانحدار.

وهمّ إيهاب بشكرها لكنها قالت له قبل أن ينبس:

- لا تقل شيئا.. أعرف أنك تود أن تعتذر مني أو تشكرني، فلا حاجة للاعتذار ولا للشكر، وانس أنك التقيتني يوما..

ولم يكد يضع قدميه على رصيف الطريق حتى رفعت زجاج النافذة الأوتوماتيكي وأقفلت الباب بحدة وقفلت راجعة إلى حيث لا يدري وهو ينظر إليها بذهول كأنه خارج لتوه من متاهة أو من عمق سحيق.

ليلته الليلة ليست ككل الليالي، وهواجسه توفزت له كسرب كواسر يقصد بلا هوادة فريسته المستسلمة. وحين ألفى ذاته داخل بيته انتابه إحساس غريب كأنه عائد لتوه من لهيب جهنم إلى نعائم الجنة، ولعن في سره ذلك الهاجس السقيم الذي أملى عليه مغادرة بيته والتوجه إلى الهرهورة لاستنشاق هواء شاطئها العليل. ودون وعي منه وجد نفسه مسمرا أمام المرآة ينظر سادرا إلى وجهه المكدوم،

فبدا له كلوحة تشكيلية أفرزتها ريشة فنان يتقن بدقة مزج الألوان، فمن الأزرق القاتم يتدرج خلف الجفون المتورمة أزرق فاتح، ومن الأحمر القاني الذي رسم بحدة عظمة الوجنتين ينساب نحو الذقن والأذنين أحمر امتزج بأزرق بارد مخلفا ما يشبه الدوائر المتشابكة في كافة أنحاء وجهه. وغاب إيهاب خلف منعرجات الخطوط الزرقاء والحمراء القاتم منها والفاتح فتمثل لعينيه مشهد صعلوك الموصل الذي استقبله استقبالا حارا وهو يغادر لتوه سيارة الأجرة التي أقلّته من الحدود السورية إلى مشارف الموصل، وتذكّر كيف أكرمه على طريقته الخاصة بأن جرّده من حقيبته بعد أن لقّم وجهه الحليق لكمة مباغتة. وفجأة أحس بقواه تخور فدلف مسرعا نحو كنبة الصالون، ثم استلقى بكامله فوقها وهو ينشد الراحة والأمان. وحين استرجع بعض أنفاسه المتهافتة امتدت يده إلى محوّل التلفاز وكأنه يهرب من ذاته ليغرق في عوالم الفضائيات المثير. وقفزت أمام عينيه صورة كليب لأغنية خليجية وقد اصطف على ضفتي نهر سرب من الفتيات الشقراوات يقابله سرب آخر في الضفة الأخرى لفتيات يثير لون شعرهن القاتم انتباه المشاهدين. وأخذت الأسراب تتهادى في رقصة خليجية مألوفة. ورن في أذنيه حديث رفيق رحلته الخليجي الذي رافقه من إستانبول إلى مصر ومن مصر إلى المغرب، وذهل حين سمعه يقول:

- إن جل تلك الراقصات التي تنقل الفضائيات الخليجية صورهن في الكليبات الغنائية من أصل مغربي.. لا الشقراوات شقراوات ولا ذوات الشعور السود سود.. كلهن فتيات داعرات يمتهن الغناء والرقص لإخفاء هوياتهن الحقيقية.. وكل شيء فيهن مصطنع من قمة الرأس إلى أخمص القدمين..

ودهش إيهاب وهو يستقبل حديث الرجل الجريء فوجد نفسه يسأله متعمدا:

- لماذا أنت مسافر إلى المغرب؟

فأجابه رفيق الرحلة بنفس الجرأة مع جرعة زائدة من القحة:

- لـن أكـذب عليـك إذا قلـت لـك إننـي ذاهب إلى هناك لطلب المتعة والأنس اللذين أفتقدهما هناك في بلدي.

- هـل أفهـم مـن حديثـك أنـه لا يوجـد في بلـدك مجال للأنس والمتعة؟

وخفض الرفيق من صوته ودنا من إيهاب هامسا:

- لا يخلو بلد عربي من ذلك إلا أن للمغربيات باعا طويلا في ذلك المجال، بالإضافة إلى أنهن جذابات وماهرات..

وأدرك إيهاب أنه لو ساير الرجل في حديثه الطليق لوصل به إلى مشارف الميوعة، فهو لا يتورع في حديثه عن الغمز واللمز والإتيان بحركات فاحشـة، فأقفل باب الحديث معه بالشـمع الأحمر واسـتدار صـوب النافـذة المحاذيـة ليمينـه متظاهرا بالتسـلي باسـتراق النظر إلى كتل السـحاب المتناثرة في قلب السـماء كندف قطن ناصع البياض. وهمهم ساخطا:

«اتق الله في نفسك يا رجل.. ألا توجد عندكم فتيات خليجيات داعرات؟ ألا توجد في البحرين وفي الكويت وفي مصر ولبنان وفي.. وفي.. نسـاء عاهرات يمتهن الدعارة في السـر والعلن؟ ألا توجد في دول الخليـج دعـارة مـن نـوع خـاص تكـرم الأدب المكتوب بفضحها وكشـف السـتار عنها؟ أهون لي أن أرى فتاة تمارس الدعارة بشـكل طبيعي مع رجل على أن أراها أو أسمع بها تمارسها مع جنسها المثلي كسـحاقية أو بيـن الذكـور كلواطييـن.. الرجـل العربي ينسـى ذاته كليا وينخرط في هتك أعراض الآخرين.. ينسى أنه مخلوق حقير، مكبوت في بلد يخنق الحريات الشخصية فيأتي بكامل القحة ليمارس دعارته في بلدان عربية أخرى تتسم بالانفتاح.. وحين يقضي مآربه تجده يتبجح

وينعت فتياته بالعاهرات، أوليس هو العاهر الأول والأخير الذي يجر تلك الفتاة البئيسة التي لا تجد طعاما تسد به رمقها ولا لباسا تستر به جسدها ولا مأوى دافئا تحتمي به من شر النسور والكواسر، فيجرها إلى بؤرة الدعارة ويغدق عليها من أمواله الطائلة الفاسدة كي يمتص رحيقها ثم يعود توا إلى زوجاته الأخريات البئيسات اللواتي يودعهن قبل سفره على أنه مسافر خارج بلده من أجلهن ومن أجل أولادهن في طلب الرزق والمتاجرة بالحلال؟ ألا يخجل هذا الرجل العربي من نفسه حين تسول له نفسه وصف الأخريات، فتيات متعته وزهوه، بالعاهرات؟ من المذنب الحقيقي هنا، أذلك الصياد الماكر الذي يضع في صنارته طعما شهيا ليصطاد به السمكة أم تلك السمكة الجائعة التي تتجه فطريا نحو الطعم ابتغاء سد الرمق وإطفاء صولة الجوع؟

وشدت انتباهه نشرة الأخبار في إحدى القنوات العربية فأصاخ السمع إلى شذرات الأخبار السريعة وهو ينظر بذهول إلى مشاهد الدمار في كل من لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان.. وأثاره مشهد صبية غزة التي فقدت كل أفراد أسرتها في الهجمة الإسرائيلية الشرسة على قطاع غزة وكيف أن الصبية استعادت بعض ألفتها بعد أن عثرت بالصدفة على قطتها الأليفة، وبدت بعينيها المغرورقتين بالدموع وابتسامة الظفر المؤقتة التي اكتست شفتيها الذابلتين كأنها عثرت على أفراد عائلتها. وكان يرافقها في جولتها بالحارات المدمرة كليا، حيث كان مقر سكنى عائلتها، أحد الصحفيين في محاولة لمساعدتها على اكتشاف معالم المكان الذي أضحى أثرا بعد عين، فأضحى بعد العدوان السافر كومة من الحجارة والأسلاك المهترئة والعيدان المنكسرة.

وطن الخرائب.. هو ذا وطني.. وطن المصائب.. هو ذا وطني.. وطن المفاسد.. هو ذا وطني.. وطني الكبير يا وطني.. ماذا دهاك يا

وطني حتى انزلقت قدماك مسرعة في درك الرذائل؟ ماذا دهاك يا وطني حتى أحاط بك الأعداء من كل حدب وصوب كدائرة سوء؟ أعداء الداخل وأعداء الخارج وكل قد صوب سهامه الصدئة إلى قلبك الفارغ.. لا شيء يذهلني إلا هذا الارتباك المثير في خطواتك حتى أفقدك اتزانك.. لا الحق أضحى يسمى حقا ولا الظلم أضحى ينعت ظلما.. شيء تذهل منه الأنفس فتهيم على وجهها في متاهات نفق بلا منتهى.. عشتَ يا إيهاب حتى تكشفت لك الدنيا على أوجهها البشعة المقززة.. وأدركت في منتصف الطريق أنك يتيم الأب والوطن، وهمت على وجهك كالمجنون بحثا عن مرافئ الأبوة الحقيقية وشطآن الوطن الأم، ورأيت بأم عينيك كيف ابتلي الشارع العربي بالهستيريا العارمة التي تتسربل بشتى ألوان المفارقات، وذهلت يوم ألفيت ذاتك وسط بغداد تتقاذفك جحافل المتظاهرين من كل صوب وفي كل اتجاه وعند مخرج كل حارة أو زقاق.. وكنت وقتها تبحث جادا عن أثر أبيك الذي غادر لتوه دمشق متجها إلى بغداد فإذا بك تجد أباك الأكبر وقد ارتدى على حين غرة جبة الوطن وأخذ يجوب شوارع الرشيد والسعدون وأبي نواس.. ويردد الشعارات المعادية لحزب البعث البائد، ثم تستدير إلى شارع آخر فتجد أسرابا آدمية تكيل الشتائم اللاذعة لأعداء البعث وتردد بحناجر مبحوحة: «سيبقى صدام شهيد الوطن.. يا أنذال يا أعداء الوطن».عشتَ يا إيهاب حتى سمعت أذناك ما لم تصدقه أذن، فسمعت في شتى الفضائيات العربية وغير العربية كيف تنعت المقاومة بالإرهاب ويصبح الإرهاب دفاعا عن النفس، وكيف يصبح الاحتلال تحريرا وتحرير الأرض تعديا سافرا على حقوق المحتل، وكيف تقفل كل الأبواب والمنافذ في وجه المقاومين ويسمى الخونة والجواسيس والمتواطئون وكلاب الدم بالمجاهدين وأبناء الوطن البررة.. عشت يا إيهاب حتى رأيت وشهدت المظاهرات الصاخبة التي رفعت فيها صور

نصر الله وراية حزبه وصور تشافيز وأردوغان تتهادى في شوارع الوطن حين انتفت من الوطن ملامح الأبطال الذين نادوا في زمن ما بالعروبة والقومية والذود على الأرض والعرض بالنفس والولد والمال.. عشت يا إيهاب حتى رأيت بأم عينيك ما لم تره عين، فنم قرير العين واهنأ، فإنك في بحبوحة الأوطان التي لا يشبه تقاسيمها وطن..

وانتبه إيهاب من حديثه الداخلي الهادر على رنين هاتفه الذي كان قد تركه لحسن حظه في البيت قبل أن يغادره إلى شاطئ الهرهورة. وحمد الله على غفلته تلك وإلا كان ضاع منه ضمن ما ضاع. وضغط على زر الهاتف فوجد إياد يقول له بصوت هادئ:

– مساء النور، كيفك؟ اتصلت بك أكثر من مرة فلم ترد، فخمنت أنك خرجت ونسيت هاتفك في البيت.

– نعم، هذا الذي حصل.

– أود أن أراك غدا.

– سأنتظرك في البيت.

– ولِمَ لا نلتقي خارج البيت ونحسو كأس شاي أو فنجان قهوة في أحد المقاهي المطلة على البحر؟

– لا أستطيع الخروج للأسف، وسأنتظر زيارتك لي غدا في البيت.

– ولِمَ لا تستطيع الخروج؟ أمرك غريب.

– ستعرف غدا سبب ذلك، فلا تستعجل، إلى اللقاء وليلة سعيدة.

وبقيت كلمات إيهاب المقتضبة تطن في مسامع إياد، ووجد نفسه يتلقى مائة جواب دفعة واحدة على السؤال المحير «ولِمَ لا يستطيع الخروج؟» وبات ليلته تلك وهو يقلّب الأمر على أوجهه المتباينة.. وأقفل إياد باب تساؤلاته المتناسلة بأن دخل غرفة نومه وانحشر بسرعة داخل السرير وأخذ يستجدي سِنة من النوم الذي أخذ يجافيه هذه

الأيـام بعـد أن كان نومـه مطواعـا ومنسـابا لا تكـدر صفوه الهواجس. وحين تسربت في الصباح الباكر إلى غرفته أولى خيوط شمس الشروق الخجولـة فتـح عينيـه علـى فضـاء غرفته المربعة وتركزت نظراته حول نافذة غرفته الواسـعة المزينة بسـتار سـميك مزركش الحواشـي بدانتيل أخضر اللون وقد انسدلت من أهدابه حبات عقيق جذابة منسجمة في لونهـا مـع لـون أرضيـة السـتارة المائل إلى لـون القزبرة القاتم. وفجأة ألفى ذاته يبتسم حين استحضر تفاصيل حلم الليلة، وتحولت ابتسامته إلـى ضحكـة صامتـة حيـن اكتشـف أن لاوعيـه ذهب بـه ليلا إلى بيت إيهاب وكان يحاول جاهدا أن ينظر إلى وجهه مليا إلا أن هذا الأخير كان يلـف وجهـه بكلتـا يديـه وكأنه يلعب معه لعبة الطفولة المعشـوقة لديه «الختّيلة»[1]. واستغرب من نفسه كل هذا الإصرار على تفحص وجه صديقه وكأنه سيراه لأول مرة، وتمسك إيهاب في عناد بموقفه المعاكس لرغبة إياد وكأنه يعز عليه أن يطلعه على سـر دفين تنطوي عليه ملامح وجهه. وأسدل الستار على مشاهد الحلم، ذلك أنه لم تكن تستوقفه كثيرا عوالمه الغامضة وأسراره المنغلقة على ذاتها كمحار.

وأقبل المساء، فقام إيهاب من قيلولته متثاقلا وتمدد فوق الكنبة يتأمل في سكون مطلق أركان بيته. **من كان يقول أن قدميّ ستطآن هذه الأرض وأن أنفاسـي سـتهتز تحت سـقف هذه الغرفة؟ من كان يقول أن حياتي سـتنقلب رأسـا على عقب قبل أن تغمض والدتي جفونها بيومين فقط؟ من يصدق أنني رأيتها أمس رأي العين وحدّثتني وحدّثتها ونصحتني وأملت علي أن أقوم بالواجب؟** وانقطع هديره الباطني على وقع طرقات على باب منزله، فقام مسرعا يفتح الباب:

– ما هذا الذي أرى؟ ماذا أصابك؟

---

(1) لعبة الختيلة: تسمى في المغرب لعبة «الغميضة».

- ماذا ترى؟

ونسي إيهاب أنه نزع نظارته السوداء وأن وجهه أضحى مفضوحا بكدماته وتورماته.. ثم استعاد وعيه فجأة على وقع الدهشة المريبة التي ارتسمت في عيني إياد، فاستدرك قائلا:

- كدت أنسى ما حصل لي بالأمس.

- لا أكاد أصدق، أتراك سقطت على الدرج؟

- ليتني سقطت على الدرج، لكن يبدو أن الدرج سقط على دماغي فجأة..

وكادت تفلت من إياد ضحكة مضغوطة إلا أنه تمالك نفسه فعاد يسأله:

- ماذا تقصد؟ لم أستوعب الذي حصل معك..

وطفق إيهاب يسرد قصته العجيبة بكامل تفاصيلها، وتوقف هنيهة متفكرا حين تذكر طيف أمه فقال لإياد مذهولا:

- ما أدهشني وأربكني حقا هو أنني لم أكن أحلم ولا كنت نائما.. صدقني، لقد كنت في كامل وعيي، متيقظا.. عيناي مفتوحتان على اتساعهما، أنظر إلى الشاطئ المقفر وأتأمل نفسي والوجود في سكينة مطلقة، وبغتة انبثق وجه الصبية من حيث لا أدري وبعده مباشرة تبدت لي أمي من لحم ودم كما عهدتها إبان شبابها، في قمة زهوها، وأثارني حديثها..

- بماذا حدثتك؟

- كانت تنصحني..

- يقال أن حديث الموتى في الأحلام لا يجب أن يؤخذ مأخذ الهزل لأنهم في دار الحق ولا ينطقون إلا حقا.

وارتج إيهاب بعنف لتفسير صديقه وأدرك أن عليه أن يبقي ما سمعه من أمه في الكتمان. ولم يتوقف إياد عن كلامه بل أضاف

متسائلا:

- وبماذا نصحتك؟

- لا أذكر جيدا تفاصيل حديثها القصير، حين انتبهت من غفوتي انمحى كل شيء من ذاكرتي ولم يعلق بها سوى طيف الصبية وطيف أمي.

- لا تعر الأمر اهتماما، إنها أحلام اليقظة ويقول البعض إنها بمثابة الرؤيا.

وعرج إيهاب على تفاصيل حادث الاعتداء، فعقب إياد قائلا:

- لقد أخطأت بذهابك بمفردك إلى شاطئ مقفر خال، وعرضت نفسك إلى ما لا تحمد عقباه.

وقال إيهاب هامسا في سره: «**نعم، لقد عرضت نفسي إلى خطر كبير لكني رأيت أمي جهرة وسمعت ما سمعت منها، لقد أديت ثمن ذلك بتعرضي للاعتداء.. لا شيء بلا ثمن..**».

لكن إياد عاد يطرح سؤاله بإلحاح:

- لكنك لم تحدثني كيف وصلت إلى الرباط بعد أن سرقت سيارتك.

- وصلت بقدرة قادر مع المرأة الوحيدة العابرة على تلك الطريق.. وحدها أشفقت من حالي ووقفت دون خوف ولا توجس لإنقاذي، بينما تحاشاني مئات الرجال العابرين في سيارتهم المارقة كالمجانين.

- هذه امرأة بألف رجل إذن؟

- نعم، صدقت، هي امرأة فعلا بمليون رجل في زمن اندحار الرجولة.. وقد يأخذك العجب إذا قلت لك أنها اعترفت لي جهارا بيانا بأنها فتاة «مش ولا بد» لكني فوجئت بأفكارها وشخصيتها المثيرة وعزة نفسها.. وقد حز في خاطري أنها لم تعطني فرصة للتعرف عليها

أكثر، لا استلمت منها عنوانا ولا اسما ولا حتى رقم هاتفها..

- كيف حصل ذلك؟ غريب أمر هذه المرأة.

- لقد استفززتها بنظراتي مما أشعرها أنني أنظر إليها «من تحت لتحت» فلقنتني درسا في الأخلاق والحياة لن أنساه..

- الله أكبر، ذلك الصنف المجرِّب من النساء هو الوجه الحقيقي للحياة.

- تصوّر، عالجت جرحي بما تملك من أدوية.. أوصلتني إلى حي الليمون، ثم رفعت زجاج سيارتها، وأقفلت ورائي الباب بحدة، واستدارت كالمجنونة مولية لي ظهرها في سرعة فائقة.

- ألم أقل لك إنها امرأة بألف رجل.. المرأة بأنفتها وكبريائها.

إلا أن حديث المساء انثال وتشعب فجاء سؤال إيهاب العفوي كقرع قوي على صفحة باب من حديد، فقال لإياد مستفسرا:

- هل ذهبت لعيادة تلك الفتاة؟

وارتبك إياد قبل أن ينبس، ثم رد عليه متجاهلا قصده:

- أي فتاة تقصد؟

- أقصد صديقة سيمون، لقد استغربت ليلتها حين عدت إلي بمفردك إلى طابق الإنعاش وفي يدك حقيبة المصابة. هل تكون سيمون قد كلفتك بمهمة عيادتها والاطمئنان على أحوالها؟

وتلقف إياد تساؤل إيهاب بتوجس، فوجد نفسه محاصرا بين مأزقين أهونهما صعب. أن يفضي إليه بحقيقة المصابة دفعة واحدة يكون قد كشف سرا يعتبره من خصوصيات صديقه بسام لشخص يجهل هويته بالتحديد ويدعي بقرابته لبسام، أو أن يطوي الملف طيا وينكر معرفته للفتاة فيكون بذلك قد تكتم على حقيقة سيكشفها الغد القريب حتما. وبعد لحظة تأمل، ألفى إياد نفسه يقول بعد أن نفض من صدره بعض الارتباك والتردد:

- لعل من غرائب الصدف أن يجمعك القدر بإنسانة تعرفها منذ زمن وهي طريحة الفراش..

ورد إيهاب متعجبا:

- هل تعرف هذه الفتاة؟

- نعم، إنها معرفة قديمة..

- لقد أشفقت عليها ليلتها..

وصمت إيهاب لحظة وأردف قائلا:

- هل ما زالت في غيبوبة؟

- نعم، لكن الممرضة طمأنتني بأنها قد تستعيد وعيها في ظرف يومين على الأرجح.

- وهل أخبرت عائلتها بالحادث؟

- لقد تكفل مسؤولو المستشفى بالمهمة بعد أن علموا بمقر عملها.

وعمَّ الصمت هنيهة وألقى إياد نظرة متحيرة حول إيهاب الذي ما انفك يقرع آذانه بأسئلته المتناسلة. إلا أن سؤاله الأخير غير المرتقب انسكب على رأس إياد كزخة مطر مفاجئة حين قال بتودد:

- الحقيقة أنني أرغب في عيادتها، خذني معك رجاء في الزيارة القادمة.

واستقبل إياد تودد إيهاب بارتياب، وأدرك بحدسه أن لحظة انكشاف الحقيقة قد دنت، وهجس خاطر في نفسه يقول «لا داعي للمراوغة» فأومأ برأسه موافقا.

وانتهى حديث الشجن هنا، واستأذن إياد إيهاب بالانصراف والساعة تقارب العاشرة ليلا في وقت كان فيه بسام ممددا فوق سريره، يتحسس أعضاءه المتوعكة من أثر نوم غير مريح وكأنه صعد جبلا أو أفلت بأعجوبة من سراديب متاهة في فج عميق. واستدار بسرعة

خاطفة ناحية ساعة الجدار وقد انتابه خوف بليغ من أن يكون منبه الساعة خذله ولم يرن. فموعد اليوم لا يحتمل التأخير، وعليه أن يكون في مطار الشارقة قبل ساعتين على الأقل من ميعاد إقلاع الطائرة. وتسللت نظراته ناحية حقيبة سفره المفتوحة وقلبت عيناه علبة العطر الأنثوي المفضل لديه:

Parfun D'or

ثم لامست أهدابه الشال الحريري البنفسجي الفاتح وساعة اليد المنسجم لون أرضيتها مع لون الشال، وسرحت عيناه بعيدا وهو يتخيل الشال وقد أحاط برقة على رقبة مها، وهفت نفسه إلى ضمها وتقبيلها وأمسكت يداه بأعطاف الشال فألفى ذاته يتشممه. وقفز إلى ذاكرة حواسه أريج عطرها ذات عناق خاطف على عتبة محطة القطار ذات لقاء خريفي، وتراءت له بوجنتيها الحمراوين وشفتيها المرتعشتين وعينيها الوجلتين.. وانتابه شوق جارف لرؤيتها. وتكدر صفوه حين تذكر أنه سافر إلى الإمارات دون أن يبرر لها سبب مغادرته المغرب ولا أعلمها بوجهة سفره. فعلتَ فعلتك تلك دون قصد واضح للإساءة، إلا أن إساءتك كانت بليغة، عميقة الغور، وأنتَ تنشد اليوم صلحها وتطمع في تسامحها.. مفارقتك عجيبة يا بسام، تسكب الماء والصقيع على النار ثم تهفو إلى إشعالها ثانية بعد خمودها وانطفاء شعلتها. هل كنتَ تنتقم بوعي أو لا وعي لنفسك منها هي التي حرمتك متعة الجسد فأردت أن تحرمها متعة القلب؟ هل كنت تسعى إلى إيلامها بالبعد والهجران هي التي أذاقتك مرارة الصبر والانتظار ليوم تلين فيه وتستجيب دون ضغوط إلى لغة الجسد المتأججة، فألفيت ذاتك في جحيم ثان اسمه الغربة؟ هل كنت تصبو إلى قهر ذاتك وحملها على النسيان فعمقت بداخلك الإحساس بالاغتراب وألقيت بنفسك في لهيب صراع داخلي يضخم لك كل يوم حجم الذنب فيتراءى لك في

صورة جبل عملاق يكسوه الصبار ثم يستحيل طيف مها في مخيلتك إلى ينبوع هادئ ليـن ينسرب في عذوبة عند أقدام الجبل الشامخ؟ وترقرق النبع بأذنيك وأشرقت عيناك بوهج الصبابة وشطبت يداك بضربة قاطعة مشهد غضبها وتراءت لك بعينيها الباسمتين الجميلتين وابتسامتها الرائقة، وتناهت إلى سمعك شذرات من نشيد بعيد:

تلك أنا أصنع من بوح الدياجي
تراتيل لبهاء العيون،
وأهمس للأهلة حين تهل:
كفاك زهوا فإن لي من العيون عيونا
وكنت أصعد فيكِ أبراج سومر
وكنتِ على ضفاف الأطلسي
الينابيع والنخيل،
أجراس أعراس،
تغريدة نهر لمقامات الصهيل..

وقام بسام من سريره مسرعا إلى الحمام بعد أن رن جرس الساعة مجددا. ولم تمر سوى نصف ساعة حتى كان على متن سيارة صديقه البحريني الذي جاء إليه قصد إيصاله إلى المطار. ومرقت السيارة بسرعة فائقة في شوارع الشارقة واقتحمت عيناه مدخل أحد السوبرماركت، وانتهى إليه خلسة حديث نجلاء المغربية التي كانت علبة شاي أسود سبب تعرّفه عليها، وسمعها تقول بلهجة عتاب:

- يعني إذا لم أسأل عنك لا تسأل عني؟
- لا، أبدا، أنت دائما على البال.
- هل الفؤاد مشغول بحبيبة أخرى؟

«حواء دائما تبحث عن غريمتها ولو في الربع الخالي من الدنيا.. ومن أدراها أن لي حبيبة أخرى؟ ثم من قال له أنها حبيبتي حتى تنعت امرأة أخرى بحبيبتي الثانية؟ هل يكفي أن تدعو فتاة إلى بيتك وتشاركك الكأس والسرير حتى تستولي بكامل الجرأة والقحة على لقب الحبيبة؟».

وتذكّر بسام كيف كان أول لقاء له بنجلاء عند عتبة السوبرماركت، وكانت يداه محملتان بعدة أكياس محشوة بسلع شتى فسقط منه كيس كان يحوي ضمن ما يحويه علبة شاي أسود، فاندلق ما بالكيس أرضا وتوقفت نجلاء لتساعده على جمع شتات مقتنياته. وحين لاحظت أنه ينتظر سيارة أجرة، اقترحت عليه أن يقبل خدمتها فأوصلته إلى بيته بسيارتها. وهام بسام في ملكوت خياله يبحر في يم التفاصيل واستفاق فجأة على حديث صديقه أنوار وهو يقول له ضاحكا:

– يبدو أن الحلوين سافروا قبل الوصول إلى المطار ودون حاجة إلى جواز سفر أو تأشيرة.

فرد بسام على حديث صديقه الملغز وهو يقول له مبتسما:

– وهل يحتاج أحدنا إلى جواز سفر وتأشيرة كي يرحل بعيدا عن الدنيا والناس؟

– أفهم من حديثك أنك سهوت في أمر بعيد عن الدنيا والناس؟

وأدرك بسام أنه في حديثه لم يكن صادقا فاستدرك قائلا:

– هذه الدنيا لا تدع لنا مجالا للهرب من جحيمها يا صديقي، هي البلوة والبلاء.. تحاصرنا أينما ولّينا وجهنا..

– أخشى أن تسدل ذاكرتك الستار على شلة الأصدقاء والصديقات الذين عرفتهم في الإمارات ولا تعود تذكرنا إلا لماما.

فعقّب بسام على قوله قبل أن ينهي كلامه وكأنه اشتم من حديثه رائحة تهمة تنكّر للجميل والعرفان:

– لا تهون العشرة إلا على اللئام، وأنا لن أنسى قط من آزرني في غربتي وأبقى على مودته لي طيلة إقامتي في الإمارات. وإذا كنت أنا الآن عائدا إلى المغرب رغم أنه ليس بلدي فلكوني تركت فيه أصدقاء وأحبة جمعني بهم حسن المعشر وسعة القلب والحب الصافي الخالي من الانتفاعية لعقد من الزمن. ألا ترى معي أن الحبايب وطن المغتربين؟

– وأنا أقول أن من لا أحبة له مغترب في وطنه ولو أحاطت به العشيرة.

وبقي هسيس هذا الحديث العفوي يتردد بدواخله وهو على متن الطائرة المتوجهة إلى المغرب، وتذكر الليلة التي غادر فيها المغرب متوجها إلى الإمارات، وكيف أن أمورا كثيرة حدثت تلك الليلة جعلت نومه مضطربا ونفسه متحيرة حتى أنه كاد يتخلى عن قرار سفره في آخر لحظة حين سمع حديث صديقه إياد وهو يقول له بلغة صارمة متوترة:

– كيف لا تخبرها بسفرك؟ هلا فكرت بحالها حين تعلم من غيرك عن قرار سفرك؟

– أنا أفوض لك أمر إخبارها، اعذرني يا إياد، فأنا لا أستطيع رؤية الدموع ولا أتحمل رؤيتها منتحبة.. أفضل أن أهرب بنفسي من هذا المشهد على أن أزج بها في حالة من التذمر واليأس.. وأخشى إن قابلتها وأخبرتها بحقيقة سفري أن يدفعني التأثر إلى إرجاء السفر أو التخلي نهائيا عن فكرة الهجرة.

– كم أنت متهور وقاس يا صديقي، ستندم على قرارك، صدقني، ولن ينفعك الندم.. أنت تظلم هذه الفتاة بسلوكك الأهوج..

ورن هاتفه في تلك الليلة رنينا تخيله حزينا، متكسرا كالنحيب، وجاءته رسالة مها الهاتفية تقول:

– ما هذا الصمت المريب يا أعز الحبايب؟ أتراك غرقت في

المحيط أم تاه البال عني ورحل إلى ضفتي النهرين؟

ولم يجرؤ على الرد على رسالتها فجاءته رسالة ثانية مستفسرة:

- أتراك نائم أم مسافر؟

أمر واحد كان يندهش له بسام أحيانا حين تواجهه مها بحديثها العفوي الذي ينطوي على حدس قوي يصدمه بحدته وفوريته. «ها هي ذي تنطق بما لا أجرؤ على النطق به أمامها وتعريني أمام ذاتي فتنطق بدلي بكلمات ثقيلة في حجم الغرق والرحيل والنوم والسفر. نعم، لقد غرقت في يم بلا قرار حين رحلت عنك، وها أنا ذا عائد إليك وأنا أدرك مسبقا أنني سألاقي صدا قويا ورودا شرسة من طرفك.. فأنا أعرف جيدا حد اليقين أنني استنفذت صبرك وبلغ بك الضجر مداه، وأعلم يقينا أنك في قمة غضبك وسخطك علي، لكني أطمع في قلبك المتسامح الذي لا يعرف الضغينة. كما أعلم من نفسي أنني غير قادر على المجازفة بالزواج منك لأنني أحبك ولا أريد أن أفقدك. قد لا تستوعبين منطقي وقد أبدو لك غامضا أو مجنونا، لكني أجدني في قمة تعقلي لأنني لا أريد أن أعيش تجربة زواج فاشل مرتين، وقد أذاقني زواجي الأول والأخير مرارة الفشل بشكل ذريع مما جعلني أعاهد نفسي على ألا أظلمها مرتين. وأنا بقراري هذا لا أريد أن أظلمك معي فينتهي زواجي منك كما انتهى زواجي الأول بالفراق.. ولأنني لا أريد أن أفارقك فأنا لا أرغب البتة في الزج بك في بؤرة موبوءة اسمها الزواج. أعلم يقينا أن كلامي هذا يبدو كهلوسات إنسان أخذ جرعة زائدة من مخدر الشيرا أو الكوكايين لكني أفضل أن أبدو مهلوسا على أن أتهلوس حقيقة بزيجة ثانية فاشلة. لقد أخفيت عنك سر زواجي لأنني في الحقيقة أود نسيانه إلى الأبد. لقد كان تجربة حياتية صادمة انتهت بالطلاق السريع بحيث لم يدم زواجي أكثر من شهر واحد، وأحمد الله كثيرا على لطف قضائه وقدره أن يسر طلاقنا

دون أن يورطنا في عبء الأولاد وتبعاتهم». وانقطع حديث النجوى بسماع صوت المضيفة التي ملأ نداؤها فضاء الطائرة وهي تقول في مكبر الصوت: «الرجاء التزام أماكنكم وشد أحزمتكم، فالطائرة تستعد للنزول في مطار محمد الخامس بكازابلانكا».

وكان إيهاب لحظتها يحتسي فنجان قهوة ويقرأ إحدى الجرائد أو بالأحرى يزجي الوقت بملء الكلمات المتقاطعة وهو يقول في خاطره «لم يعد في الجرائد ما يستحق القراءة.. كلها أصبحت متشابهة». وبينما هو ساهم يفكر بأناة في كلمة متقاطعة استعصت عليه، رن هاتفه فارتبك وسقط القلم من يده قبل أن يرد. ثم أمسك الهاتف وضغط على أحد أزراره فوصله صوت صديقه إياد مبتهجا يكاد صوته يزقزق من أثر الفرحة، فقال له بصوت مضطرب من شدة التأثر:

– أينك يا إيهاب؟ لقد استعادت مها وعيها وهي الآن مستيقظة، أنا وسيمون في انتظارك بالمستشفى.

واستقبل إيهاب الخبر الفجائي بفرح هادئ، وقفز من مكانه وألقى بثمن القهوة فوق المائدة وترك جريدته هناك واستوقف أول سيارة أجرة تمر بجواره. وسار السائق يعبر به شوارع الرباط متوجها إلى مستشفى ابن سيناء وشعور غامض يلفه، ودخل إيهاب غرفة المستشفى المشرعة الباب فاستقبله الصديقان بابتسامة عريضة، وأفسحا له المجال كي يتقدم ناحية مها، فافترت شفتاها عن ابتسامة مشرقة وتهلل وجهها بألق غريب وبادلها إيهاب الابتسام وقال لها مرتبكا:

– حمدا لله على سلامتك.

فردت عليه بصوت مبتهج رغم خفوته:

– أهلا بك بسام، ما هذه المفاجأة السعيدة؟

وسرت في جسد إيهاب قشعريرة طارئة بسماع اسم أبيه على لسان مها، واستدار لا شعوريا ناحية إياد يستفهمه بعينيه عما سمع،

فألفى كلا من إياد وسيمون يتبادلان نظرات مبهمة من أثر المفاجأة. وأراد إيهاب أن يوضح لمها الأمر إلا أنه أشفق من حالها فآثر الصمت على أن يقحمها في حديث وجدل لا يتماشى وطبيعة الموقف. وخمن أنها تعرف أباه معرفة دقيقة ولهذا شبه لها وهي ما فتئت تستعيد ذاكرتها بعد الغيبوبة، وتفتح عينيها على واقع جديد بعد الحادثة. وهاله موقف إياد الذي بدا له وقد لبسه الذهول من وقع ما حدث، وتحير في أمره حين سمعه يتحدث وسيمون بتلعثم ويحرك يديه بشكل عصبي. ثم لم يلبث أن ودع مها داعيا لها بالشفاء العاجل وواعدا إياها بزيارة لاحقة. ورفع كلتا يديه في إشارة للوداع إلى كل من سيمون وإيهاب وخرج من الغرفة وهو لا يلوي على شيء. إلا أن إيهاب هب في أثره يبحث عنه في حديقة المستشفى فلم يعثر له على أثر، فخطر بباله أن يحدثه على الهاتف فوصله الصوت الإلكتروني رتيبا يقول «إن الهاتف الذي تطلبونه مغلق أو خارج نطاق التغطية». وتريث إيهاب قليلا قبل أن يستقل سيارة أجرة، فألهمه حدسه بالتوجه إلى حانة إياد المفضلة «سأجده هناك إذا صدق تخميني». ثم انطلق به سائق سيارة الأجرة يعبر شوارع المدينة وعيناه تجوسان مفترقات الطرق وعطفات الحارات وصدره فارغ تقرعه طبول الاستفهام. ووصل في ظرف وجيز إلى الحانة فدخلها ومسحها بنظرة مرتابة، وشعر بوخز في صدره حين خاب ظنه فاتجه إلى الساقية يسألها عن إياد فنفت مجيئه إلى الحانة في هذا المساء، فشكرها وهم بمغادرة الحانة وإذا بإياد ينزل من سيارة أجرة صغيرة ويدفع للسائق أجرته موليا ظهره لإيهاب. وما كاد يستدير نحوه حتى وجد ذاته وجها لوجه أمام إيهاب. فابتسم في وجهه ابتسامة غامضة وربت على كتفه ودخلا الحانة معا كديكين مكسيكيين يتأهبان للعراك. إلا أن إيهاب عزم في دخيلته على أن يلاينه ويداريه ما أمكنه الجهد حتى يتسنى له معرفة الحقيقة، كل

الحقيقة. ونحى الغضب من صدره إلى أبعد الحدود ثم استبق إياد إلى المائدة وجلب بنفسه كرسيا لإياد وأومأ له أن يجلس بأدب كأنه نادل لبق يستقبل زوار الحانة بأدب جم. وجلسا متقابلين وكليهما تنهشه الظنون. وقدمت الساقية قبل أن يشرعا في حديثهما الشائك فأمرها إيهاب بقنينتي شراب وكأسين. والتقت عيناهما تسألان في صمت، وخيل لإياد أنه سيجتاز امتحانا عسيرا لا يدري بدايته ولا منتهاه. فكسر إيهاب الصمت وقد اكتست ابتسامة ودودة محياه، بعد أن أفرغ القنينة في كأسه:

– لست أدري ما سر انسحابك الفوري من المستشفى علما أنك أنت من دعاني لزيارة مها؟

– شعرت بعياء مفاجئ ففضلت أن أغادركم.

وأدرك إيهاب من حديث إياد أنه يسعى إلى التهرب من المكاشفة، فقرر أن يختصر عليه المسافة فقال دون تردد ولا مواربة:

– يبدو أن القدر ألقى في طريقي، في صدفة غريبة لا تصدق، بالإنسانة التي كنت أود أن أتعرف عليها منذ وطأت قدماي أرض المغرب.

وذهل إياد وهو يتلقف حديث إيهاب المفاجئ، وجنحت به الظنون في كل اتجاه، وقال له يستفسره وقد اضطربت جوانحه:

– من تقصد بقولك؟

– أقصد تلك التي كنت أود أن تعينني على معرفتها وأبيت إلا أن تطوي فصول حكايتها بصمتك كما يطوي السجل الكتاب.

– لا أفهم قصدك، صدقني.

– بل إنك تدرك جيدا ما أقصده.

وحين أدرك إياد أنه أضحى محاصرا بتهمة يقذفها إيهاب في وجهه بشكل هادئ ونبرة يقين لا يطاله الشك، تأهب للدفاع عن

نفسه وتبرير سلوكه، فجهز جهازه وأخذ يقول له وقد صوب نظراته الصارمة في عيني إيهاب:

- لا تنسَ يا إيهاب أنك أول من بدأ بلعبة التخفي وطمس الحقائق، فأنت لحد الساعة لم تكشف عن حقيقة هويتك ولا عن حقيقة علاقتك العائلية ببسام. ولم تزد على أن قلت لي حين التقيتك بالمطار أنك أحد أقارب بسام. صدقني، لقد أثارني شبهك المثير ببسام وجعلني أطرح ألف سؤال ولا أجد جوابا شافيا له، لأنك عزمت على كتمان هذه الحقيقة في نفسك. فتارة أقول هل أنت أخ توأم لبسام؟ وتارة أخرى أتساءل هل تكون بسام ذاته انبعث بغتة كأهل الكهف وعاد يرفل ثانية في أعطاف الفتوة والصبا؟ إن صمتك وكتمانك لسر دفين بين حناياك جعلني أنطوي أنا أيضا على نفسي، وما دمت تخفي عني حقيقة نفسك فلا تتوقع مني أن أفتح لك سراديب خفية في حياة صديق أعزه وكان لي بمثابة الأخ والصديق الصدوق في بلد الغربة.

وانفغر إيهاب لحديث إياد الذي انطوى على الصدق والوفاء لصديق عزيز. وأدرك أنه أخطأ بلومه وتوجيه تهمة مجانية له بإخفاء حقائق عنه ما دام هو يلعب نفس اللعبة ويتبناها بكامل المشروعية. وحين انتهى إياد من حديثه الصريح الشجي وجد إيهاب نفسه يقول له وكأنه يكلم ذاته:

- نعم، لقد أخفيت عنك حقيقة هويتي لأنني أنا بدوري لا أكاد أصدق ما يحدث لي. ولو كنت بدلي لفعلتَ ما فعلته وربما أصابك الذهول والجنون من جراء ما أصابني.. وأحمد الله على ألطافه الذي كتب لي حياة جديدة بعد أن غشى اليأس بصيرتي وزج بي في براثن الانتحار.

وذهل إياد وهو يستقبل اعترافات إيهاب المبهمة، وأصاخ السمع وكأنه ينصت إلى خرير جدول ما فتئ أن استعاد حيويته بعد زخة مطر

سخية. وهزه بعنف اعتراف إيهاب الأخير وهو يتكلم بنبرة متكسرة وقد خنق صوته النحيب:

– حقيقتي ستصدمك بلا ريب، كما صدمتني. فأنا بلا مقدمات ابن بسام وجدي كاظم.

وحملق إياد في وجه إيهاب متحيرا لا يكاد يصدق ما سمعت أذناه، لكن إيهاب أضاف كمن يرغب في مسح سحابة الضباب التي غشت عيني إياد:

– إنها حقيقة لا تصدق لكنها الحقيقة التي أطارت النوم من جفوني لشهور وجعلتني أهيم على وجهي كمعتوه من سوريا إلى العراق ومن تركيا إلى المغرب.

– أما أنا فقد صدقتك، وصدقني إذا قلت لك أن إحساسا خفيا كان يحدثني بأنك تخفي عني سرا عظيما في صدرك.. وكنت كلما لمحتك تعتريني دهشة تهتز لها أعطافي من الأعماق، وقد أثارني هذا الشبه المثير بينك وبين بسام منذ التقيتك بالمطار حتى أنني فكرت يوما وقلت في نفسي ترى أيكون بسام قد تعرض في شبابه إلى عملية استنساخ ماكرة دون أن يدري؟ لكن قل لي من تكون أمك؟

– أنت تعرفها بلا شك، فهي المرأة التي لم يدم زواجها من بسام (أبي) سوى شهر واحد..

وطفقت الأسئلة تتناسل من لسان إياد وإيهاب يجيبه باقتضاب وكأنه يخشى أن ينفلت منه لسانه وينفك من عقاله فيصب في آذان إياد دفعة واحدة حكايته الشائكة الطويلة، منذ تزوجت أمه من أبيه السوري إلى أن وطأت قدماه وطنه الأصلي العراق، في جولة محمومة وهو يبحث عن أثر أبيه بسام الذي ما فتئ أن غادر دمشق متوجها إلى بغداد. وأمسك إيهاب فجأة عن الكلام وهو يتطلع ناحية الشبابيك، وشعر إياد كأنه غطس بغتة في لجة نهر من حميم من أثر الأخبار

الصادمة التي نثرها إيهاب فوق رأسه كالحمم. وعاد إياد ثانية إلى طرح سؤال ألح عليه منذ البداية ولم يجد السبيل إلى طرحه في خضم حديث إيهاب المتدفق. فقال له وخرجت الكلمات متكسرة من جوفه المبحوح:

- هل حدثتك سيمون بحقيقة مها؟

ونظر إيهاب مليا في عيني إياد وقال له بعد لأي:

- نعم، يبدو أن القدر أراد أن يلقي بها تكرما في طريقي وكأنه أشفق علي من طول انتظار بسام، فأرادني أن ألتقي هذه الفتاة التي ستفك لي حتما طلاسم حياة بسام في غيابه.

وقرأ إياد هذا العزم الخفي في عيني إيهاب الذي أربكه، واستشعر من حديثه العفوي أنه سيسعى وراء هذه الفتاة للتقرب منها كي يسمع منها ما خفى عنه من تفاصيل في حياة أبيه الجديد. واستفاق إياد من هذيانه ومناجاته على حديث إيهاب وهو يقول مستفسرا:

- صحيح أنها تعمل بوزارة الخارجية؟

- نعم..

ثم أضاف إياد وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ذات معنى:

- يبدو أن سيمون قد زودتك بكافة المعلومات اللازمة.

فضحك إيهاب لتعقيب إياد ثم قال له وهو يتأهب للوقوف:

- يجب أن نغادر الحانة، لقد تأخرنا..

وافترقا قبالة محطة القطار على موعد اللقاء غدا في حدود الساعة العاشرة صباحا. وسار إياد مشيا على الأقدام هائما يغذ السير نحو بيته، تنهبه الهواجس، وتقض مضجعه الوساوس، وتدور في رأسه الأفكار كناعورة في جوف نهر يجرفها هدير التيار. وعرج في تؤدة على الحارة حيث شقته، فإذا بصوت جاره يبادره بالتحية ويقول له ضاحكا:

- استعد لمقابلة ضيوف، إنهم في انتظارك على عتبة البيت.

وجال في خاطره أكثر من وجه، وأراد أن يستفسر من الجار عن هوية الضيف لكنه أدرك أنه سؤال ساذج، فكيف للجار أن يتعرف على هوية ضيوف يجهلهم؟ وشكر الجار ثم أسرع الخطى نحو باب بيته وهو يترقب. ودهش أيما دهشة وهو يرمق عن كثب قامة بسام المديدة وشعره الفضي اللامع وتوكئه على العصا، عصاه القديمة التي لم يشأ أن يستبدلها بخيزرانة أجمل وأرقى كان قد أهداه إياها أحد الأصدقاء. وتذكر إياد وهو يدنو من عتبة بيته أنه سأله يوما عن سر تشبثه بهذه العصا رغم قدمها وتآكلها فكان أن قال له ضاحكا:

- «هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى».

وها هو ذا الآن يتوكأ عليها وقد ازدادت قدما وتآكلا وينتظر في أناة قدوم صاحبه إياد. وباغته إياد من الخلف وهو يقول له مبتسما:

- أردت أن تفاجئني لكني علمت بمقدمك من أحد الجيران.

- وكيف عرفني وأنا لا أعرفه؟

- هو أيضا لا يعرفك.. هو أخبرني فقط بأن ضيوفا ما في انتظاري. وجالت بخاطري كثير من الوجوه العزيزة، لكن، صدقني، لم أكن أتوقع أن تكون أنت بينهم. فقد استبعدت الأمر لأنك عودتني على ملاقاتك في المطار. لكن يبدو أنك غيرت بعضا من عاداتك.

- أردت أن أفاجئك ليس إلا.

ورنت كلمة «أفاجئك» في أذني إياد كناقوس خطر، وتذكر أن مفاجآت أليمة تنتظر بسام بعد لحظات. ثم استغرب لهذه المصادفة الفريدة التي أتت ببسام في هذا اليوم بالذات، وكيف أنه قبل ساعة فقط كان يتمنى حضوره بجانبه كي يعفيه من مسؤوليات شتى. وهو الآن محاصر بمآزق شتى لا مفر له من السقوط في شركها. واستحضر

فجأة وجه مها طريحة الفراش ووجه إيهاب الذي لا يدري أي يد بعثت به من أرض الشام وقذفت به بغتة في ربوع المغرب. مفارقتان عجيبتان أذهلتاه وجعلتاه يهيم في ملكوت أفكاره المشوشة ويتساءل ألف سؤال فيرتد إليه الصدى دون أن يفصح عن جواب شاف. واستغرب من عجلة القدر الماكرة التي عجنت كل هذه الأحداث المثيرة دفعة واحدة وقذفت بها في وجه بسام العائد لتوه من المهجر. ووجد نفسه داخل بيته يتكلف الابتسام في وجه بسام ويعد وجبة العشاء بحركات مضطربة واضحة حتى أن صحناً وقع من بين يديه مخلّفا رنينا متواترا جعل بسام يقفز من أريكته ويتوجه توا إلى المطبخ. وهاله مشهد الصحن وهو يدور ويدور في حركة بديعة ثم يتوقف فجأة ويستقيم على الأرض دون أن يتكسر. واستغرب إياد الأمر، ذلك أن الصحن أفلت من يديه من أعلى رف بخزانة الأواني الجدارية، وانتابه شعور غريب بالتفاؤل من مشهد الصحن الذي أفلت بأعجوبة من مصير محتوم، فابتسم لإراديا في وجه بسام وهو يقول له:

- هكذا يحدث لنا أيضا في الحياة.. ننجو أحيانا من الموت بأعجوبة ويكتب لنا عمر جديد بعد حدث مريع.

ولاحظ بسام في غمرة الحديث والضحك واجترار ما مر معه من ذكريات وما عاشه في الإمارات أن حالة من الانفعال المكبوت تكتسح نظرات وحركات صديقه، وأراد أن يستفسره عن الأمر فوجد إياد يقول له وكأنه أدرك أن ملامحه فضحته:

- كيف وجدت العمل هناك، وكيف هم أهل الإمارات؟

- كل شيء على ما يرام، وقد كنت محظوظا حين أكرمتني الأيام بثلة من الأصدقاء الأعزاء الذين لن أنسى ودهم وكرمهم.

ثم أطرق فجأة وأمسك عن الحديث وهو ينظر مليا في عيني إياد. واستشعر هذا الأخير تضايقا من نظرات بسام المسهمة نحوه، فاستدار

ناحية التلفاز يبحث عن آلة التحويل، إلا أن بسام أدرك بحس خفي أن أمرا مريبا يخفيه عنه إياد، بيد أن حركاته ونظراته تكشف وتعري المستور، كمويجات بحر هادئ في حالة جزر تأبى إلا أن تتراجع بشكل رتيب مخلفة وراءها الحصى والأصداف وأعشاب البحر البرية. واستقبل إياد نظرات بسام بكثير من الريبة والتوجس واستشعر أن لحظة الحقيقة دنت وأنه مهما هرب وأطال ومدد ومطط في عمر الهروب فهي لا محالة مكشوفة، بل إن عليه أن يخبره بالحقيقة حتى يتسنى له القيام بالواجب. وجاء سؤال بسام مباشرا، لا يلفه غبار وهو يقول:

- أنت مو على بعضك، شاكو ماكو؟

وتريث إياد قبل أن ينبس بالجملة الأولى ثم اندفع دون تردد إلى الإفصاح عما يجيش في صدره وكأنه رغب فجأة في التخلص من عبء أثقل كاهله وأرهق جوانحه، فألفى نفسه يقول:

- أنا لا أتقن لعبة الكتمان، فعيناي ويداي تفضحنني يا صديقي، أليس كذلك؟

واهتز بسام هزة عنيفة وهو يقرأ في عيني صاحبه خبرا مشؤوما أو أمرا جللا حدث في غيابه، واضطربت نفسه أيما اضطراب وهو ينتظر تتمة الحديث والإفصاح:

- لقد عجبت غاية العجب لهذه الأقدار المثيرة التي أتت بك في هذا اليوم بالذات.

- ما الأمر؟ لقد قطعت نياط قلبي،

- ما الذي جرى وحدث في غيابي؟

- الذي جرى أنك غبت وحصل مكروه لبعض الأحبة.

- هل توفي أحدهم؟

- لا، ليس في الأمر وفاة، لقد أصيبت مها في حادثة سير وهي اليوم في المستشفى، ما فتئت تستيقظ من غيبوبتها.

- كيف حدث ذلك؟

- صادفت مظاهرة بالشارع الكبير، وكانت تفر مع الفارين.. ويبدو أن سائقا مجنونا لم يتمكن من التحكم في مقود سيارته فاصطدم بها بعد أن ارتطم بقوة بعمود كهرباء..

وجفل بسام وهو يستقبل الخبر المداهم فجفل الدم من وجنتيه، ولفت به الدنيا كعاصفة رملية في قلب الصحراء، وعاد به الزمن إلى الوراء فكرّت أمام عينيه على عجلة مجنونة عشرون سنة، وتراءى له مشهد مظاهرة بغداد الصاخبة التي أودت به إلى غياهب السجون. أيكون التاريخ الماكر يعيد نفسه في دورة بوهيمية ويلقي بالبعض في براثن السجون والبعض الآخر في قبضة المنون وآخرين في المشافي مبهمة مصائرهم لا هم بالأحياء ولا الأموات؟ وانسابت أمام ناظريه مشاهد كان قد طواها النسيان، فتمثل لعينيه مشهد امرأة مغلوبة على أمرها فقدت طفلها في خضم الهرب المحموم للمتظاهرين وهم يفرون بلا وجهة من طلقات رصاص مجنونة وكلاب بوليسية مسعورة مدربة على نهش أجساد البشر.. واقتعدت الثرى وسط الطريق العام غير عابئة بمئات الفارين ولا بجحافل المطارِدين وقد أطار الغضب منديل رأسها وانتفش شعرها، وفي حالة هستيرية أخذت تردد بلا كلل «وين رحت يا ولدي؟ وين رحت يا فلذة كبدي.. يا نور عيني..؟».

وبدا بسام في عيني إياد يحلق في ملكوت يكتسحه الضباب، بعيدا، نائيا، كطائر يتيم تاه عن السرب بعد أن قذفته بغتة عاصفة هوجاء إلى جزيرة مهجورة. ودنا منه مشفقا وهو يردد على مسامعه بصوت واهن:

- هل أنت بخير؟

وارتد إليه السؤال كتكسر موج وئيد وهو يرمق صمت بسام المديد. وتخايل لعينيه وهو يستبق الأحداث حال بسام البئيسة حين

سيعلم بالشطر الثاني من الخبر المعلوم. وتساءل في دخيلته كيف له أن يحدثه بالأمر وهو في حالة من الحزن واليأس الشديد، وتمنى كما لم يتمن من قبل أن يعفيه القدر من الخوض في مأزق جديد ويريحه من تجشم تعب الحكاية وما تتطلبه من حسن التمهيد والقدرة على التهوين. إلا أن تساؤل بسام الجديد جعل إياد يهتز من الأعماق وهو يسمع صديقه يقول بشيء من الإصرار:

– لكنك لم تخبرني كيف علمت بالأمر؟ ومن أوصل مها إلى المستشفى؟

فارتبك إياد ورفع عينيه محملقا في سقف البهو وكأنه يستغيث به من رهبة السؤال، ثم فكر ودبر فوجد نفسه يقول له على التو متظاهرا بالهدوء وسكينة البال:

– يبدو أن أحد الأصدقاء تعرف عليها صدفة داخل المستشفى فاتصل بي هاتفيا يعلمني بالأمر لأنه كان يعلم بسفرك.

– ومن يكون هذا الصديق؟

وتطايرت الأسماء كالشظايا من مخيلة إياد ولم يسعفه لسانه على النطق بأي اسم، فقال مداريا ارتباكه الشديد:

– الحقيقة أنني لا أتذكر اسمه بالتحديد، لكني أعرف ملامحه فقط، وهو يعرف أننا أصدقاء قدامى.. أعتقد أنني نشرت له يوما ما مقالا في الجريدة التي أشتغل مراسلا لها..

ورد بسام مؤمنا على كلام صديقه:

– الخبر المشؤوم يجد دائما طريقه السريع إلى أسماعنا ولو نكون في آخر الدنيا.

وتنفس إياد الصعداء بعد أن أفلت من مأزقه بكذبة بيضاء. وفي صبيحة الغد التقى بسام وإياد بجوار غرفة مها بالمشفى، فوجدا عشرات النساء يحطن بامرأة عجوز تضحك وتبكي في آن، فتأكد

بسام أنها خالة مها التي يراها لأول مرة في حياته. ثم لمح رجلين وقد أسندا ظهريهما للجدار على مقربة من حلقة النسوة، فدنا منهما بسام رفقة إياد وسألهما إن كانا من أقرباء مها فأفصح أحدهما عن هويته قائلا بأنه زوج خالتها وأنه في مقام والدها، ورد الآخر مرتبكا وهو يقول بأنه أحد معارفها. ونظر إليه إياد نظرة متوجسة وأوعز له خلسة بغمزة خفية أن ينزل إلى حديقة المستشفى. وفجأة ترك إياد بسام معتذرا منه لقضاء حاجته. وبعد ثوان معدودة انسحب على أثره الرجل الآخر تاركين بسام جنبا إلى جنب رفقة زوج خالة مها. وفي أقل من خمس دقائق وقف إيهاب وجها لوجه أمام إياد وسمعه يقول له بعد تردد:

- يبدو أن القدر أراد أن يعفيك من تعب الانتظار الطويل..

- ماذا تقصد؟ هل حصل لمها مكروه؟

- لا، أبدا، إنها بخير، ما أود أن أقوله لك...

وتلعثم لسانه وارتسمت في عينيه علامات الوجل، وأراد أن يتم حديثه فانقطع عنه حبل الكلام، فأردف إيهاب قائلا وقد انتابته الدهشة من أمر صديقه:

- ما الأمر يا صديقي؟ أفصح، رجاء، ولا تصب الزيت بصمتك على النار.

واسترجع إياد بعض جأشه وتنحنح قليلا ثم قال:

- ما أود أن أقوله لك هو أن القدر أتاك فجأة وعلى حين غرة بالرجل الذي جئت تبحث عنه، وقطعت من أجله القارات والبحار.

وفغر إيهاب فاه كأنه تلقى خبرا كان يحسبه قبل أيام من رابع المستحيلات. وها هي ذي الأقدار تأتيه دفعة واحدة بأبيه وصديقة أبيه. إلا أن إياد ترجاه أن يرجئ الحديث إلى والده إلى حين مغادرة المستشفى، تلافيا لأي اصطدام غير متوقع أو ردود أفعال مفاجئة.

ثم صعدا ثانية إلى حيث غرفة العناية المركزة فوجدا زمرة النساء قد تفرقت ولم تبق سوى خالة مها وزوجها، وتمنى بسام لو أن الغرفة شاغرة كي يتمكن من رؤية مها عن كثب في منأى عن تلصص النظرات واستراق السمع. واتجه إياد بنظراته صوب إيهاب، فألفاه مطرقا يختلس النظر إلى بسام، وفجأة دنا منه كأنه يرغب في مصافحته، وتوقع إياد أن يحدث ما حاول جاهدا أن يحول دون وقوعه، فباغته إيهاب وهو يطرح سؤاله غير المتوقع بكل هدوء على بسام:

- كأني رأيتك في مكان ما.

- نعم؟

- يبدو لي أنني رأيتك قبل الآن، ملامحك ليست غريبة عني.

- أما أنا فلا أتذكر أنني رأيتك قبل اللحظة، لكن يبدو لي أنك لست مغربيا.

- صدقت، أنا سوري، وإياد صديق قديم لأبي.

- كيف؟

- تصادقا في بغداد أيام شبابهما.

- جميل، صدفة سعيدة..

ونظر إياد إليهما في ترقب، وتساءل إن كان إيهاب صادقا في تساؤله أم أنه فقط ابتدع طريقة ذكية ليمهد سبل الحديث مع بسام، فوجد نفسه يوجه سؤاله عفويا إلى إيهاب:

- هل رأيته فعلا في مكان ما أم فقط شبّه لك؟

وانتفض إيهاب من مكانه كأنما إياد بسؤاله صوب ضوءا ساطعا على ركن ما في الذاكرة كانت تسيجه العتمة والضباب، فقال لإياد وقد انفرجت أساريره:

- الآن تذكرت، كان ذلك قبل سنتين في دمشق، أليس كذلك سيدي؟

- نعم، كنت في دمشق منذ سنتين، لكن أين رأيتني بالذات؟

- جئتَ لتشارك بدور قصير في مسلسل تاريخي عن سوريا، وكنت أنا مساعد المخرج، هل تذكرني؟

- كان هناك تقنيون شباب كثر يساعدون المخرج في عملية الإخراج، لكن ذاكرتي لم تسعفني على تذكر ملامحك.

«أما أنا فأتذكرك جيدا ولن أنسى قط حظي العاثر معك.. فقد أفلت من يدي كطائر كان في قفص ملكي وأفلت فجأة بعد أن فتح دون إرادتي باب القفص.. لو تعرف أي متاعب تجشمت من أجل الوصول إليك.. لقد جبت العراق من غربه إلى وسطه ومن وسطه إلى شماله وأنا في بحث محموم عنك.. أنت لا تعرف الآن شيئا وأخشى ألا تصدقني حين تعلم بحقيقتي المثيرة. لقد تركت عملي من أجلك، وتركت وطني من أجلك، وتركت كل الدنيا ورائي وجئت ألهث كالمجنون وراءك..».

وفجأة فتح باب الغرفة وانسحب منه آخر الزوار خلف طبيب كان على ما يبدو يشرح لهم حالة مها الدقيقة. ووجد ثلاثتهم الفرصة سانحة لولوج الغرفة وزيارة المصابة. إلا أن الممرضة اعترضت طريقهم بقولها:

- إن المصابة نائمة، لقد أعطيتها منوما ولا تستطيع رؤيتكم ولا الحديث إليكم.

فتوسل إليها بسام أن تسمح لهم بإلقاء نظرة فقط على عجل، فوقفوا كنوارس بحرية تودع آخر خيوط شمس المساء يحفون بسرير مها. واتجه بسام نحوها مباشرة وألقى نظرة ساهمة على جسدها الهامد فوق السرير. وانتابته رهبة بليغة وهو ينظر إليها نائمة لأول مرة في حياته. ودنا منها أكثر وانحنى على رأسها وقبّل جبينها دون أن يكترث لنظرات صديقه إياد ولا لصديق صديقه. وظل الصديقان جامدين

ينظران بأسى إلى الجسد المسجى المربوط إلى أسلاك الأوكسجين وقارورة المقوي.. وألقى إياد نظرة خاطفة إلى وجه بسام فإذا بدمعتين تنحدران في هدوء من مآقيه.. وضج خاطره بحديث صامت وكأنه يخاطب بسام بلغة مليئة باللوم والتقريع، وخيل إليه أنه يقف أمامه ويقذف في وجهه بكلمات متشنجة ويقول له مؤنبا: «**فيم ينفع الحزن الآن يا صديقي بعد أن ألقيت بها جزافا في بحر الأحزان الجارف؟ أنت إما مجنون أو ترغب حتما أن تجرفها إلى شط الجنون.. والأمر سيان الآن، فقد تدخل القدر مستعملا قبضته القوية، وهي الآن غارقة في سبات عميق كبئر بلا قرار، وكأن القدر شاء أن يرد لك الصاع صاعين، وقايضك بهربك هذا الصمت المريب الذي لا يبدو له آخر..**»

وانتبه إياد من سهومه فوجد بسام قد اقتعد مؤخرة السرير وكفيه على خده وقد ولاهما ظهره. فأدرك إياد أن عليه أن ينسحب لبعض الوقت من الغرفة فأشار لإيهاب بضرورة الانسحاب. إلا أن إيهاب ارتأى أن يغادرا المستشفى وينزلا إلى الساحة المقابلة للبوابة الرئيسية لأخذ قسط من الراحة بعد أن استنزف العياء جهده من جراء تعب يومين مشحونين بأحداث متلاحقة ومتزامنة لم تكن تخطر له ببال. وكأن المصائب تأبى أن تأتي فرادى. ولم يكد يستوي في جلسته على دكة حجرية تحفها الأشجار حتى أعاد إياد على مسمعه سؤاله السابق:

- صحيح أنه سبق لك أن رأيت بسام في سوريا؟

- هذه مصادفة أخرى عجيبة، أليس كذلك؟

- والله أمر هذه الدنيا عجيب..

- أنا لم أحدثك عن قصتي المثيرة مع بسام «والدي الجديد» لأنني في الأصل كنت أخفي عنك سبب مجيئي إلى المغرب، وقد جاءت اللحظة المناسبة لأحكي لك بعض مأساتي وأنا أبحث عبثا عن أبي الحقيقي. نعم، كانت أول مرة أراه فيها يوم حضر لأداء

دور سينمائي في مسلسل تاريخي كان يعده مخرج سوري آنذاك، وكنت أنا مساعده الأول. ولم أكن أعلم وقتها أن الذي أمامي هو والدي الحقيقي. وعشت طيلة شبابي في كنف عائلتي الصغيرة التي لا يزيد عدد أفرادها عن ثلاثة: أمي العراقية وأبي السوري وأنا ابنهما الوحيد. وكان والدي من أثرياء دمشق، وعشت مدللا، مترفا، أنعم في بحبوحة من الغنى المادي والمعنوي، بحيث كان كل من أبي وأمي يغدقان علي من حبهما بشكل نادر، ولن أستطيع أن أوفيهما حقهما ولو قضيت العمر كله أسعى إلى ذلك. وجاء أجل والدتي المحتوم بعد أن فتك بها داء السرطان العضال، إلا أن مصيبة الموت جاءت مسربلة بزلزال رهيب هزني بعنف شديد، ذلك أن والدتي أفضت لي بالسر الدفين قبل وفاتها بيومين وتركتني أتحرق على جمر من لظى وأتجرع مرارة أمرين فظيعين: مرارة موت الأم ومرارة اكتشاف أب آخر حقيقي. وصارعت في تلك الأيام هاتين الصدمتين بقلب فارغ مهزوز، وأحسستني كقطعة من مطاط يتقاذفها الموج من كل صوب. وانهزمت أمام نفسي الضعيفة الأمارة، ونجوت من الانتحار بمعجزة. واستفقت من هذه النكبة القوية وأنا عازم أن أجوب الدنيا بأسرها من أجل لقاء أبي. واكتشفت بأسى بليغ أنه كان على مقربة مني قبل أيام قلائل في استوديو التصوير بدمشق وأفلت مني لحاجة في نفس القدر. وكأن القدر شاء أن..

– وكأن القدر شاء أن يلعب معك لعبة «من جدّ وجد»، أردف إياد.

– نعم، هكذا كانت لعبة القدر.. إلا أنه ورغم ما عانيت وقاسيت في رحلة البحث الأبيدة فلن أنكر أنها كانت لي بمثابة رحلة استكشافية اكتشفت خلالها وعلى حين غرة وطني الأصلي وأرض أجدادي، أنا الذي كنت أعتقد أنني ابن مخضرم من أم عراقية وأب سوري، فإذا

بي ابن عراقي قح من بلاد الرافدين وأرض النهرين.

- لا شك أن رحلتك انكشفت لك على مفاجآت عجيبة..

وقبل أن ينخرط في سرد تفاصيل رحلته المثيرة شخصت عيناه في قامة بسام الخارج لتوه من بوابة المستشفى الرئيسية، مطأطأ الرأس، كسيف البال. ووجد نفسه يشير بسبابته لإياد وهو يهمس له:

- ها هو صديقك بسام يغادر المستشفى..

فنهض إياد ولوح لبسام بكلتا يديه وهو على حافة الرصيف المقابل لبوابة المشفى. وقبل أن يدنو منهما، استأذن إيهاب إياد، ومد يدا مرتعشة لتوديعه فدهش إياد لموقفه، إلا أنه رغب عن إرغامه على المكوث أو حتى تحميسه على مشاركته قهوة المساء برفقة بسام. واستشعر بشكل خفي اضطراب إيهاب ورغبته الملحة في الانفراد بنفسه والإنصات إلى دبيب أحاديثه الداخلية وأحاسيسه المضطرمة، لكنه قال له وهو يودعه:

- لا تنسَ أنك فتحت شهيتي على تفاصيل رحلتك الفريدة إلى العراق، فأنا في شوق لسماع ما تبقى من أشواطها.

فردّ عليه إيهاب وقد افترت شفتاه عن ابتسامة حزينة:

- للحديث بقية يا صديقي، اطمئن، سأكمل لك القصة لاحقا في أمسية قريبة إن شاء الله.

الحوَل..

لو كنت أدري أني مصاب

بداء الحوَل ما كنتُ لأتعقب آثار الوهم

ولكنتُ حجبت عيني بنظارة سوداء،

سوداء جدا، تقيني سهام النظرات الشزراء

أو حتى نظرة حانية تتسربل

بالإشفاق

وأقبل مساء الغد ووجد بسام نفسه خارجا من بيت صديقه كالمتسلل. فهو لم يرغب في أن يحدثه بأمر زيارته لمها في المستشفى وكأنه يود أن ينفرد بها لوحده ويتأملها بمفرده، هو الذي كان لا يألو جهدا فيما مضى كي يحول دون لقائها ولو صدفة بأصدقائه، بل ويحصنها حتى من نظراتهم المشرئبة والمتطلعة إلى معرفة ما يخفيه عنهم. وسار في الطريق مضطربا يتلفت كأنه في موقف مشبوه، ولم يكد يستقل سيارة أجرة صغيرة حتى تنفس الصعداء وكأنه كان يخشى أن يضبط في أمر متلبسا. وحين وصل إلى المستشفى اتجه توا صوب المصعد. ويبدو أن القدر كان يتربص به ويتسلل إليه كتسلله خلسة من بيت صديقه، فأراد أن يخصه بمفرده ولوحده بمفاجأة صادمة كادت تحبس أنفاسه حين اشرأب من باب غرفة مها المفتوح على مصراعيه ووجد سريرها شاغرا. وكان هذا المشهد غير المتوقع من طرفه كافيا بأن يفقده توازنه، فاضطرب أيما اضطراب وغامت الدنيا في عينيه. وحين همّ بمغادرة الغرفة كادت تسقط العصا من بين يديه، وارتبك في مشيته وهو ينظر بلا وجهة إلى كل العابرين ولا يرى أحدا على الإطلاق. وأنقذه القدر سريعا من هذه الرجة القوية التي هزته من الأعماق حين مرقت بجانبه ممرضة الطابق فهرول نحوها وسألها بلهفة عن سبب مغادرة مها لغرفتها، وكان جوابها بردا وسلاما عليه حين طمأنته بقولها:

– اطمئن، إنها بخير، لقد اجتازت مرحلة الخطر، ولهذا نقلناها إلى الطابق الثاني لأنها لم تعد في حاجة إلى العناية المركزة.

– أشكرك كثيرا على هذا الخبر السعيد.

– هل هي قريبتك؟

- تقريبا.

ونظرت إليه الممرضة نظرة متحيرة لكنها أردفت قائلة:

- يبدو أن قريبتك قوية وتحب الحياة ولهذا فقد تجاوبت بسرعة مع الأدوية، واستعادت اليوم بعض إحساسها، فقد فتحت عينيها ولو لبرهة وحركت أناملها وأصابع رجليها..

- الفضل لكم.. لكم الشكر الجزيل.

وبينما هو في الطابق الثاني وعلى بعد أمتار فقط من غرفة مها شد انتباهه خروج شخص مجهول من الغرفة يحمل نظارة سوداء، إلا أنه لم يتبين ملامحه جيدا لأنه كان يوليه ظهره ويسرع الخطى نحو السلالم. وحين دخل بسام غرفتها فوجئ بوجود شاب في مقتبل العمر جنب سريرها. وابتسم له الشاب ابتسامة ترحيب ورد على تحيته وقد تلبسه الارتباك. إلا أن الشاب بادر بسؤاله قائلا بنبرة دافئة:

- هل حضرتك أحد أقاربها؟

- بلى، أنا أحد معارفها، ومن تكون أنت؟

- أنا ابن الجيران.. لقد فتحت عيني منذ طفولتي الأولى على وجه مها الصبوح، وكانت بالنسبة لي بمثابة خالة ودودة وعطوفة وكريمة، وكانت تدللني بقطع الحلوى والبسكوت وتناولني قطع النقود.. أمي تحبها كثيرا وأنا أعتبرها بمثابة خالة حقيقية.

والتفت بسام صوب المائدة الصغيرة الملتصقة بالسرير فلفت انتباهه وجود باقة ورد جميلة فوقها، ثم استدار بخفة ناحية الشاب فوجد نفسه يقول له:

- هل أنت من حمل لها هذه الباقة من الورد؟

لا، أبدا، يبدو أن ذلك الرجل الذي خرج توا من غرفتها هو من جلبها لها.

- ومن يكون ذلك الرجل؟

- لا أعرفه، لكنه قال لي إنه أحد معارفها.. وقد انسحب من الغرفة بمجرد أن دخلتها، وبعده مباشرة جئت أنت حتى اعتقدت أنه هو عاد ثانية.

وذهل بسام من حديث الفتى وتعجب من أمر الرجل المنصرف توا وهو يحمل نظارة سوداء في عز المساء، بيد أن الليل أسدل جفونه على الفضاء داخل وخارج المستشفى. ولم يشأ بسام أن يدع هواجسه وتساؤلاته المتواترة تستحوذ عليه فقال للشاب الذي بدا له عفويا، صادقا وعلى سجيته:

- ماذا تعمل؟

وتبسم الفتى من سؤال بسام وقال له بنبرة أسيفة:

- عملي هو أنني أبحث عن عمل منذ أربع سنوات، حصلت على الإجازة في العلوم ولم تسمح لي ظروفي المادية بمتابعة دراستي العليا لا داخل ولا خارج المغرب، فوجدت أمامي منفذا وحيدا هو الانخراط في جمعية المعطلين من الحاصلين على الشواهد العليا ثم النضال من أجل الحصول على عمل شريف ولائق يمكنني من العيش الكريم أنا ووالدتي التي قاست الأمرين من أجل تربيتي وتعليمي. وبالمناسبة فقد كنت ضمن المشاركين في المظاهرة الصاخبة التي عرفتها العاصمة هذه الأيام والتي تعرضت فيها مها لهذا الحادث المروع.

- أمر غريب.. وهل أنت من أوصلها إلى المستشفى؟

- لا، أبدا، يبدو أن أحد معارفها كان بجوارها ساعة الحادث، وهو الذي تكفل بإغاثتها.. كان يوما فظيعا سقط فيه عشرات الجرحى وتعرض الكثير للضرب المبرح، وقد أفلت من ضربة قاضية بقدرة قادر وإلا لكنت قضيت، أو في أحسن الأحوال كنت فقدت إحدى حواسي كما حصل مع صديقي الذي تلقى ضربة قوية في رأسه أفقدته حاسة السمع.. ولم تنته المأساة هنا، فقد أُسر صديقان آخران بتهمة

الإخلال بالأمن العام ولفظ صديق رابع أنفاسه في المستشفى إثر تعرضه لجرح بليغ في رأسه جعله ينزف في الشارع، ولم تصل سيارة الإسعاف إلا بعد تسويف وتماطل.. وحتى الذين وصلوا المستشفى بسرعة نسبية فقد عوملوا هناك كأنهم إرهابيون وخارجون عن القانون والطاعة.. إلا أن المأساة الكبرى بالنسبة لي لم تقف فيما حكيته لك وإنما تعدتها إلى حصول حالة انتحار في صفوف المتظاهرين، وقد كان المنتحر أحد أصدقائي الحميمين الذين أعتز بمعرفتهم، وهو صديق الطفولة وابن الجيران وبمثابة الأخ الذي لم تلده أمي. لقد كان حادث انتحاره بالنسبة لي صادما، قاسيا وفظيعا.. ويبدو أن المسكين لم يتحمل وضعه وما تعرضت له جماعة الأصدقاء من نكبات متتالية، وتمكن منه اليأس وأظلمت الدنيا في عينيه فوضع حدا لحياته بأن تناول سما قاتلا، فكان أن وجدته أمه نائما وما هو بالنائم فوق سريره وقد فار فوه برغوة كالزبد وغابت عيناه في البياض. وكان يوما مشهودا آلمني بشدة وحفر غورا في الأعماق. وحين علمت بحادث مها في ذلك اليوم المشؤوم استغربت حظها العاثر الذي جعلها تمر بالشارع الكبير في تلك اللحظات الحرجة بالذات، لكني أدركت أيضا أنه لا مفر لنا من يد القدر، ونسأل الله العفو والعافية.

كان بسام ينصت إلى هذا الشاب وقد شعر بما يشبه الدوار يلفه لفّا ويدور به في الفراغ، ثم يقذف به بما يملكه من جهد نحو العدم. هو نفس التاريخ اللعين يعيد نفسه.. لا شيء يتغير سوى المكان والزمان والأشخاص، أما النكبة فهي ذاتها تتسربل بشتى الألوان والأشكال مفرزة نفس الوقائع بلا رتوش. ولاحظ الفتى ذهول بسام الشديد وهمّ بتوديعه داعيا لمها بالشفاء العاجل.

ها أنت إذن وجها لوجه أمام المحبوبة النائمة ملء جفنيها وهي لا تحرك ساكنا كأنما انقذفت إلى عالم الأموات.. تنظر إليها

مشدوها، لا تكاد تصدق الذي حدث ولا كيف حدث ولا لماذا حدث.. يتمزق قلبك ألما وينكمش صدرك غما حين تذهب بك المخيلة بعيدا وتتخيل مها قد رحلت عنك وعن الدنيا إلى الأبد.. أمرك غريب يا بسام.. تتخلى عنها وتفر إلى بلد بعيد دون حتى أن تبرر لها سبب فرارك فتكاد تنساها في غمرة حياتك الجديدة هناك وفي خضم عملك والتزاماتك الكثيرة وصداقاتك المتجددة.. تتركها كغصن هش كسرته عاصفة هوجاء في ليلة ليلاء تذروه الرياح.. سنتان كاملتان بالتمام والكمال.. لا سؤال ولا خطاب ولا جواب ولا حتى نأمة تهز أعطاف وحدتها القاتلة ووحشتها الرهيبة.. تركتها كقطعة من جمر تتلظى وانصرفت عنها لبعض شؤونك.. وها أنت الآن تعود فتجدها غارقة في صمتها، نائمة نومة أهل الكهف وأنت تنتظر بكل لهفة استيقاظها وعودة الروح إليها.. ترى ما الذي تود قوله لها بعد كل هذا الغياب؟ ماذا تراك أنت فاعل إن هي استيقظت؟ وتمثلت لعينيه مبتسمة ترفل في ثوب شفاف من حرير وعيناها تكادان تنطقان من البهجة.. وأمسك بأعطاف ثوبها وطوق خصرها النحيف بيد مرتعشة وسار يهيم على وجهه مترنحا من النشوة.. وساقته قدماه الحالمتان إلى مخارج الرباط حيث الطريق منعطفة كثعبان.. ورفع عينيه إلى قمة الجبل المحفوف بغابة خضراء.. وتلفت إلى قبضة يده فإذا بأعطاف الثوب الحريري تنسل من بين أصابعه كما لو أنه يقبض على الماء، وأراد أن يدركها فإذا بمها تحلق بثوبها الشفاف كطائر أسطوري نحو قمة الجبل.. واستجمع قواه وألقى بعصاه في منحدر الجبل وأطلق ساقيه للريح.. وكلما تقدم في الصعود كلما ازداد الجبل ارتفاعا.. وتوقف لحظة مترددا، مرتبكا وقد انتابه شعور ماحق بأن الجبل مسحور وأنه يستميله بدهاء ليقذف به في جوف مغارة، واستطلعت عيناه رأس الجبل فإذا بمها تحدق إليه بثبات وطيف رجل خلفها يختبئ وراء

أعطاف ثوبها الحريري.. وشعر بسام بالحنق والغيظ من نفسه العاجزة على مجاراتها في رحلة الطيران البوهيمية ومن طيف ذلك الرجل الذي انبعث من العدم وطفق يتبعها كظلها وهي هائمة، سابحة في ملكوت السماوات.. وشده أكثر إصرارها على التحليق وإمعانها في الفرار بعيدا نحو أفق بلا مدى.. وهاله مشهد الجبل الذي تحول إلى جبل شامخ كأنه على سلاسل الأطلسي، وأمعن النظر إلى طبيعته الشائكة فشعر برهبة تشد أنفاسه.. ولم يتوان ولو لحظة واحدة عن التمسك بعزيمته على اللحاق بها ولو إلى أعلى قمة في السلسلة.. وتناهى إلى سمعه صدى نداء يشبه صوتها فناداها بأعلى صوته مرددا: «**سأبقي شبابيكي مفتوحة لاستقبال الذي يأتي ولا يأتي..**» وسعى بما يملك من جهد يستحث قواه الباطنية ويستمد منها طاقة إضافية تسعفه على الصعود رأسا نحو القمة، وبغتة هبت ريح قوية عاتية وطيرته كورقة ذابلة إبان الخريف إلى قمة القمم.. وانثال الرذاذ خفيفا ينعش وجهه وهو لا يدري مصدره.. لم يكن مصدر الرذاذ السماء وإنما كان صبيبه يتناثر في سخاء من أحد أطراف الجبل، وكان عليه أن يتقدم رويدا رويدا كي يكتشف بأم عينيه مصدر الرذاذ البارد، العذب، المنثال كمطر نيسان.. ولما أضحى محاذيا لحافة الجبل الشاهقة تبين له فج عميق يفرق جبلين شامخين، يغسلهما شلال متدفق ونهر يهدر أسفل الجبلين وقد غطاه الزبد الفضي، وقرص الشمس القرمزي يحرسه من السماء ويقرضه ذات اليمين وذات الشمال.. وتراءى له طيف مها وشبح رجل مجهول يتعقب أثرها وسط هدير النهر المجنون، واستغرب كونها لم تتوقف ولم تَرتَب من وعورة المكان ورهبة النهر الهادر، وود لو يتحول بقدرة قادر إلى نسر كاسر فينقض على ذلك الطيف الذي يسير خلفها في ثقة وتؤدة كأنه ظلها. وأعاده صوت رقيق إلى إدراكه يناديه بالانسحاب من الغرفة مؤذنا بانتهاء وقت الزيارة.

وخرج بسام من الغرفة كالممسوس بعد أن مسحها بنظرة مرتبكة. وبعد ساعة فقط كان إيهاب قد دخل بيته ونزع حذاءه ووضع نظارته السوداء فوق مائدة كبيرة تتوسط البهو، بعد أن قضى وقتا ليس بالقصير برفقة إياد يتحدث وإياه عن مفارقات القدر وغرائب المصادفات. وانصرف كل إلى بيته وقد قارب الليل نصفه. ودخل إياد بيته في وقت كان فيه بسام مستلقيا على ظهره يتأمل ذاته وأحواله بشيء من الغرابة والذهول وسط غرفة غارقة في الظلام. الستائر البنية مسدولة، وأضواء الشارع تتسلل إليه خلسة من وراء الخصاص، ونباح كلاب بعيد يحدث في رأسه ما يشبه فعل المطرقة والسندان. وتبدى له مشهد الجبل الشامخ بكل رهبته وجبروته فأيقن أنه عاش اليوم وهما من نوع آخر، فاقشعر بدنه وهو يستعيد اللقطات بشيء من الريبة والهلع. إنه الوهم إذن، وهم كبير يكبله ويقذف به في غياهب الدلسة والغموض دون أن يدري على وجه التحديد ما الذي ينتظره ولا إلى أين سيصل به المآل. هروب من الذات وحلم عريض بلا ضفاف بتحقيق ما يعز تحقيقه.. **والآن تعود ثانية إلى البلد الذي احتضنك بعد فرارك من سجن بابل، تفر منه إلى آخر الدنيا وتعود إليه ثانية وكأنك تصبو بإصرار إلى معاندة القدر وكبح فراملة. لكن القدر يرسم طريقه بأناة ويكون صادما أحيانا بمفاجآته غير المرتقبة، فينسكب صبيبه فوق رأسك كقطعة ثلج ضخمة تذوب على إثر لفحة شمس لهيبية.** وتذكر بسام فجأة تأخر إياد في عودته إلى المنزل، وإذا بصوت مفتاح يعالج ثقب الباب وضوء خافت يكتسح بهو البيت. فاستقام بسام جالسا في سريره ورمق إياد يدخل على رؤوس أصابعه إلى غرفته متحاشيا إحداث أدنى ضجيج قد يوقظ صديقه فجأة وهو يحسب أنه نائم في الغرفة الأخرى. وتبسم بسام في سره من مشهد الحيطة والحذر الذي بدا له من خلف الباب الموارب، وقام من فراشه وسار حافي القدمين

صوب غرفة صديقه المفتوح بابها على مصراعيه. واهتز إياد وجلا وهو يسمع خلفه صوت بسام:

- كنت أعتقدك نائما.

- ومن أين سيأتيني النوم وسط هذه الزوابع المباغتة؟

وتذكر إياد أن الزوبعة الحقيقية هي التي لم تصل بعد إلى مسامع بسام. وفكر مليا في الأمر ووجد أن عليه أن يخبره بحقيقة السر الأكبر خاصة عندما استشف من حديث إيهاب أنه لا يرغب أو بالأحرى لا يقدر على مفاتحة أبيه الجديد في الموضوع. ورأى إياد أنه من اللائق والمعقول أن يسعى كخيط أبيض بينهما ويمهد لهما سبل التواصل والتفاهم والتعايش مع الحقيقة الجديدة الصادمة. واختلطت الصور في ذهنه وتزاحمت الكلمات في حلقه، وقبل أن يبادر بفتح الموضوع وجد بسام يقول له:

- أين سهرت إلى هذه الساعة أيها العفريت الماكر؟

- كنت مع إيهاب.

- لقد فاجأني أمس حين أخبرني بأنه سبق له أن رآني في دمشق، بيد أنني لا أذكره جيدا.

- لقد شخت يا صديقي وشاخت ذاكرتك، وأخشى أن تمسي يوما وتصبح على ذاكرة جوفاء ممسوحة فتنساني.

- أصدقاء العمر لا يمكنني أن أنساهم إلا إذا أصيبت ذاكرتي بآفة الزهايمر، آنذاك فلا تلمني ولكن لُمِ القدر.

- نسأل الله اللطف في القضاء والقدر، وعلى ذكر كلمة قدر فهل تراك تتقبل مفاجآته العجيبة إذا ما داهمك يوما بحدث غير متوقع سارا كان أو كئيبا؟

- أظنك تعرف جوابي مسبقا على سؤالك الطارئ، فأنا لم أعد أخشى القدر بنفحاته ولفحاته بعدما قاسيته من تجربة السجن المرة

وغياب الأحبة.

– وإذا أغدق عليك القدر بمفاجأة غير مرتقبة ولا متوقعة، تراك ستستقبلها بابتسامة عريضة، بشوشا ومرحبا أم أنك ستجفل وتقطب الجبين مستنكرا مقدمها من حيث لا تدري وبلا أوان؟

واستقبل بسام حديث صديقه الملغز بكثير من الحيرة والترقب، فعقب قائلا:

– تبدو لي كلماتك غريبة وأكاد أشم منها رائحة مفاجأة تعدها لي الليلة ملفوفة كسندويتش سريع في كيس من ورق.

ونظر إليه إياد نظرة متوجسة فخفق قلبه وجلا كناقوس خطر، إلا أنه استجمع قواه وهيأ الكلمات المناسبة ليشرع بها حديث الليلة الشائك. فقال له بعد أن زمّ شفتيه وفتحهما على ارتعاشة خفيفة:

– لقد أصبت بحدسك، إني أخفي عنك مفاجأة أتمنى من صميم القلب أن تتقبلها بقلب جامد وأعصاب باردة.

– ما الأمر؟ خبرني.. شاكو ماكو؟

وارتبك إياد قبل أن ينبس، لكنه ألفى لسانه يقول:

– لقد تعرض إيهاب لاعتداء أول أمس.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، وهل هو بخير الآن؟

وطفق إياد يحكي ويسهب كأنه يهرب لاإراديا من الشروع في حديث صعب لا يعرف مسبقا كيف سيستقبله الطرف الآخر. وفغر بسام فاه وهو يستقبل حدثا لم يكن يتوقعه، لكنه تساءل في دخيلته بشيء من الحيرة: «**وماذا يربطني أنا شخصيا بالذي حدث وبالشخص الذي تعرض للحدث، علما أنني لا أكاد أعرفه وما فتئت أراه في المستشفى؟**» ثم وجد نفسه يقول لإياد بنبرة متسائلة يلفها الإبهام والغموض:

– لكن، قل لي، هل هذه هي المفاجأة التي كنت تعدني لسماعها

بقلب جامد وأعصاب باردة؟

وصل تساؤل بسام الفجائي كوخز إلى مسامع إياد فارتج من أعماقه كما لو أن مسا كهربائيا خضه، لكنه ابتسم في خاطره دون أن يدع تلك الابتسامة تنفرج من بين شفتيه حين تذكر نكتة صديقه المغربي الذي حدثه يوما عن الطريقة الطريفة التي أبلغ بها شخص ما خبر وفاة صديقه البنّاء إلى زوجته، ولم يجد بدا من أن يقول لها: «لقد سقطت طاقية أحمد من الطابق السابع» فردت عليه الزوجة مستغربة وقد استبلدت سذاجة الرجل: «وما الخطر في ذلك، فلتسقط»، فرد عليها مرتبكا: «للأسف، لقد كان بالطاقية أحمد».

وها هو ذا إذن يتبنى نفس الطريقة دون وعي منه كي يبلغ بسام بالخبر المعلوم. ولم يبق له إلا أن يختصر عليه الطريق والمشقة ويقول له دون مواربة «إن ما حدث لإيهاب لا يهم كثيرا رغم فظاعته بقدر ما يهم الشخص في حد ذاته».

وتحير بسام وهو يرقب صديقه سادرا، واجما كأنه يسبح في فلك بعيد، فقال له مستفهما:

– ما بك إياد؟ أجدك غريبا وعلى غير عادتك، تنطق بكلام مبهم، هل أنت سكران؟

وانتفض إياد من غفوته وسهومه كطائر ينفض ريشه من حبات الرذاذ ويفتح عينيه النائمتين على نسيم الصباح الخفيف، فقال وهو يطرد رياح التردد والارتباك من صدره:

– لست سكران يا صديقي، وإن بدوت لك مسربلا بغشاوة السكر فذلك من الأثر الشديد والوقع البليغ الذي أخشاه عليك حين تسمع المفاجأة.

– لقد فهمت قصدك، يبدو أن إيهاب أتى من سوريا محملا بخبر سيئ يعنيني، هل ترى أذناب السوء يطاردونني ويسعون لإيذائي

مجددا بعد أن فررت من قبضتهم وتحررت من سجونهم اللعينة؟

– لا، أبدا، ليس الأمر كما توقعت، لكن إيهاب أتى فعلا من سوريا محملا بخبر يعنيك لا أحسبه سيئا على أية حال.

– الحمد لله، فكل المصائب تهون إن ابتعدت عن دائرة السجون، فشر الأقدار أن يجد الإنسان ذاته مرميا ككلب أجرب في سجن حقير بلا تهمة ولا محاكمة. هات ما عندك يا صديقي ولا تتلكأ، وإلا ستضطرني للذهاب فورا والآن إلى بيت إيهاب.

ونظر إياد نظرة مرتبكة في الفراغ وأيقن أن أسلوب المراوغة وإن طال لن يزيد الأمر إلا إرباكا ولن يتسع صدر بسام لذلك، فقال بصوت خافت مضطرب وكأنه سيقذف بنفسه توا في جوف جب:

– إن إيهاب يقول إنه قريبك..

– كيف؟ لا أعرف أن لدي أقرباء في سوريا، وليكن، فهو قريبي من جهة الأب أو الأم؟

– إنه قريبك جدا..

– ماذا تقصد؟

– إن إيهاب يقول إنه ابنك الشرعي من زوجتك المطلقة..

وبهت بسام وهو يستقبل المفاجأة المثيرة التي سقطت على رأسه كقنبلة موقوتة، وأدرك جيدا لماذا تلكأ إياد كثيرا قبل أن يسرها إليه. وفاجأه وهو يردف قائلا:

– الحقيقة أنني حين استقبلته في المطار ورأيته لأول مرة شعرت بأن شبها قويا يجمعكما، إنه نسخة طبق الأصل منك حين كنت في مثل سنه. وكان قد أخبرني بمقدمه إلى المغرب هاتفيا معلنا أنه أحد أقاربك، لكني لم أتوقع قط أن تصل قرابته لك إلى درجة البنوة..

واختلطت الخيوط في مخيلة بسام واحتار في أن يصدق أو يكذب، إلا أن سوء ظنه والشك الذي سكنه منذ سنوات بعيدة وطبع

سلوكه كميسم على الجلد جعله يقول لإياد بدون تردد:

- أخشى أن يكون كاذبا ويود أن يستميل عطفي لحاجة في نفسه.

وخشي إياد أن يتمكن الشك من نفس بسام فيتعقد الموقف، وهو يدرك يقينا صدق إيهاب بعد أن سمع ورأى بالدليل القاطع دلائل اليقين وشواهد الإثبات التي لا تقبل الشك، فقال لبسام مؤكدا:

- لا تنأ بك الظنون بعيدا عن شط اليقين، وانظر إلى الأمور بالمنطق السليم. فإيهاب عاش مع أمه وأبيه السوري مترفا، وهو لا حاجة له إلى المال ولا إلى مساعدة أحد، ويكفي أنه اكترى فيلا رائعة بحي الليمون بمجرد مقدمه إلى المغرب. وله عمله الحر كمخرج سينمائي يؤهله للعيش الكريم، بالإضافة إلى حصوله على حصة إرث لا يستهان بها من مخلفات والدته المرحومة التي هي زوجتك السابقة.

- هل توفيت والدته؟

- نعم، وهي من أفضى إليه بالسر قبل أن تغمض عينيها، وقد ناولته رسائل كنت كتبتها لها إبان خطوبتكما، كما ناولته خاتم الزواج، بالإضافة إلى أنها كتبت له ولك بخط يدها الذي تعرفه جيدا اعترافا صريحا بأن إيهاب ابنك لأنها لم تشأ أن ترحل عن هذه الدنيا دون أن تخلص ضميرها من وزر حملته لوحدها طوال حياتها وأثقل كاهلها عمرا بأكمله.

ثم صمت إياد برهة وأضاف كما ليقطع سبل الشك بالحجة الدامغة أمام بسام، فقال له واثقا:

- إذا كان لديك شك في الأمر فالعلم يحسم في مثل هذه الأمور، وما عليكما إلا أن تجريا فحوصات طبية كي يطمئن قلبك وترتاح.

وأدرك بسام أن حديث صديقه إياد ينطوي على عقلانية ومنطق سليم لا ينجرف وراء تيار الانفعال أو الشكوك المتهاوية، فأمسك عن الكلام وتمثل لعينيه وجه إيهاب مقطبا. واستغرب من نفسه كونه

لم يكتشف من تلقاء ذاته ذلك الشبه المثير الناطق الذي يربطه به، ثم استحضر مشهد وقوف ثلاثتهم، هو وإياد وإيهاب على سرير مها وكيف أنه كان يسدد له نظرات دقيقة بدت له وقتها مبهمة ومفعمة في آن بشيء من الحنين الغامض. وأراد إياد أن يخرجه من دائرة التيه الذي استبد به فأضاف:

– لعل أغرب ما عشته مع إيهاب في غيابك هو إحجامه عن الاعتراف بطبيعة العلاقة الأسرية التي تربطه بك، واكتفى بأن قال إنه قريبك، لكني كنت أرى فيه بسام إبان شبابه بملامحه ونظراته بل حتى في طريقة مشيته وحركات يديه.. إنه أنت، سبحان الخالق.. والمثير للضحك أيضا أنني امتنعت عن تزويده بكل ما يتصل بك رغم إصراره على معرفة تفاصيل حياتك الخاصة، وقد كان يعلم أنك على علاقة بفتاة مغربية، لكنه لم يكن يعرف طبيعة العلاقة التي تربطك بها، وكم حاول جاهدا أن أزوده بمعلومات عنها، اسمها مثلا، عملها، سنها، مواصفاتها.. لكني تحاشيت الرد على أسئلته الكثيرة المتشابكة، وكنت أرى في إفشاء سر من أسرارك خيانة لك وللصداقة الحميمة التي ربطتنا طوال سنوات العمر المديدة. وهمس صوت من بين الحنايا يقول له مدغدغا: «**ولن تستطيع أن تقول لصديقك بسام أنك أخفيت صديقته مها عن أعين إيهاب لحاجة دفينة في نفسك**». وشاء القدر أن يلقى بها في طريقه في مصادفة غريبة، وقد تستغرب إذا قلت لك أنه هو من أوصلني إلى المستشفى في زيارتي الأولى لمها، أي بعد الحادثة مباشرة..

واندهش بسام وهو يتلقف تفاصيل الحدث العجيب، وأيقن أن القدر يلاعبه لعبة مثيرة ومربكة، ويخبئ له خلف سراديبه المظلمة المفاجآت تلو المفاجآت. ولم يدر إياد كيف حرك الحديث الشائك في أعماقه شجونا راكدة بدأت تتأجج في حضور بسام، فقال له وقد

استشعر شيئا من الغيظ يضغط على نفسه:

- لقد استغربت عودتك إلى المغرب في هذا الظرف الحرج بالذات، كيف فكرت بذلك ومن حفزك على العودة؟

- بكل بساطة اشتقت إلى المغرب وإليك وإلى مها.

- كيف اشتقت إلى مها بعد أن تخليت عنها طواعية ولم تكلف نفسك حتى عناء إخبارها بقرار سفرك؟

- أنت تعرف جيدا لماذا تصرفت بتلك الطريقة، وتعرف جيدا مدى صدق حبي لها.

- أمرك غريب يا صاحبي، لم أصادف قط رجلا بمثل منطقك، ترحل وتؤوب بمحض إرادتك، وتتوقع منها دائما العفو والصفح، وتتعامل معها كأنها إنسانة بلا ذاكرة أو بلا كرامة. ثم ها أنت الآن تتلهف وتتمنى من صميم الفؤاد أن تستيقظ معافاة وتعود إليك كما عهدتها.

- أتوقع ذلك لأنني على يقين تام أنها تحبني.

- ألا تعرف أن الجرح إذا غار يتحول معه الحب إلى كراهية وحقد؟

- لا أتوقع ذلك من مها.

- أما أنا فأتوقعه، وإذا خاب حدسي فسأحرضها عليك، صدقني.

- تحرضها علي؟ كيف؟ أنت تمزح.

- لست مازحا، بل أنا في كامل جديتي، ألا ترى معي أن مها كانت ضحية عبثك وتشبثك بالأوهام؟ ألا ترى معي أن هذه المسكينة مصابة بداء «الحَوَل العاطفي»؟

ولم يتمالك بسام نفسه فأطلق ضحكة مدوية شقت هدوء الليل، لكنه فوجئ بنبرة حديث إياد الصارمة وجديته الزائدة، فقال له مبتسما:

– لكن قل لي يا صديقي العزيز، ماذا تقصد «بالحول العاطفي؟».

ونظر إليه إياد نظرة تحدّ وقال له بنبرة أكثر جدية:

– الحول العاطفي يا صديقي يشبه إلى حد كبير «الحول السياسي»، فيخيل للمرء أنه عثر على حبيب وما هو بالحبيب، أو يعتقد جازما أنه اكتشف عدوا وما هو بالعدو، وهذا هو حالنا نحن العرب، نعيش وهما كبيرا ولا نكتشف حقيقته العارية إلا بعد فوات الأوان..

– مها إذن مصابة بداء الحول العاطفي وأنت من اكتشف هذا الداء وسماه، فهل لك أن تدلنا على دواء أيها الطبيب الماهر؟

وأفلتت ضحكة خافتة من شفتي إياد وقال لصديقه بعد لحظة صمت قصيرة:

– أنا لست طبيبا لأحد، وإذا كان للدواء أن يوجد فمها الوحيدة القادرة على جلبه، لقد عاشت عمرا طويلا تنتظر العدم وتدور كناعورة في دوامة الفراغ وهي وحدها القادرة على استيعاب التجربة واستخلاص العبرة منها، لأن العمر إن ولّى لن يعود.. صدقني، يا بسام، لقد ظلمتها وهي اكتوت بنيران غيابك مرتين ولا أظنها قادرة على إعادة التجربة بحذافيرها مرة أخرى، وهي إن فعلت ستكون أبلد مما أتوقع.

– دعنا من هذا الموضوع، فلمها كلمة الفصل فيه، علما أنها الآن مريضة وغارقة في صمتها لا تتحرك ولا تنبس ببنت شفة.

– إنها سخرية القدر يا بسام، ألا ترى معي أن القدر مثير بردوده العجيبة؟ لقد عدت إليها وهي رحلت عنك بصمتها، وتود أن تحدثها وهي ترد عليك بصمتها، وتود لو تخرجها قسرا من غرفة المستشفى البيضاء وتجردها من ملابس الموت وتلبسها ثوب الحياة وهي نائمة ملء جفنيها لا تحرك ساكنا، وكأن القدر قايضك بمراوغاتك

هـذا الصمـت المديـد الطويـل من جهتها، لأنها بكل بسـاطة لا تملك الكلمات المناسـبة لترد على غراباتك وتوهانك، وكأن وقودها انتهى فعجز اللسان بل كل حواسها على مواجهتك والتصدي لك.

- لكني لم أكن سببا في ما حدث لها.

- إنها لعبة القدر.

- كم أنت قاس يا صديقي.

- بل أنت أقسى يا بسام، باستخفافك واستهتارك وفرّك وكرّك، صدقني لم أعد أفهمك..

- لم أكن أتصور أن تدافع عنها بكل هذه العصبية والحماس..

- صدقني إذا قلت لك أنه حز في نفسي بشدة ذلك الألم الذي تسببت لها فيه.

- وكيف أدركت ذلك؟

- التقيتهـا صدفـة فـي إحـدى المكتبات، وأردت أن أطمئن على أحوالها لكنها تجاهلتني وقد فسرت سلوكها بأنها تود أن تنساك نهائيا وتنسى كل ما يذكرها بك، وخلتها ساعتها أختي أو زميلتي أو صديقتي رغم أن معرفتي لها غير مباشرة، وتألمت لألمها وعزّ علي أن يكون مصدر ألمها أنتَ..

واهتز المكان على دقات ساعة الحائط وهي تعلن قدوم منتصف الليل. وقام بسام متثائبا يجر خطى متثاقلة إلى غرفته، تاركا إياد ممددا فوق سـريره ومئات الهواجس تجيش في خاطر كليهما. وارتمى هو بدوره فوق فراشه يراود نوما عصيا ويجتر حديث إياد المتشنج الذي ابتدأ بإفصاحه عن سر دفين وانتهى بدفاعه المستميت عن مها وكرامة مها. وكاد بسام ينسى ضخامة ذلك السر وتلك المفاجأة التي أفضى له بها إياد في بداية الحديث ووجد نفسـه يقول لذاته: «لقد تعودت مـن إيـاد أن يكـون معـي صادقـا فـي كل أحاديثه وآرائه، ولم يحد عن

جادة الصواب في كل ما قاله وأبداه، إلا أن إحساسا غريبا جعلني أستشعر شيئا غامضا لم تنطقه شفتاه فتسلل من نظرات عينيه كطيف حقيقة يأبى إلا أن يظهر ولو متلكئا.. وكأنه يقول لي بنظراته الساهمة: «اترك مها عنك ودعها في حال سبيلها.. دعها تلملم شتاتها وتضمد جراحها التي غارت بسببك، دع لها فرصة تأمل ذاتها في منأى عنك حتى تتمكن من كنس الضباب الذي غشي عينيها.. دع لها فرصة الاختيار مجددا، فقد تفلح في استعادة نفسها وتوازنها». وتراءى لبسام مشهد إياد وإيهاب وهما يقفان جنب سرير مها بعد الحادثة مباشرة في وقت متزامن تقريبا مع لحظة وصوله إلى المغرب، وأحس أن الزمن أنصفه حينما أتى به في الوقت المناسب إلى المكان المناسب. وتكدر خاطره بشعور مداهم غريب تجاه الصديقين وقد أمسى أحدهما بقدرة قادر ابنا شرعيا له. ثم لم يدر كيف تآمرت عليه الذاكرة اللعينة فأحضرت له على كف عفريت مارد، وفيما يشبه الشماتة، صورة ذلك الرجل الغريب الذي مرق أمامه بنظارة سوداء بعد أن تسلل مسرعا من غرفة مها في هذا المساء. واختلطت الرؤى لديه وتشابكت في مخيلته فأنقذه الكرى من قبضة هواجس ضارية.

* * *

جريت حتى جريت
ورداتك الرياح الصايلة
لأرض جبالها عالية
ووديانها جارية
والبحور دايرة بها
كطوق النجوم السايرة
في السما العالية

* * *

جريت حتى جريت
ورداتك الأوهام البايرة
بعدما غابت الضنينة
وغامت الدنيا في عينيها
وتسناتك شهور وسنين هايمة
وملّي طالت بها الأيام
وعز تحقيق الأحلام
دخلت لبحور الصمت هايمة

تسللت كلمات المهبول كريح باردة إلى أذني بسام وهو يمرق مسرعا في أزقة المدينة القديمة. وتسمر قليلا في موقفه وهو ينصت بدهشة بالغة إلى موّاله العجيب وطريقة ترتيله الحزينة. وازداد عجبا حين ردده ثانية بصوت جهوري هذه المرة وكأنه يود أن يصل مواله إلى أسماع كل العابرين. وردد بسام في خاطره شذرات من أهزوجته الزجلية المسربلة بالألغاز وكأن الذي نطقها يقصده هو بالذات أو

يستنطق الغيب من حيث لا يدري. وشعر بسام بارتباك وهو يتلقى نظرات حادة من المهبول فهمّ بمغادرة المكان لا يلوي على شيء، إلا أن المهبول تعقب أثره في خفاء وفاجأه وهو يربت على كتفه بإصرار. والتفت إليه بسام وقد أفزعه منظر المهبول الذي كان يمد إليه كلتا يديه ويحملق في جيوبه في أناة. وأدرك بسام من حركات يديه ونظراته المسمرة في جيوبه أنه يود أن ينفحه ببعض المال، فمد إليه بسام بقطعة نقدية ليس عطفا وإنما خوفا من ردود فعل رجل معتوه لا يأمن تقلب مزاجه. ثم ولاه ظهره آملا أن ينصرف عنه، إلا أن المهبول أصر أن يودعه وهو في موقفه ثابت يرتل أهزوجته الشجية بنبرة حزينة.

كان بسام قد تعوّد أن يرى المهبول بين الفينة والأخرى يجر خطوات متلكئة بين منعرجات الحارات وعند الزوايا، يتكئ متوسدا الحيطان وهو ينبس بكلام مبهم لا يفهم مغزاه في معظم الأحيان. لكنه اليوم ذهل وهو يسمع منه ما سمع، وكأن الرجل يعرف قصته مسبقا وأراد مع سبق الإصرار والترصد أن يصفع أذنيه بكلمات صادمة كالسياط؛ وقد زاده لوعة طريقته في ترتيلها. وسار بسام مطأطأ الرأس، متحيرا في أمر الرجل، وتذكر وهو يعرج وئيدا في أزقة بوقرون بمحاذاة الإسكافي الذي يرتق أحذيته أنه حدثه يوما في شأن حياة المهبول العجيبة، فقال له وهو يطرق مسمارا رقيقا على حافة الحذاء بصوت رخيم:

«قصة الهبيل قصة غريبة، ما يصدقها غير اللي دّا في الزمان وجاب، وسمع بعجايب الدنيا وعاش غرايبها.. الهبيل أسّي بسام ما كانش هبيل ولكن هبلاتو الدنيا ومصايبها.. تيقولو أنه جاء من نواحي الدار البيضاء أو الدار الكحلة، كيفما بغيت سميها، وكان عايش بوحدو ما عنده عائلة.. وكان تيعيش بعرق كتافه، حمّال فشي محطة د الكيران، وكان مبلي باللوطو والفرنك اللي جمعه تيمشي ليه فيه،

وكان حلمه الكبير أنه يصبح غني، غني بزاف، وهاذ الشيء علاش كان داير رأسه في اللوطو لعل وعسى يضحك ليه الحظ شي نهار.. وبحال إلى بغى القدر يمتحنه، وأصبح ما بين عشية وضحاها ملايني تيلعب بالفلوس من بعدما فاز في ضربة حظ في اللوطو.. وداروا بيه الأصحاب وأولاد الحرام، كلها تيملي عليه رأي، لكن رأيه هو كان عجيب وغريب وما يخطر ببال عاقل.. وحدثه شيطانه وقال ليه علاش ما تمولكش مع رأسك وتعمل من أصحابك الوزراء والعمال ودوّر بك الخدم والحشم؟ وفي رمشة عين عمل من صاحبه بيّاع السردين وزير الاقتصاد، وصاحبه آخر بياع الدجاج وزير المالية على حقّاش كان دايما تيسلفه ملّي تيبقى على الدص. وواحد صاحبه آخر عمله مرشد سياحي على حقاش كان صايل وجايل في البلاد طول وعرض وما كتنقصه حيلة، وملي تيبقى بيده خاويين تيمدهم لجياب الناس في الطوبيسات والأسواق العامرة.. وفي داره دوّر بيه البنات الزوينات، كل واحدة فيهم باغية تخليه ليها بوحدها.. ومشات أيام وجات أيام حتى ظهرت ليه واحد البنت فتانة تتقول للقمر انزل وإلا نطلع ليك، وهام بها وحبها من قلبه وجابها لداره.. لكن هاذ البنت كانت أفعى قرطيطة ورقدته في الغر حتى عرفت فين تيخبّي فلوسه، على حقاش هو ما كانش تيثيق في الأبناك وكان خازن فلوسه في داره في واحد الركنة ما يطيحش عليها الجن الأكحل. وفي واحد الليلة شرب بزاف مع ذيك المسخوطة وبدأ تيفشي سره بلا ما يشعر، وما أصبح الصبح حتى طارت الحداية بالأمانة وخلاتو على مولانا.. واللي زاد كمل عليه وخرج ليه عقله بالمرة هو ملّي سمع ذيك المسخوطة تزوجت واحد القايد فشي مدينة قريبة، يعني حصنت رأسها وتحزمت بواحد من السلطة.. وخلينا من هاذ الحكاية.. اللي نبغي نقول ليك أسي بسام هو أن الهبيل ما زال بعقله ولسانه تينطق ديمة بالحكمة، وبزاف د الرجال

والعيالات تيتبركوا بيه كيف شي ولي صالح.. وحتى هاذوك الرجال المكرفطين والمعفرين تيجيوا يسولوا فيه باش يشوف ليهم حظهم ويقرا ليهم المستقبل.. هبّال هاذوك الناس.. تيحسب ليهم شواف.. وواحد نهار قتلني بالضحك واحد المهندس، وقف علي بطوموبيل كيف الصاروخ وسولني عليه، وملّي قلت ليه علاش بغيتيه؟ قال لي ادخل سوق راسك، أنا بغيته وخلاص.. تيظهر لي أسي بسام إلى الناس هب ليهم الريح بالقفة وما بقاوش يعقلوا، ويحسب ليهم الهبيل ولّى شوافة بحال الشريفة المعروفة في حي الرياض بفك السحر والعين والتابعة والعكس والثقاف وتعسر الزواج والولادة والتوكال وحجاب القبول ومرض الأرياح وصرع الجن والمحلة الصغيرة والكبيرة وأمراض أخرى بحال الشقيقة والروماتيزم والرعاف وصداع الراس..».

وأفاق بسام من سهوه العميق على زعيق سيارة في مفترق الطرق بين شارع الحسن الثاني وعلال بن عبد الله، فعرج بعد مروقها على أحد المقاهي إلا أنه عزف فجأة عن فكرة ولوج المقهى وسنح بباله أن يذهب توا إلى المستشفى عسى الحظ يسعفه هذه المرة فيسعد برؤية مها مستيقظة وفي كامل وعيها. وقطع بسام الطريق الفاصل بين مركز المدينة والمستشفى على متن الحافلة وهو يردد بنفس متقطع لاهث مقطعا كان قد ارتجله قبل أن ينام ليلة أمس، فردد بصوت خافت مقاطع مبتورة من قصيدة لم تكتمل بعد:

النوارس السابحة في ملكوت السهو

...

صرير الباب الذي ظل يئن

كصوت قادم من قفر

...

تعاريش البوح الذي انفرط عقده
على عتبات الحكي
...
الكلمات المبحوحة التي تيبست على الشفاه
...
السرو الجريح الذي انكوى
برذاذ من لظى وانتشر
...
الصدى البعيد الذي انفلت
من جناح الغيب وانتشر
...
ثم ولّى واندثر...
عاد يغازل كرة أخرى
ذرات صخر كالمطر...
كانت دهاليز القدر
تعج بالحكايا والعبر
فانبعث من رماد الضجر
هفيف روح يطرب
آذان من عبر...

وانقطع سيل ترانيمه حين فرمل السائق وتوقفت الحافلة في المحطة المجاورة للمستشفى. ونزل بسام من الحافلة وهو يتخيل في ألف صورة ومشهد فرحة مها باستقباله، هي التي يئست من عودته. واسترجع فيما يشبه سنا البرق شذرات من حديث إياد ليلة أمس فمسحها من مخيلته وهو يصعد في المصعد إلى الطابق الثاني. ودخل

بسام الغرفة المشرعة الباب ففوجئ بوجود إياد وصديقه في غرفة مها، وهما باحتضانه إلا أن بسام انزبق كالريح ناحية السرير وابتسم لمها فنظرت إليه واجمة، فجفل بسام من نظراتها الغريبة فوجد نفسه يقول لها:

- حمدا لله على سلامتك، هل أنت بخير؟

فردت عليه بصوت واهن:

- بخير والحمد لله.

- عدت قبل أيام من سفري وأخبرني إياد بالذي حدث..

- عفوا، من تكون؟

- أنا بسام، هل نسيتني؟

- ومن يكون الآخر إذا كنت أنت بسام؟

- من تقصدين؟

وأشارت بعينيها إلى صديق إياد، فشعر بسام بخضة قوية ترجه كزلزال عنيف هزه على حين غرة، وخطر بباله ما لم يدر له بالحسبان، فنظر إلى إياد ثم إلى إيهاب وهو يستفهم منهما ما رأى وما سمع. ودنا من إياد وهمس له بصوت واهن «أتراها فقدت ذاكرتها أم اختلط عليها الأمر برؤية إيهاب؟»، «لست أدري.. لكنها تذكرتني ونادتني باسمي وتحدثت إلى إيهاب كما لو أنها تعرفه ونادته باسمك». ولما رأى إياد هذا الإرباك الواضح على محيى بسام اقترب منه وقال له بنبرة عطوفة: «لا تشغل بالك كثيرا، قد تكون ذاكرتها متعبة الآن، وقد تكون فقدت جزءا من ذاكرتها، لكن تأكد أنها ستسترجع كامل وعيها وإدراكها بعد أيام، فالحادثة التي تعرضت لها والغيبوبة التي استمرت أسبوعين كاملين لا بد أنهما سيتركان بعض الأثر على وعيها..»، «لكنها تذكرت اسم صديقك..»، «هذا شيء طبيعي..»، «صدقني، لم أستوعب شيئا على الإطلاق وأود أن ألتقي بطبيبها الآن كي أفهم منه ويشرح لي

حالتها». وهمّ بسام بالانصراف فإذا بزمرة من الزوار تقتحم عليهم باب الغرفة. وتبين وسطهم خالة مها وثلاث نساء برفقتها ورجلين. وسمع صوتا أنثويا يقول له مبتسما:

– أهلا، سيدي، هل تذكرني؟ أنا زميلة مها في العمل، زرتنا ذات مرة في الوزارة.

وذهل بسام وهو يستقبل حديثها غير المرتقب، ونظرت إليه خالة مها نظرة غريبة ثم جالت عيناها في وجوه الزوار المتواجدين بالغرفة فتحولت عنهم مسرعة نحو مها والدموع تملأ مآقيها. وسمعها بسام تقول لمها وحشرجة خانقة تشد أنفاسها:

– على سلامة بنيتي الحبيبة..

ثم فوجئ بمها تبتسم للزوار الجدد القادمين وتنادي كلا باسمه، وقد أحاطوا بسريرها كطوق جميل، الخالة واقفة على رأس مها وزميلتاها بجوار الخالة وبمحاذاتهما إحدى الجارات. وعلى يسار السرير وقف زميلان آخران وعند قدم السرير وقف إياد وإيهاب وخلفهما بسام مكوّنين ما يشبه الهرم. ثم طفق حديث العيون يخترق الفضاء بحفيفه وسط أحاديث عفوية تحدث أثناءها الزوار بصدق عن مدى تأثرهم بالحادث المروع الذي تعرضت له مها يوم المظاهرة المشهود. فقالت صباح بتلقائيتها المعهودة موجهة حديثها إلى مها:

– هل تعرفين ماذا قال حارس المرآب حين علم بالحادث؟ «ذاك المجنون اللي ضرب مها بسيارته كان عليه يدخل بها فشي واحد من ذوك كروش الحرام.. ما لقى قدامه غير مها المسكينة اللي ما عمر كلمة العيب خرجت من فمها.. الله يلقيها ليه..».

ثم تحولت صباح بنظراتها إلى وجه إياد وقالت في دخيلتها «إيوا هاذ الزين كله تتعرفه مها ولكن بلا فايدة للأسف..» أما خالة مها فقد أطرقت برأسها وغابت عن الحضور في حديث وخواطر

طالما راودتها. وها هي ذي الآن أمام حشد من الرجال يحفون مها من كل جانب، تنظر إليهم متحيرة وتعتصر من نظراتهم ما استعصى عليها فهمه طيلة حياة مها التي كانت تخفي عنها معظم أسرارها الخاصة ولا تسر لها بشيء إلا فيما ندر. ووجدت نفسها تهجس لنفسها كأنها تحاورهم سرا: «تراك يا مها أنت من يرفض تقربهم منك أم هم؟ تراك يا صاحب الذقن الحليق والوجه المليح فكرت يوما في مها وفي وحدتها الخانقة؟ وأنت يا صاحب النظارة الجميلة والشعر المسبسب، ما سر زيارتك الأولى لمها يوم الحادث الفظيع؟ هل هي كما قلت مصادفة عجيبة أم هي مصادفة مدروسة؟ لم أعد أفهم شيئا.. لقد اختلطت علي الأمور وغار الوضوح في ظلمات وغياهب الغموض.. وأنت أيها الكهل الغارق في البياض.. هل أنت أيضا تعرف مها رغم عكازتك وشيبتك؟ وكيف تعرفت عليها ومتى؟ رسائل كثيرة كانت تصلها منذ سنتين حين كانت مها في الصويرة.. فأيهم منكم كان يرسلها؟ ومن أجل ماذا؟ هل تعرفون أنني حين أرى مها ضاحكة أتوسم خيرا من ضحكتها وأقول في خاطري لعل وعسى يجود الزمان بابن الحلال الذي يسترها ويسعدها، وحين تبتئس أبتئس لبؤسها وتظلم الدنيا، كل الدنيا في عيني؟ هل تعرفون أيها الواقفون على سرير مها أنها أضحت تحدث ذاتها كالممسوسة؟ هل تعرفون عذاب أم ترى شباب ابنتها يرحل أمام عينيها والعمر يفر من بين الأيدي وخلف الأرجل كسراب؟ هل تعرفون عذاباتي التي لا تنتهي قبل هذا الحادث وبعده؟ بودي لو أتسرب كريح خفية إلى أعماقكم وأصول وأجول في سراديب نواياكم التي تتدثرون خلفها.. بودي لو تنكشف لي حجب الغيب وأرى بأم العين ما تخفيه الأيام.. هل تعرفون أنني أضحيت أتملى الغيم العابر في السماء والطير السابح في الفضاء وهدير الموج الصاخب والساكن؟ أصبحت أتملى كل شيء وأحاوره

علني أشفي غليل ضيمي وسقمي وألمي الغائر الدفين.. آه لو تعرفون كل هذا ما وقفتم أمامي ولا أمامها..».

ولم تمر ساعة كاملة على لقاء الصدفة الذي جمع الأهل والجيران والأصدقاء والزملاء والأحبة حتى انفرط الجمع وذهب كل إلى حال سبيله. ولم تكن لبسام الرغبة في العودة في تلك الأثناء إلى البيت وكأنه يهرب من شبح الأسئلة المتشابكة والمتناسلة الجاثمة خلف الشبابيك والدواليب واللوحات والستائر. وود لو يرافقه إياد إلى إحدى حاناته المفضلة، إلا أن إيهاب سبقه وطلب من إياد مرافقته لبعض الوقت إلى البيت. والتقت النظرات مستفهمة عن سر هذا الحديث الذي سيفضي به إليه، ولمح إياد نظرة أسى في عيني بسام، وأدرك مدى حساسية الموقف. واحتار في الأمر، بيد أن هاجسا متلكئا كان يقرع آذانه بتؤدة: «**هذا ما لم يدر لك بخلد يا إياد، أن يجتمع الأب والابن في ظرف دقيق لا تستسيغه المدارك والحواس، وتقف مشدوها بينهما لا تدري أيهما أحق بالإرضاء..**» وانتفض إياد من سهوه وتوجه إلى صديقه بسام قائلا وقد افترت شفتاه عن ابتسامة متوددة:

– سألحق بك في أقرب وقت إلى الحانة، اسبقني إلى هناك، أنا بدوري أرغب في شرب كأس برفقتك.

اللوح..

يا ذاك اللوح الضبابي السرمدي..

أضحيت أخشى مراياك

وأفر منك جزعا بين الأعطاف والحنايا

متلافيا أن تصيبني

بعض شظاياك..

سار بسام مطأطأ الرأس، شاردا، يخبط الثرى بعصاه محدثا رنينا تخيله حزينا وبئيسا كنفسه المشروخة. وولاه إياد وإيهاب ظهريهما قاصدين بيت إياد لكونه الأقرب إلى مركز المدينة. ولم يستطع إيهاب صبرا فوجد نفسه يشرع حديثا بلا ضفاف وهما لا يزالان بعد على متن سيارته الجديدة. فقال لإياد بعد أن هرش فروة رأسه بحركة متوترة تنم عن انفعال خفي:

- يبدو أن المصائب لا تأتي فرادى.

- ماذا تقصد؟

- أرأيت كيف أن مها اختلط عليها الأمر واعتقدتني بسام.

- قد تكون الحالة عابرة، لا تشغل بالك، أتوقع أن تسترجع عافيتها قريبا.

قال عبارته باقتضاب وهو يغالب ابتسامة لجوجة تصر أن تفلت رغما عنه. وارتبك إياد وهو يقرأ في عيني إيهاب استفهاما فزم شفتيه، إلا أن عينيه فضحتاه فانطلقت منه ضحكة مضغوطة جعلت إيهاب يشاركه ضحكه رغم جهله المطلق لسبب هذه الضحكة التي على ما يبدو لا تناسب مقام الحديث والحدث. فقال له مستفسرا:

- ما يضحكك؟

- لا تؤاخذني، أعلم أن ضحكي لا يتناسب والظرف الذي نحن فيه، لكن ذاكرتي استحضرت أشياء كثيرة ومثيرة جعلتني أنظر إلى الواقع العجيب بعين الدهشة..

ولم يكد إياد يتم كلامه حتى وقف إيهاب على مشارف العمارة، ودخلا الشقة والحديث بينهما آخذ في التنامي. وجلسا متقابلين على كنبتين عريضتين فوجد إياد ذاته يوجه حديثه بجرأة إلى إيهاب لأول

مرة منذ أن تعرف عليه على عتبات المطار، فقال له بعد أن استجمع قواه:

– لقد حان الأوان لأقول لك ما لم أستطع قوله في الماضي القريب، وأحكي لك عن أشياء كتمتها في خاطري حبا في صديق عزيز جمعتني به المودة العميقة والمحبة الأخوية الخالصة. وكنت قد عزفت عن الحديث عنه إليك لكوني كنت أجهل من تكون، أما وقد أصبحت الآن ابنه وبعد أن وضعك القدر أمامه في موقف غريب تذهل منه النفوس فسأكلمك الآن كابني ما دمت ابن بسام. ماذا أقول لك يا إيهاب؟ لقد أحب أبوك مها حبا كبيرا وقد شاطرته مها ذات الحب وأكثر، إلا أن اختلاف نظرتهما للحب جعلت العلاقة بينهما تتشنج، أضف إلى ذلك يد القدر التي جعلت الرياح أحيانا تهب بما لا تشتهي الأنفس.

– ماذا تقصد باختلاف نظرتهما للحب؟

– أقصد أن والدك بعد فشله في الزواج الذي انتهى بالطلاق من أمك قرر ألا يعيد الكرة ثانية، ولهذا أراد أن يكون حبه لمها مختلفا، بلا قيود، متحررا تماما من القانون والدين والأعراف والتقاليد، وهنا وجد نفسه يصطدم بجدار الرفض والصد المنيع من طرف مها التي لا تؤمن بحب على هذه الشاكلة.

– فهمت، لكن ما الذي أضحكك في الأمر؟

– الذي أضحكني في الأمر يا صديقي هو سخرية القدر العجيبة.. كنت أعرف من خلال صداقتي لوالدك أن مها إنسانة نادرة، وقد حافظت على حبها لوالدك رغم يأسها القاطع من الزواج منه، وأرادت أن تبقي على ما يمكن إبقاؤه، أعني حافظت على هذه النواة الطيبة التي أنبتت هذا الحب الكبير في صدريهما والذي ترعرع شجرة يافعة أزهرت زهورا متألقة فواحة، وقد أبقت على حبها له لعقدين

مـن الزمـن، ولا أظـن ابنـة حـواء أخـرى بقادرة على صون هذا الحب والإبقاء عليه في سـويداء القلب طيلة هذه المدة. وجاء سـفر والدك المفاجئ إلى سـوريا وبعده مباشـرة إلى الإمارات فانقطعت وشـائج الوصل بينهما. وكنت أقول في خاطري إن بسام قسا كثيرا على مها بتعنتـه وهجرانـه. وكـم تمنيـت أن يتراجع عن مواقفه إلا أنه لم يفعل. وحين تبين لي أنه مصرّ على الثبات على موقفه بدأت أقول لو أنني كنـت بـدل مهـا لـرددت لـه الصـاع صاعين، بل إنـي تمنيت لو تمتلك مهـا العزيمـة والقـوة للانتصـار لنفسـها بالاسـتغناء عنـه نهائيا.. إلا أن القـدر كان أدهـى وأمـر. ولـم يخطـر لـي ببال أنه سـيأتي يوم تقف فيه أنـت ووالـدك أمـام مهـا في ظـرف دقيق من صنع القدر ويختلط على مها الأمر وتمتزج لديها الأوراق فتمسـح ذاكرتها بسـام ثم تتمثل لها ملامحه الشابة في صورتك أنت يا إيهاب، أليس الأمر مضحكا حقا؟

– نعم، إنه مضحك حقا، إلا أنه ضحك مر يجرح النفس.

– أمـا أنـا فـأرى أن القـدر قـد أنصـف مهـا وانتقم لها من بسـام الذي جافاها وقسا عليها كثيرا.

– لكنه وضعني في موقف صعب، لا أحسد عليه.

وانخرط إياد في ضحكة هستيرية عالية فوجد نفسه يقول وسط قهقهات متقطعة قطّعت أوصال الكلمات المنطوقة:

– أما أنا فأحسدك يا صديقي، وقد تمنيت لو اعتقدتني بسام..

– كيف ولماذا يا صاحبي؟

– لا تفهمنـي خطـأ، إيهـاب، هـل تعـرف لمـاذا تمنيـت لو كنت بدلك؟ لأني بكل بسـاطة أود أن ألعب بأعصاب بسـام ليس إلا، ولا نية لي البتة في خطف حبيبته.. أنا أعرف بسـام جيدا، فهو من ذلك الصنف الذي يرغب ولا يرغب ويهرب من الأحبة ولا يتحمل منهم الهـرب والصـدود، أمـره غريـب، ولهـذا أنصحـك أن تلعـب معه هذه

اللعبة، وسأكون لك ممنونا لأنك ستمكنني من رؤية مشهد مسرحي كنت أتمنى رؤيته منذ زمن بعيد..

- أنت تريد أن تقذف بي في جحيم المواجهة مع الشخص الذي عبرت من أجله القارات، كيف تشجعني على فعلة كهذه؟

- إنها مجرد لعبة وستنتهي قريبا يا صاحبي..

- «**ومن أدراك أنها ستنتهي بخير؟**».

وجفل إيهاب وهو يتمثل أمام ناظريه ملامح والدته التي تراءت له على شاطئ الهرهورة وكيف أنها أوصته خيرا بهذه الفتاة. أتكون هي أيضا تفكر بنفس منطق إياد وترغب جادة، هي الرابضة في رحم المنون، أن تعذب بسام في لعبة شيطانية يكون أحد شخوصها ابنها إيهاب، وكأنها عن وعي أو لاوعي تود من ابنها أن ينتقم لها من هذا الزوج الذي طلقها ولم يمر بعد على زواجهما الشهران بعد أن ترك في رحمها بذرة ابنها الوحيد إيهاب؟ وارتبك إيهاب وهو يستقبل من حيث لا يدري سيل الشروح لأمر كان قد نسيه وفجأة استحضرته الذاكرة في لعبة ماكرة. وتمثلت لعينيه ملامح مها وهي نائمة ملء جفنيها وقد طفحت بشرتها بصفرة المرض، ثم تراءت له بعد استيقاظها وقد انفتحت أعينها على فضاء الغرفة، وتخضبت وجنتاها بحمرة باردة وأشرقت عيناها بفرحة هادئة. وتابع نظراتها المتمهلة وهي تجوب في أناة أركان غرفة المستشفى وتتملى بتؤدة وجوه الزائرين. وأثارته ابتسامتها الشفيفة وهي تنظر إليه نظرة غامضة أحالته على ماضيه البعيد والقريب وجعلته يهيم على وجهه في سراديب الماضي ويستل من أعطافه ومن بين الحنايا ملامح نساء غارت ذكراهن في غياهب النسيان. فتذكر وجه طالبة شاركته مقاعد الدرس حين كان لا يزال في مرحلته الثانوية، وكيف أن عينيها الدعجاوين كانتا تأسرانه فدفعه هيامه بها إلى أن يستميلها ذات غروب وقد استشعر منها تجاوبا،

فخطف منها قبلة عجلى وهما يتدثران خلف أشجار السرو الباسقة المحيطة بجدران الثانوية من الخارج.. وذهبت به الذاكرة الولهى إلى صبية الموصل التي أذهله جمالها الغجري وعفويتها وغرابة أطوارها.. ثم قفزت به الذاكرة في لعبة اعتباطية فألقت به توا في حضن الفتاة الكردية التي أدهشته جرأتها وكيف أنها مهدت له سبل العبور إلى تركيا برا وقد قرأ في عينيها الخضراوين الجميلتين حبا تعجز الشفاه عن النطق به فترسمه نظرات الصبابة بريشة حالمة مستغنية عن لغة الكلمات ورنين الصدى الذي تخلفه في الآذان. انتبه إيهاب من سهوه على حديث إياد الساخر الذي رده إلى أرض الواقع وهو يقول له مستفزا:

- أين رحلت يا صاحبي؟ أتراك تمثلت اللعبة وتبنيتها وأنت تحلم؟

- لا لعبة ولا حلم يا صديقي، إن ما أعيشه من واقع غريب جعل ذهني مشتتا، ولا أعرف البتة كيف أتخلص من مخالب المأزق ولا بم ستنتهي هذه الحكاية العجيبة..

وسكت إيهاب برهة ثم أردف قائلا:

- ثم قل لي أيها العفريت، كيف تملي علي أمرا كهذا وأنا في أمسّ ما أكون إلى التقرب من بسام لأنه والدي الحقيقي؟ ألا ترى معي أنك باقتراحك لهذه اللعبة الجهنمية ستوسع الهوة بيننا ولن تلتئم إلى الأبد؟

- أنا لم أقل لك أن تتمادى في اللعبة، إنها لعبة قصيرة المدى ليس إلا، لنرى كيف ستكون ردود فعل بسام وهل تتغير مواقفه أم سيظل قارا عليها رغم تبدل الظروف والأحوال..

- لقد حيرتني نظراته إلي ونحن في المستشفى، كان يرسل إلي نظرات ساهمة غريبة..

- لا تستغرب منه ذلك لأنني أخبرته بحقيقتك.

وجفل إيهاب وهو يستقبل حديث إياد فقال له وقد تصاعدت أنفاسه:

- وكيف استقبل الأمر؟

ولم يكد إياد يرد على تساؤل إيهاب حتى رن هاتفه الجوال، فوجد نفسه يقول:

- أهلا بسام، تأخرت عليك، معذرة، سأكون عندك في بضع دقائق، مسافة الطريق ليس إلا..

وهمّ إياد بالخروج وهو يحث إيهاب على المبيت في بيته، ثم انصرف مسرعا نحو الحانة. ولم تمر سوى دقائق حتى كان إياد وجها لوجه أمام بسام وقد اكتسى وجهه ملامح أسى دفين. فقال له مرة أخرى:

- معذرة يا صديقي، كنت أتمنى لو ذهبت معنا إلى البيت..

- كيف أذهب إلى البيت وحالتي النفسية متوترة ووجهي متجهم؟

- ألم تشرب كأسا؟

- لم أرغب في شربه بمفردي فطلبت قهوة في انتظار مجيئك.

- صدقني، كم اشتقت إلى جلسة في الحانة كهذه، لكن شرط أن تلقي بملامحك العبوسة في كأس القهوة وتظهر لي بملامح بسام المبتهج دوما رغم قساوة الحياة ومفاجآت القدر..

- صدقني، أنا بدوري أود أن أتخلص من تجهمي وأتغلب على همومي.

- لنشرب كأسي شراب إذن وسيخرج الأسى صاغرا من باب الحانة.

ثم أضاف وقد أشرقت عيناه بابتسامة ودودة:

- لكني أنصحك ألا تلتفت إلى نوافذ الحانة لأن الأسى اللعين لا يذهب بعيدا ويفضل أن «يتشعبط» في شبابيك الحانة وعند المنعرجات في انتظار خروج السكارى.

وأطلق بسام ضحكة مدوية على إثر هذه المزحة المليحة، فقال لإياد وهو يكاد يشرق:

- للأسى مقالبه أيضا يا صديقي، لعنة الله عليه.

- كيف تلعنه يا صديقي وهو يقرب بين الأحبة؟

- والله أنت شيطان مارد.

وأطرق إياد هنيهة ونظر إلى بسام مليا ثم بادره بالقول والضحكة لا تفارق شفتيه:

- نسيت أن أحكي لك طرفة حقيقية عشتها قبل عودتك إلى المغرب بأيام فقط.

- كيف؟ احكها لي إذن.

- كنت وكافة الأصدقاء والصديقات مجتمعين في بيتي لإحياء حفلتنا الشهرية، ولم يكتب للحفلة أن تتم بسبب حادثة مها، وحين عدت ليلا إلى منزلي وجدت ملقيا على إحدى الكنبات ورقة على هيئة رسالة وقد دبجت مقدمتها على الشكل التالي: «تحية عطرة معطرة بشذى الرياحين وعبير الورد، تحطم الحواجز والحدود وتخترق السدود لتصنع الخلود وتقطع العهود على القلب الودود ليكون وفيا وصادقا على مر الأيام والعهود..».

واستقبل بسام حديث صديقه بقهقهة عالية وهو يقول له:

- يا لها من مقدمة غزلية شيقة.. لكن لمن تكون هذه الرسالة؟

ورد عليه إياد مبتسما:

- لا يخامرني شك في كون الرسالة لسيمون، فالخط شبيه بخطها تماما.

- ولمن تكون كتبتها؟

- وكيف لي أن أعرف المرسل إليه يا صاحبي؟

ثم ابتسم لبسام بمكر وأردف قائلا بعد أن ارتسمت في عينيه المليحتين نفحة استفزاز:

- لا أشك في كون سيمون كانت تكتبها لصديق عزيز جدا أو بالأحرى حبيب فرّ بغتة من بين يديها بعد أن أشبعها يوما لدغا وعضا.

ولم يتمالك بسام نفسه حين وصلته كلمات إياد المستفزة، فخبط كتفه خبطة قوية كادت تسقطه من على الكرسي، ثم أضاف قائلا وقد غلبه الضحك:

- لعنة الله على ذاكرتك اللعينة، أنت لا تنسى شيئا، أما أنا فقد كادت ذاكرتي تأتي على تفاصيل ما حدث.

واحتسى كلاهما كأسين من الشراب وانفرجت أسارير بسام وانطلق في حديث عفوي مع إياد، فقال له:

- لقد صدمني حال مها، ولا أدري إن كانت فقدت ذاكرتها. لكني عجبت من أمرها كثيرا، ذلك أنها تذكرت الجميع إلا أنا، وزاد في الطين بلة حين اعتقدت إيهاب أنا، فأخذت تناديه باسمي في حضوري.

ولم يتمالك إياد نفسه فأطلق ضحكة عالية جعلت رواد الحانة يلتفتون إليهما بنظرات مستفسرة، وكأنهم يقولون لهما سرا: «ترى أمصدر هذا الضحك فرح أم قرح؟».

ووجد بسام ذاته يستجيب لضحك صاحبه، إلا أنه قال له معاتبا:

- وهل في الأمر ما يضحك أيها المخبول؟

- والله ما حدث حقا فجّر في داخلي موجة من الضحك العارم، وبالمناسبة وقبل الخوض في هذا الحديث أود أن تسامحني على حديثي السابق في الأيام الماضية، فلا تأخذ حديثي ذاك مأخذ الجد، صحيح، لقد عاتبتك لأنه حز في خاطري أن أرى فتاة كمها تتعذب

بسببك، لكن صدقني لا رغبة لي في تحريضها عليك، فمعزتك عندي تفوق كل شيء.

– وكيف تحرضها علي الآن يا صاحبي؟ اطمئن ونم قرير العين، فقد ناب الزمن عنك وحرضها علي فنسيتني تماما. فهل هناك صفعة أشد وطأة من صفعة القدر؟

وضحك إياد مرة أخرى ملء شدقيه حتى اغرورقت عيناه، فألفى نفسه يقول لبسام وهو يحاول جاهدا أن يتحكم في قهقهاته الصاخبة المثيرة:

– أنت محق يا بسام، لقد كانت ردة القدر مثيرة، ويبدو أنه ناب عني فحرض ذاكرة مها عليك، فمسحت ذكراك من ذاكرتها وألبستها وجه إيهاب الشاب.

ثم أضاف وموجة عارمة من القهقهات تكاد تخنقه:

– ألا ترى معي يا بسام أن ذاكرة مها ماكرة؟ لقد نسيت بسام العجوز الأشيب وتذكرت فقط بسام الشاب الوسيم المفتول العضلات.

ونظر بسام في عيني إياد وانطلق في ضحكة هستيرية، فضرب عرض المائدة بملء كفيه فكادت تتطاير الكؤوس من فوقها، ثم عقب قائلا:

– والله هذا أدهى تعليق سمعته منك لحد الساعة.

وأمسك إياد عن الضحك بسماعه رنين هاتفه، وفوجئ وهو يستقبل في تلك الساعة المتأخرة مكالمة هاتفية من مدير تحرير الجريدة التي يعمل بها مراسلا، فطفق يقول له:

– كيف؟ في هذه الليلة؟

– ...

– يجب إذن أن آخذ قطار الليل وحين أصل إلى مراكش سأستقل الحافلة أو سيارة أجرة إلى أكادير.

- ...

- طيب، ليلة سعيدة وإلى اللقاء.

والتقت نظرات بسام بإياد في ذهول، واستفسره في صمت عن سر هذا السفر المفاجئ، فقال له إياد مرتبكا:

- إنه مدير تحرير الجريدة يطلب مني أن أكون غدا في أكادير من أجل تغطية نشاط ثقافي بجامعة ابن زهر.

- إذن ستسافر الآن؟

- بل يجب أن أعود اللحظة إلى البيت كي أحمل معي بعض أغراضي بما في ذلك آلة التصوير والتسجيل وأغادر توا إلى محطة القطار كي آخذ قطار منتصف الليل.

ونظر إليه بسام ساهما، مذهولا، فقد كان يود من أعماقه لو تستمر سهرتهما في الحانة إلى منتصف الليل خاصة وأنه ما يزال في الحديث بقية. وانقطع خيط حديثهما وهما على عتبة باب البيت في لحظة وداع اجتمع فيها بسام وإيهاب وقد مد كلاهما يديه لإياد مودعا، متمنيين له سفرا سعيدا وعودة قريبة. وولاهما إياد ظهره تاركا إياهما على عتبة بيته. وهمّ إيهاب بتوديع بسام والعودة إلى بيته إلا أن هذا الأخير استحثه على المكوث معه هذه الليلة ما دام إياد قد غادر مسافرا.

والحقيقة أن كلا من إيهاب وبسام كان ينتظر أقرب فرصة متاحة للحديث والبوح والتفاهم والتقارب والإفصاح عما يجيش في الخاطر. وقد حانت لحظة المواجهة في الوقت المناسب بعد أن غادر إياد بيته في سفر مفاجئ إلى أكادير تاركا لهما المجال مفتوحا والفضاء مواتيا لتبادل أطراف الحديث الذي تتناثر ندفه وألغازه في الزمن والمكان البعيدين. ووجد إيهاب ذاته وجها لوجه أمام وجه أبيه في بيت صديق مشترك؛ وكي يداري ارتباكه وحيرته قال له بنظرات ذاهلة وذهن مشتت

وأفكار مرتبكة:

- هل يقبل بسام وجدي كاظم أن يشرب فنجان قهوة من يدي؟

وذهل بسام وهو يسمع اسمه كاملا على لسان ابنه، وقد كان يتوقع أن يناديه أبي، بل كان يتمنى أن يسمع هذه الكلمة لأول مرة في حياته من ابن كان يجهل وجوده. ولم يتردد في التعقيب على سؤاله فقال له على التو:

- كنت أود أن أسمع منك كلمة «أبي»، فلماذا تناديني باسمي كاملا وكأنني لا أعرفه أو أنك تود أن تذكرني به وكأنني نسيته؟

- خشيت أن أناديك «أبي» هكذا دفعة واحدة فتنفر مني أنت الذي قضيت العمر كله متحررا من الزوجة والأبناء وأعبائهم.

- صحيح، أنا لا أنكر أنني حمدت الله كثيرا وقتها أن تم الطلاق من أمك المرحومة دون أن يكون بيننا أطفال، وما كنت لأتمنى ذلك لولا أنه يحز في خاطري أن يتعذب أبناؤنا بانفصالنا. أن نطلق بعضنا ونحن أحرار لا يشبه بأي حال من الأحوال التورط بالتربية ورعاية طفل أو طفلة. أضف إلى ذلك أن هذا الطفل أو الطفلة سيتعذب أكثر وهو يعيش يتيم الأب أو الأم وهو يعلم يقينا بوجود والديه على قيد الحياة. لكن الظرف الآن مختلف تماما، وهو أمر لم أستسغه في البداية ولم أكد أصدقه، وهذا شيء طبيعي.. لقد هزني هذا الحدث من الأعماق لأنني عشت طوال حياتي بإحساس عازب فشل في زواجه الأول وتخلص منه بيسر وعاش ما تبقى له من العمر عزوبية بلا حدود، متحررا من جميع القيود والالتزامات والإكراهات..

- أما أنا فقد كان وقع هذا الحدث المثير في حياتي صادما، وكاد يودي بحياتي في لحظة ضعف، فأنت لا تستطيع أن تحس بذات الإحساس المر الذي تجرعته أنا الذي قضيت طفولتي وشبابي في كنف رجل اعتقدته والدي، ولم تراودني في أبوته أدنى الشكوك،

وفجأة انقلب المركب في عرض البحر وهبت عاصفة هوجاء قلبت كل الموازين فاسودت الدنيا في عيني ولم أجد من ألومه. فالتي أفضت لي بهذا السر الدفين هي أمي وحبيبتي وقد ألقت بثقل ذلك السر على كاهلي ثم أغمضت عينيها وغادرت إلى الأبد، وأبي السوري لا يعلم شيئا ولا يجدر به أن يعلم، وأنت فررت من بين يدي ففتشت عنك في دمشق بعد انتهاء التصوير بأسبوع فقط فوجدتك قد طويت الأرض طيا وعبرت برا إلى العراق..

بسام مندهش، فاغر فاه، يستقبل حديث إيهاب بعيون مفتونة..

... وسعيت إليك في رحلة مجنونة، غير مأمونة العواقب، وسألت عنك كل من يعرفك في الأنبار والموصل وبغداد، فلم أعثر على شيء ذي بال يرشدني إليك.. واكتشفت فجأة في لحظة من لحظات توهاني أنني أبحث عن ذاتي وأكتشف هويتي الحقيقية وأعبر أرض الأجداد لأول مرة في حياتي.. واكتشفت أيضا مفارقات التاريخ المذهلة ومكر الظروف التي أتت بي إلى العراق في ظرف دقيق كهذا.. وعبرت العراق من غربه إلى وسطه وشماله وعشت تجارب ما كنت أظنني سأعيشها يوما..

بسام يفتح عينيه على حديث إيهاب المليء بالمرارة والأعاجيب..

... وقد رأيت بأم عيني ما لا عين رأت وسمعت بأذني ما لا تستسيغه الآذان..

وخرج بسام من صمته فوجد نفسه يقول لإيهاب بعفوية مثيرة:

- ماذا رأيت يا ابني؟ احك لي وتخفف من كدرك وشجونك..

وقبل أن ينبس إيهاب بكلمة ويفتح ذراعيه لاحتضانه دنا من والده في لحظة مؤثرة فسبقته دموعه وانهمرت غزيرة على كتفي بسام. ومرت لحظة صمت ليست بالقصيرة جاهد فيها بسام نفسه كي يعيد الأجواء إلى طبيعتها، فقال لابنه إيهاب متأثرا:

– إنها لحظة العمر الفريدة هذه التي جمعتني بك أنا الذي اعتقدت جازما أنني لن أترك أثرا أذكر به سوى كتبي ومؤلفاتي.

– آه، كم غريبة هذه الدنيا، وكم تخفي لنا من المقالب والمصائب أحيانا.

– لندع عنا حديث الأحزان جانبا، فقد أفنيت قسطا ليس باليسير من عمري في بؤرة الغم والسقم.. لنعد إلى حكاياتك السابقة.

– ماذا أقول لك أبي؟ أعيش الآن مفارقة أخرى معك، ذلك أنني كنت سأحكي هذه الحكاية لصديقك إياد ولم يكتب لي ذلك لحد الآن، وها أنذا سأحكي لك بدله حكاية طريفة عشتها وأنا في غمرة تيهي في العراق ورغبتي الملحة في العثور عليك. أقول طريفة وغريبة في آن لأنني لم أكن أتوقع ولا حتى في متاهات الأحلام السديمية أن تصادفني الأقدار بصبية موصلية غجرية ستبدي لي تعاطفا غريبا بدأ بمسحها الدم والتراب الذي عفر وجهي بمناديلها الورقية إثر تعرضي للكمة مباغتة من صعلوك موصلي خطف حقيبتي وتركني أنزف، ملقيا على الثرى، ثم تصر على مرافقتها لي إبان عبوري إلى منطقة كردستان العراقية فتمدني بعملات أجنبية قبل حتى أن تعلم بنية سفري إلى تركيا وبعدها إلى المغرب.. لقد أهدتني ما تملك هي التي لا تملك شيئا سوى عفويتها المثيرة وسذاجتها المؤثرة وجمالها الآسر وحبها الغامض لهذا البلد الذي عاشت بين ظهرانيه اليتم والتشرذم والتيه.. ولم أكن أتخيل أيضا أن أرى بأم عيني امرأة منقبة سأصاحبها في رحلتي الفريدة من شمال العراق إلى تركيا نزولا عند رغبة قريبتي الكردية. وقد كنت أنوي أن أذهب إلى تركيا جوا إلا أن قريبتي أصرت على أن تكون الرحلة برا.. ويبدو أنها وأخاها كانا قد أعدا لكل شيء عدته، فاتفقا سرا مع بعض أعضاء الحزب الكردستاني المعارض، والذي كانت له بعض المواقع في شمال العراق على

تسهيل عملية العبور. ولم يمر سوى يومين حتى كنا على مشارف تركيا، وقد أثار انتباهي طيلة ساعات الرحلة الطويلة صمت المرأة المديد وتواصلها النادر معي بالإشارات.. وكنت قد أوّلت ذلك من قبيل الاحتياط اللازم بعدم الإسراف في الكلام والخوض في أحاديث لا تتناسب وظروف الرحلة الدقيقة. وراودني شك وأنا أتملى عينيها الزرقاوين خلف نقاب أسود قاتم أن تكون وراءها ما وراءها، ولهذا سعت العائلة الكردية لمساعدتها على الهرب، لكني لم أتوقع قط ونحن نطأ رسميا أرض إستانبول أن تكون التي رافقتني طيلة رحلتي العجيبة غير المتوقعة جنديا أمريكيا متنكرا في هيأة امرأة محجبة هربا من المواجهات الضارية في حرب طوائف لم يعرف العراق مثيلا لها في تاريخ حروبه. وحال وصولنا إلى إستانبول وجدنا في استقبالنا أحد أصدقاء أقاربي الأكراد، وكانوا بدورهم أكرادا عراقيين مقيمين منذ فترة بعيدة في إستانبول ويمتهنون التجارة..

وقاطع بسام ابنه إيهاب وقد تذكر من ماضيه ما جعله يقول:

– يبدو أن قاسما مشتركا يجمع بين حياتينا، حين كنت في مثل سنك كتبت لي تجربة مريرة في السجن دامت ثمان سنوات، رأيت فيها من أشكال العذاب ما يندى له الجبين، وأما أنت فقد كتب لك العذاب النفسي والتوهان في هذا السجن الكبير الذي اسمه الوطن العربي.

– ما رأيته من هذا الجندي الأمريكي في إستانبول جعلني أستغرب وأذهل منه، لقد كان رقيقا مثل فتاة عذراء، وحين استضافنا الأصدقاء في منزلهم لاحظت ارتباكه وعدم اتزان حركاته، ودهشت إلى درجة الخجل حين ناوله أحد أفراد العائلة مشروبا فأسقط الكأس أرضا، ثم لم يمر على هذا الحدث البسيط سوى بضع دقائق حتى قام إلى الحمام، ولم يكد يغلق الباب وراءه حتى انقطع كهرباء البيت كليا،

وخرج مذهولا وهو يستفسر عن سر انقطاع التيار المفاجئ.. ومرت على هذه الأحداث بضع ساعات كدت أنسى خلالها ما حدث، وقد لاحظت أن كل ما حصل جاء متزامنا بالصدفة مع حركات يديه. وحان موعد النوم، فهيأ لنا الأصدقاء غرفة من سريرين، ودخلنا الغرفة سويا وسعد الجندي بوجود تلفاز صغير بالغرفة، وقال لي بإنجليزية أمريكية سنستمتع الليلة بفيلم تركي جميل، إن السينما التركية تتميز بالجودة والوجوه الجميلة. ولم يلبث أن أمسك بمحول التلفاز وظهرت الصورة واضحة وسمع الصوت جهوريا حتى انقطع الإرسال فجأة وانطفأت الصورة، فأمسكت عنه المحول معتقدا أن في الأمر خطأ بسيطا، إلا أنني اكتشفت بذهول أن التلفاز فقد كل مؤشر للإصلاح، لقد احترق في هدوء كأن صاعقة كهربائية أصابته، وتوجهت تلقائيا بنظراتي إلى الجندي فوجدته يرسل إلي نظرات مبهمة وهو لا يدري ماذا صنعت يداه. وزادني من أمره دهشة حين أقبل الصبح وخرجنا معا إلى قلب إستانبول التجاري في جولة استطلاعية، فسهوت عنه لبعض الوقت ونحن نذرع شارع «استقلال» فإذا بضجة عالية حولي تردني إلى وعيي فوجدت أن صاحبي الأمريكي كاد يصعقه الترام، وحين سألته عن سر حركاته غير الواعية واللامسؤولة قال لي بهدوء عجيب: «صدقني، لم أسمع صرير عجلاته، ومررت فوق سكته دون وعي مني بذلك». في هذه اللحظة بالذات خالجني إحساس غريب تجاهه وقلت في خاطري «إن هذا الرجل الغريب منحوس.. ويبدو أن هربه من العراق كان في صالح العراق وأهل العراق، لكنه أتى إلى تركيا فشرعت بطارية نحسه في الاشتغال والله وحده يعلم إلى أين سيصل به المآل وماذا سيحدث لنا في حضوره ونحن برفقته وجواره». وعدنا في وقت الظهيرة إلى بيت الأصدقاء ووجدنا مائدة الغداء جاهزة، فأكلنا أكلا طيبا وحمدت الله أن وجبة الغداء مرت على خير، إلا أني ارتبت حين سمعته يشارك

أهل البيت في حديثهم ويقول لهم بحماسة أن رغبته أكيدة في المكوث في إستانبول وأن المدينة أعجبته وأنه يرغب جادا في الاشتغال معهم بالتجارة. في تلك الأثناء لم أتمالك نفسي فأشرت إلى رب الأسرة بتغيير الموضوع، وحين أقبل المساء استغللت فرصة تواجده بمفرده فأخذته على شرفة الصالون وقلت له دون مواربة:

- احذر هذا الرجل الغريب، إنه لا يأتي إلا بحركات منحوسة، فلا يكاد يمر يوم بخير دون أن يتلف شيئا أو يتسبب في كارثة ما. وأخشى عليكم إن شاركتكم تجارتكم أن يتسبب لكم في الكساد ويجركم إلى الإفلاس.. صدقني لم أكن أومن بالنحس ولا كنت يوما متشائما في حياتي أو متطيرا لكن ما رأيت من هذا الجندي الأمريكي العجيب جعلني أذهل منه وأعجب من أمره..

وأتذكر الآن أن مصائبه ابتدأت حينما رافقته لأول مرة من شمال العراق إلى حدود تركيا، فقد كادت تنقلب بنا السيارة التي كانت تقلنا لولا ألطاف الله وتحكم السائق في المقود بقوة، وكنت أظنه وقتها امرأة. ورد علي صاحب البيت مطمئنا:

- لا تخش شيئا، فليس من مصلحتنا إبقاؤه عندنا، فمهمتنا انتهت حين ساعدناه على اجتياز الحدود، وما كنا لنفعل ذلك لولا علمي المسبق بمدى رفضه لمبدأ الحرب ضد العراق واحتلاله. وقد حكى عنه بعض الجنود العراقيين الذين رافقوه في بعض الحملات التمشيطية أنه لم يطلق رصاصة قط، وأنه كان يسعى دوما إلى الاختفاء، إلى أن وجد سبيله إلى منطقتنا المحسوبة مستقلة ذاتيا.

وعقب بسام ساخرا:

- ولماذا يجشم نفسه تعب إطلاق رصاصة؟ فحركات يديه المباركة تشعل النار أينما ولّى، وتكسر وتتلف وتورط في الخسران دون قصد ولا نية.

ثم فغر بسام فاه وهو ينصت إلى آخر تفاصيل حكايات إيهاب المثيرة وضحك كثيرا حين سمعه يقول:

– من شدة تشاؤمي منه لم أشأ إخباره بوجهة سفري، فقد خشيت أن يتسبب علمه بالأمر في ما لا يدور بالحسبان، وتوجست منه خيفة حين خطر ببالي أن يتمسك بي ويطلب مني مرافقته لي في سفري إلى المغرب، ولهذا أوصيت تلك العائلة الكردية الكريمة التي أكرمتنا أن تلتزم بالصمت وتترك الأمر في طي الكتمان إلى أن أغادر تركيا نهائيا.

ولم يكد إيهاب ينهي حديثه الطويل المتشعب حتى انبلج الصبح فقام كلاهما يستعد للنوم جارّا وراءه ذيلا من علامات الاستفهام لم يجد بعد الجواب الشافي وغليل حديث لم يشف بعد. وتوجه إيهاب إلى غرفة إياد بينما ذهب بسام إلى الغرفة المقابلة. واستلقى على السرير بعد أن أطفأ النور وفتح عينيه في العتمة. لم تكن الظلمة قاتمة فقد بدأت خيوط الفجر تنسل في لمعان، وجفل النوم من عينيه ولم يحاول مراودته فقال في دخيلته «إنها ليلة استثنائية لن تتكرر مرتين في العمر ولا قيمة للنوم فيها..» وظل يهيم على وجهه في سراديب ذاكرته، وتذكر زواجه من أم إيهاب، وكيف أنه أحبها في البداية وتزوجها على مبدأ الحب، إلا أن التنافر والمشاكسات بدأت تلقي بظلالها على علاقتهما، فانقلب البيت فجأة إلى بؤرة من التوتر والتجهم. ولم يتحمل بسام كثيرا هذا الوضع إلا أنه لم يجرؤ على المبادرة باقتراح الانفصال لأنه كان يعتقد جازما أن البادرة ستخرج لا مناص قريبا من فم زوجته. وهكذا كان، فقد استشاطت يوما غضبا حين تأخر عنها كثيرا في سهرته الليلية مع زمرة من أصدقائه فقذفته بكلمات نابية فظل أمامها مسمرا جامدا كصنم، وزاد صمته من فورة غضبها فقالت له بعد أن نفد صبرها «طلقني، فالطلاق منك أهون لي من حياة النكد»، فقال لها بدم بارد: «لك ما تشائين.. أنت طالق» ثم

حمد الله كثيرا في سره وهو يقول: «جات منك يا جميل». وعادت به الذاكرة إلى حاضره العجيب فوجد نفسه يقول بصوت أشبه بالهمس «رحمة الله عليك يا أم إيهاب، لقد انفصلت عنك وأنا على كره لك، لكن يبدو لي الآن أني ظلمتك، فقد أهديتني ابنا وسيما، رابط الجأش، ناجحا في حياته في هذه المرحلة من العمر، وهذه هدية أثيرة لن أنساها لك ما حييت». وهامت به الذاكرة وهو يتخيلها بعد الانفصال مباشرة في كنف زوج آخر، واستغرب كيف أمكنها أن توهم زوجها الثاني بحملها منه وكيف أنه لم يخطر بباله أن يكون هذا الولد ابنا لرجل آخر، واستغرب أكثر حين علم من إيهاب أن أباه السوري لم يرزق بولد بعده مما يدل على أنه كان عاقر. وتأمل بسام واقع ابنه بعيون مبهورة، وأيقن لأول مرة في حياته أن القدر حق وأن ألطافه هي التي مهدت لابنه سبل العيش في كنف أسرة سعيدة أنعم الله عليها بالاستقرار ورغد العيش. وأيقن أيضا أن يدي الله مبسوطتان وقد تكرمتا على ابنه بأب عطوف ودود ومحب طيلة سنوات طفولته وشبابه.. ورن منبه الساعة وهو يشير إلى السابعة صباحا فقطع عليه سيل تذكره وتوهانه فقام متوعكا بعد ليلة بيضاء لم ينعم فيها بسنة من النوم. وأمسك بجبينه فألفاه ساخنا، فاتجه توا إلى الحمام ليأخذ دوشا باردا فيطرد عنه الكسل والحمى المتنامية في جسده. ثم توجه بعد ذلك مباشرة إلى المطبخ وهو ينوي أن يهيئ فطورا شهيا له ولابنه إيهاب الذي اعتبره أعطية نادرة من القدر. وما كاد يدنو من خزانة الصحون وتمتد يده إلى أحد رفوفها حتى سقط منه أحد الصحون. وأحدث الصحن وهو يتكسر رويدا رويدا على البلاط ضجيجا مرتفعا خرق هدأة الصباح الباكر، فحدث ما كان يتحاشاه فوجد إيهاب بجانبه محمر العينين يسأله عن الذي حدث، فنظر إليه متحيرا ثم قال له بعد برهة صمت:

- أعتذر، لقد أيقظتك بضجيجي.

- ليس في الأمر إزعاج ولا ما يدعو إلى الاعتذار أبي، لقد خشيت أن يكون حدث لك مكروه.

- حز في نفسي أن أكسر أجمل صحن في مطبخ إياد.

- للمواعين آجالها أيضا، فلا تأسف، نحن نقول في سوريا «انكسر الشر» فماذا تقولون في نفس الأمر في العراق؟

- نقول «غدا الشر».

وضحكا ملء فيهما وهما يستحضران معا سلسلة من الأمثال الشعبية التي تثير الضحك أحيانا. وجمعتهما مائدة الفطور في ذلك الصباح الفريد، فقال إيهاب لأبيه وقد افترت شفتاه عن ابتسامة مشرقة:

- الآن قد أصبح بيننا «عيش وملح»..

- لكن بيننا يا ابني ما هو أقوى من العيش والملح.

- أما أنا فأريدك صديقا حميما وليس أبا فقط، فقد تعودت من أبي السوري الصراحة والتلقائية والمودة المتبادلة.

- وأنا لن أكون لك إلا كما تشاء، صديقا ودودا..

وابتسم إيهاب قبل أن يعقب على كلمات والده ثم تجرأ فقال:

- ولهذا سأناديك في حضور مها «كاظم»، ما رأيك؟ ما دمت في عينيها بسام.

واندهش بسام من حديث إيهاب الجريء فقال له مواريا حسرته:

- نادني بما تشاء، فلن أغضب منك أبدا.

وقال إيهاب وقد لمح في عيني أبيه طيف أسى يمرق كسحابة صيف عابرة:

- أنا أعرف يقينا مدى انزعاجك من مشكلة مها الطارئة لكني لا أستطيع في الوقت الراهن أن أواجهها بحقيقة الأمر، ولهذا سأسعى لمداراتها إلى أن تحين اللحظة المناسبة.

ونظر بسام إلى إيهاب نظرة غامضة وأراد أن ينطق بكلمة إلا أن إيهاب قال له في تودد:

- لقد حكى لي إياد عن مدى الحب الكبير الذي جمعكما، واستغربت كيف لم تفكر في الاقتران بها.

- إنها مسألة مبدأ.

- وهل ستبقى على هذا المبدأ إلى نهاية العمر؟

- إلى نهاية العمر.

هنا وجد إيهاب ذاته يهمس لنفسه متحيرا «**والله أمرك غريب يا أبي، فلماذا تتضايق إذن من نسيانها لك؟ ألم تجحد لها حقها في الحياة والمتعة والعشرة الطيبة؟ لماذا تسعى جادا لتذكيرها بك الآن بعد أن أصاب ذاكرتها ما أصابها؟**».

ولم يجد إيهاب ما يضيفه بعد أن وصله تعنت أبيه الصارخ، فقال له بنظرات عطوفة:

- أتمنى لها الشفاء العاجل وأن تعود إلى طبيعتها في أقرب الآجال حتى يتسنى لها فهمك ومواجهتك بالمنطق والعقل.

فقال له بسام وقد ثبت نظراته في عيني إيهاب:

- سر واحد أخفيته عن الجميع ولا يعلمه أحد سواي ولا حتى إياد، هو أنني حين غادرت المغرب وتوجهت إلى الإمارات للعمل بإحدى جامعاتها جاء ذلك متزامنا تماما مع أزمة شغل طارئة واجهتني هنا في المغرب. فقد استغنت عني الجامعة فجأة ضمن مجموعة من الأساتذة العرضيين الذين كانوا يتقاضون أجورهم على الساعات الإضافية. وقد كان ذلك العمل بمثابة موردي الوحيد في العيش وانقطع عني فجأة بدون سابق إنذار أو إعلان. ولم أشأ أن أخبر إياد بالأمر لأنني شعرت بما يشبه المهانة أنا الذي قضيت أكثر من عقد من الزمن في هذا البلد الذي أحببته وبغتة انقطعت عني

سبل العمل والعيش به.. وإذا كنت قد ارتكبت من خطأ ما في حق مها فهو إخفاء هذا الأمر عنها والذي كظمته في خاطري وطويته في صدري كألم دفين.

واستغرب إيهاب أمر أبيه ومدى قدرته على تحمل الألم بمفرده وقدرته الكبيرة أيضا، وهو في هذه السن، على تحمل متاعب الهجرة مجددا والتأقلم في مجتمع جديد والسعي وراء الرزق في بلد عربي آخر. لكنه استغرب منه أكثر هذه القدرة على ترك الحبيبة في أيدي القدر وكأنه يقول لها باعتباطية مجنونة «لك الله يا حبيبتي». إلا أن صوتا داخليا زمجر بحنايا إيهاب وهو يذكره ساخرا بأنه أتى بنفس الأفعال في يوم من أيام حياته.. واقشعر بدنه لهذا الخاطر حين أدرك أن المصائر أيضا تتوارث وأن دوامة التاريخ تكر وتفر وتعيد الكرة ثانية عبر الأجيال، فتذكر صورة أكثر من امرأة أحبها وتخلى عنها دون مبرر معقول يذكر. **أترانا ثلة من المجانين تبحث في قفر الدنيا عن حورية بحر أو نهر قادرة على تحمل حماقاتنا؟ أترى الحب أضحى لدينا لعبة طفل يتعشقها ويبذل قصارى جهده للحصول عليها وما يكاد يتملكها حتى يلقي بها جزافا في سلة المهملات وكأن العشق لدينا أصبح قرينا بصفة الملل والضجر الذي لا دواء لنا منه؟ ثم نشتكي أحيانا من الوحدة ومن الحظ العاثر، يا لها من مفارقة عجيبة حين تصبح الأشياء تسمى بأضدادها.**

واستفاق إيهاب مذعورا وهو يخرس هذا الصوت العنيف بداخله، فقام متوجها إلى غرفة نومه وقام والده عن المائدة حاملا معه إلى المطبخ صينية الشاي. وهمّ إيهاب بمغادرة المنزل فوجد والده يقول له مستفسرا:

- إلى أين إن شاء الله؟

- سأخرج إلى المدينة لقضاء بعض الأغراض وربما أزور مها

بعدها في المستشفى.

- أما أنا فسأذهب إلى السوق لاقتناء ما يلزم، فقد يعود إياد ليلا، وأود أن يجد وجبة العشاء جاهزة، وقد أعود مها بعدها إذا أسعفني الوقت.

وافترق الأب والابن دون أن يحددا موعد اللقاء، وهام كل منهما على وجهه على انفراد، إلا أن هاجسا طارئا خطر ببال إيهاب فألفى ذاته يردد في خاطره: «لماذا لا أبدأ بزيارة مها في الصباح، وأترك قضاء الأغراض إلى ساعة لاحقة، فقد تسعدها زيارتي لها صباحا»، ثم وجد رجليه تهرولان دون تخطيط مسبق إلى مرآب العمارة حيث تربض سيارته. وما هي إلا لحظات حتى طرقت أصابعه نوافذ الغرفة الزجاجية من الخارج. وكانت مها قد بدأت تسترجع عافيتها تدريجيا، فوجدها تطل من إحدى نوافذ الغرفة على حديقة المستشفى. فقال لها وقد اكتسى صوته نبرة ابتهاج عفوي:

- أهلا بالحلوين.

- أنت الأحلى يا أعز الناس.

- فكرت بزيارتك اليوم وكنت سأقضي بعض الأغراض وآتي بعدها لزيارتك ثم سنح ببالي أن أقلب البرنامج فبدأت بزيارتك الصباحية.

- والله فيك الخير يا بسام.

- هل أفطرت؟

- نعم، فطور المرضى الذي بدأت أسأمه.

- ستخرجين قريبا إن شاء الله، وتعودين إلى حياتك الطبيعية وعملك وتعود المياه إلى مجاريها.

- أرجو ذلك قريبا.

- سيكون قريبا إن شاء الله، لقد أخبرني طبيبك بأن مغادرتك

للمستشفى قد تكون في غضون هذا الأسبوع وعلى الأرجح في نهايته.

- هذا خبر سار أسعدتني به.

ثم صمتت قليلا وجالت عيناها في حديقة المستشفى والتفتت تتملى بهدوء عيني بسام - إيهاب، وارتبك وهو يستقبل دفء نظراتها، فابتسم لها فقالت له:

- أود أن أطلب منك شيئا.

- أنا رهن إشارتك، ماذا تودين عزيزتي؟

- أفكر حين أغادر المستشفى أن آخذ أسبوعا إضافيا للنقاهة، وأرغب من كل قلبي أن نسافر معا إلى أجمل المدن المغربية.

واضطرب إيهاب أيما اضطراب وهو يستقبل اقتراح مها، ولم يجد ما يقوله لها، ولم تكن له القدرة على الاعتراض على مقترحها، فرد عليها موافقا:

- كما تشائين عزيزتي، لا أستطيع أن أرفض لك طلبا. لكن قولي أي المدن تقترحين؟

- إنها مدنك المفضلة، وقد كنت من شجعني على زيارتها في الماضي.. وكنت في الماضي القريب وفي ظروف خاصة أنت تعلمها قد ذهبت بمفردي إلى مدينة الصويرة الجميلة وقضيت بها بضعة أشهر كانت بالنسبة لي بمثابة فضاء للاستجمام ساعدني على استرجاع عافيتي النفسية، وبعدها زرت مراكش، وتمنيت وقتها لو كنت معي.

- لا شك أن رحلتنا ستكون فريدة؟

- ولن تنحصر فقط على الصويرة ومراكش، فقد نزور مناطق قل نظيرها في العالم تتواجد بنواحي مراكش، وقد تطأ أقدامنا أعلى قمة جبلية في المغرب، هل تعرفها؟

ها قد بدأت أسئلتها تمطر كالرذاذ وسيل ذكرياتها ينهمر من علٍ

كشلال، فهل تستطيع يا إيهاب أن تتمادى معها في لعبة التمويه؟ وهل بمقدورك أن تتحمل بصبر أنشوطة كذبك المتواتر التي بدأت تضيق الخناق على عنقك وتكتم أنفاسك؟ وانتفض إيهاب وكأنه يطرد من دخيلته شبح الافتضاح والتعري، فقال لها وهو يداري ارتباكه:

- ومن لا يعلم بذلك؟

قالها وهو يتمنى من صميم قلبه ألا تصر على سماع اسم الجبل على لسانه، وأدرك أن اللعبة ليست باليسيرة خاصة مع فتاة تنبش الماضي بأناة وتود أن يسايرها في عملية النبش والتنقيب. وضحك من نفسه حين اكتشف جهله التام لخريطة المغرب وجغرافيته، وارتفع صوت جهوري صاخب بداخله في قهقهة ساخرة حين أدرك أنه بكل سذاجة لا يعرف أين ينتهي البحر في هذا البلد وأين يبدأ الجبل. وقال في خاطره «**سأسايرها في لعبة التذكر ولن أزيد في أجوبتي على النبس بكلمة نعم أو لا متوخيا كامل الحذر من أن يزل لساني أو يخذلني دهائي**».

وأردفت مها قائلة وقد ارتسمت على محياها ابتسامة مليحة:

- ستكون الرحلة خلابة خاصة في أعالي جبل توبقال حيث القمم مكللة بثلوج لا تذوب..

وبدرت من إيهاب حركة عفوية فوجد يده تربت على ظهر كفها بحنو، ثم رفع بصره ناحية الباب فإذا بشبح رجل يمرق مسرعا، فخيل إليه أنه كان خلف النافذة يسمع ويرى ما دار بينه وبين مها، واتجه توا صوب الباب فرمقت عيناه طيف رجل مديد القامة ينعطف بسرعة على ردهة جانبية، وخيل إليه أنه رجل أشيب أو أنه كان على الأرجح يحمل طاقية بيضاء. وعاد إلى الغرفة وقد هزه هاجس عنيف أن يكون بسام قد اقتفى أثره وجاء ليتنصت عليه خلسة وهو يحدث مها. فندم ندما شديدا على حركة يده العفوية التي بدرت منه دون أن يحسب

الحساب لشيء، ثم عاد يطمئن نفسه بنفسه بالقول «ليس في الأمر ما يربك، لقد أخبرته مسبقا بزيارتي لمها».

ورن هاتف بسام في لحظة كادت تسقط العصا من يديه وهو يغادر محيط المستشفى ويصعد السلالم العالية التي تطل على شبكة الطرق الرئيسية التي تربط العاصمة بالدار البيضاء، واستقبل على الهاتف صوتا غريبا يستفسره إن كانت له صلة قرابة أو صداقة بالصحافي العراقي إياد فهمي شاكر. وارتج صدر بسام قبل أن ينبس بكلمة، وخيل إليه أن السلالم ارتطمت ببعضها واندفنت في عمق الأرض، فرد على السائل بسؤال آخر:

- مَن تكون أنت؟ سيدي.

- يؤسفني أن أخبرك بأنني أحدثك من داخل المستشفى الحكومي بأكادير، فقد تعرض إياد إلى حادثة سير مروعة أودت بحياته. وقد اتصلنا بك لأننا وجدنا أن آخر مكالمة تلقاها على هاتفه كانت على هذا الرقم..

وانقطع خط الحديث فجأة بسقوط العصا وتدحرج الهاتف على سلالم المعبر، وانكفأ بسام على وجهه وألقى بطاقيته ناحية الهاتف ثم انخرط في بكاء مكتوم مرير. ومرت عليه امرأة من العابرين فقالت له بنبرة مواسية:

- ما الأمر؟ سيدي، هل حدث مكروه لأحد أقاربك في مستشفى ابن سيناء؟

ولم يرد على سؤالها واستمر في نحيبه لا يشعر بعبور العابرين، وقد اسودت الدنيا، كل الدنيا في عينيه بفقدان الصديق العزيز القريب الودود الضحوك المتفائل بالحياة رغم قساوتها. ثم جفل حين بدأ يقرأ في أعين المارة نظرات الشفقة وهو يكره حد المقت الإشفاق أو الشفقة. ولعل هذا ما جعله يرحل في صمت إلى الإمارات والعمل بها

لأنه لا يرغب البتة أن يكون محل عطف أو إشفاق من أحد، وهذا ما لا يمكن أن يستوعبه لا إياد ولا مها. ونزل درجتين من السلم بعد أن نهر دموعه وجفف جفنيه، ثم أمسك عصاه والتقط هاتفه وطاقيته وهبط بتؤدة وأنفاسه تتصاعد. واستقل أول حافلة متوجهة إلى وسط المدينة. ودخل بيت إياد متوجسا وهو لا يكاد يصدق ما سمعت أذناه. وانتابه شك في حقيقة الأمر، فبادر بإجراء اتصال هاتفي بإدارة المستشفى في أكادير كي يستفسرها عن الأمر وهو يتمنى من صميم قلبه أن يكون في الخبر خطأ ما حصل دون قصد أو أن يكون الخبر كاذبا من الأساس، إلا أن مسؤول إدارة المستشفى جاءه بالخبر اليقين وقطع له الشك بالحقيقة المرة، وقد زاده يقينا حين زوده بمواصفات صديقه وبالملابس التي كان يرتديها. فاهتز بسام على إثر هذا التقرير الدقيق الذي جاءه على لسان المسؤول واستجمع قواه فقال له بصوت واهن:

– سآتي أنا وابني لاستلام جثمانه، سنكون عندكم في منتصف الليل أو غدا صباحا على أبعد تقدير.

وانتهت المكالمة وجفت الدموع من عيني بسام، ثم استدرك نفسه فوجد أن الوقت لا يرحم وأن عليه أن يخبر إيهاب بالأمر توا. واستقبل إيهاب مكالمة أبيه بنفس متوجسة، وارتبك ارتباكا شديدا حين أحس من نبرة صوته شجنا دفينا وحزنا عميقا. وتوقع أن تسفر الدقائق القادمة على ما لا تحمد عقباه، وتوجس شرا مستطيرا من هذه المكالمة الفجائية التي قلبت رأسه في بداية هذا الصباح. وركب سيارته وانطلق إلى بيت صديقه إياد خائفا يترقب. ووضع إصبعه على جرس المنزل فوصله الرنين كناقوس خطر، وفتح الباب على وجه أبيه الغارق في الأسى بعينيه الحمراوين الدامعتين. ولم تسعفه الكلمات فوقف أمامه واجما في صمت ينتظر أن ينطق أبوه بكلمة الفصل، إلا أن الصدمة كانت أقوى مما تخيل وهو يستقبل على لسان أبيه نعي إياد.

انتهى.. انتهى كل شيء وغاب النور واندثر الوهج وانتشرت الدلسة بين أركان بيتك كعاصفة رملية مزمجرة.. انتهى كل شيء برحيلك يا إياد وانطفأ بغتة كشمعة تلاشى بريقها على هبة ريح مداهمة، وبقي لي الوهم عريضا والبحر فاغرا فاه في وجهي كغول.. انتهى كل شيء برحيلك، فقد كنت لي الأخ الودود أنا الذي فقدت كل الأهل، واستدفأت بحبك الخالص وأخوتك النادرة في بلد الغربة.. كنت لي الصديق الصدوق في زمن عز فيه الصدق والصداقة.. وكنت لي المرفأ الآمن والشط الدافئ أنا الذي فقدت مراكبي وتاهت عني كل مرافئي.. كنت لي العزيز الجميل المتجمل بالصبر دوما وكنت بوصلتي أنا الذي ضيعت كل اتجاهاتي وما عدت أعقد الأمل على شيء ذي بال.. وعدت إليك ثانية لأستدفئ مجددا بوجودك وعطفك ونداوة خلقك.. رحلت عني فجأة ورنين كلماتك الفريدة لا يزال يقرع أذني وكأنك عن غير وعي كنت تهيئني لاستقبال المفاجآت وصد العواصف.. قلت لي عند عودتي مباشرة من الإمارات وأنت تتحدث عن القدر وألطافه: «فهل تراك تتقبل مفاجآته العجيبة إذا ما داهمك يوما بحدث غير متوقع سارا كان أو كئيبا؟» ثم أضفت وكأنك تود أن تطمئن على رباطة جأشي وجميل صبري: «وإذا أغدق عليك القدر بمفاجأة غير مرتقبة ولا متوقعة، تراك ستستقبلها بابتسامة عريضة، بشوشا ومرحبا، أم أنك ستجفل وتقطب الجبين مستنكرا مقدمها من حيث لا تدري وبلا أوان؟» من كان يتكلم إلي وقتها يا إياد؟ وكأنك كنت تقرأ لوحي وأنا مغمض العينين، مطبق الجفون، وكنت تتوخى مني صبرا وأناة وقد أفقدني رحيلك ما تبقى من صبري وأناتي.. ولعلي كنت أستقوي بك في غربتي المترامية اللامتناهية وأتذكر كلماتك دوما ساعة الكدر وأستقطبها من ثنايا الماضي كي أحافظ على توازني وثباتي.. فكيف أفتح عيني على الدنيا بدونك وكيف أسير منتصب

القامـة وقـد انطفـأت كل الفوانيـس فـي طريقي واكتسـح الصدأ أركان قلبي وزأر مزمجرا بحناياي عويل اليأس واشـرأبت رؤوسـه بداخلي كسرب صقور كاسرة في قفر أقفرت مفازاته من الصيد والماء..؟

* * *

التمع بردهة البيت بصيص نور اقشعر له بدن بسام وشعر على إثره بحمى باردة تصلي مفاصله، وسمع طرقا خفيفا على باب غرفته فانتصب واقفا يستقبل ابتسامة ابنه الحزينة. ونظر إليه إيهاب مليا فأدرك أن أباه لم يغمض له جفن طيلة الليلة، فقال له وهو يدرك جيدا دقة الموقف:

- أبي، رجاء لا تحزن كثيرا، فإن الحزن يقتل القلب، وإذا كان القدر قد أخذ منك أعز أصدقائك فاعلم أنني حزين مثلك عليه لأنه أصبح صديقي في غيابك وحضورك، وتذكر جيدا أن القدر كان بك رحيما ورؤوفا، فقد جمع شملنا في الوقت المناسب، وقد كان المرحوم حلقة وصل بيننا، ولولاه ما أمكنني الوصول إليك.. ولقد عرفت فيمن عرفت في الماضي أصدقاء كثرا لكني لم أعثر فيهم على شبه لإياد، فقد كان رحمه الله فريدا، متميزا في كل شيء، وأنا أدرك تماما ثقل المصاب وهول الفقدان، فقد فقدت برحيله جزءا مهما منك لأنه كان لك كل الأهل أنت الذي عشت في منأى عن كل الأحبة والأهل..

وصمت إيهاب قليلا كما ليستجمع شتات أفكاره فأردف قائلا:

- ثم لا تنسَ أنك لا تزال لحد الساعة موفور الحظ إذ لا يزال القدر يحفك برعايته ولطفه، وإذا التفت قليلا فستجدني على يمينك وتجد مها على شمالك..

ونظر بسام إلى إيهاب نظرة حانية وأمسك بذراعه وضمه إليه وهو يغالب نحيبا مكتوما في صدره. وقام إيهاب إلى المطبخ وأتاه بكوب ماء وحثه على شربه، ثم كفكف دموعه بكفيه وأخرجه من الغرفة إلى بهو البيت وهو يقول له:

– سنخرج كلنا من هذه الغرف ومن هذه الدنيا الفانية ولن يمكث فيها أحد، وسنغادر كلنا إلى رحمة الله، نسأل الله اللطف هنا وهناك، ونحمد الله كثيرا على هذا الموت الذي لن يفلت من تذوق ثمرته المرة أحد، فكلنا ذائقو الموت والكل إلى زوال إلا وجه الله..

ثم سها إيهاب عن نفسه وكأنه يهيم في ملكوت بعيد واستعاد أفكاره فجأة فوجد ذاته يقول لأبيه مؤازرا:

– ثم لا تنس أيضا أن القدر كان بك عطوفا حين رد لك مها وأعادها لك من غياهب موت مؤكد وأنك عدت إليها في الوقت المناسب وأنت لا تدري شيئا مما حصل.

وتلقى بسام كلمات ابنه بعين الرضى وخشي أن ينسى تنبيهه، فقال له متداركا:

– بمناسبة الحديث عن مها، فرجاء لا تخبرها بوفاة إياد في الظرف الراهن، فقد تزيد المأساة من أزمتها.

– لم أكن لأجرؤ على إخبارها بحدث حزين كهذا، فأنا أدرك جيدا دقة حالتها النفسية.

ثم أردف بسام في عجلة وكأنه يخشى أن يفلت منه خيط الحديث:

– إني أفكر أن أكلم خالتها..

وفغر إيهاب فاه وتوقع أن يسمع من أبيه الجديد، فقال له مستعجلا:

– فيمَ ستكلمها يا ترى؟

فقال له بسام بنبرة حازمة:

– سأحدثها في أمر ذاكرة مها التي على ما يبدو تعاني من أزمة ما، وأقترح عليها أن تعرضها على طبيب مختص..

واندهش إيهاب وهو يستقبل أفكار أبيه الغريبة، فألفى نفسه

يقول له:

- أنصحك ألا تحدثها الآن بالأمر وأن تنتظر قليلا على الأقل بعد أن تغادر مها المستشفى. وأرى أنه من الأنسب أن تحدثها على انفراد حين تكون مها في عملها مثلا.

- فكرتك صائبة، سأعمل بها.

ولبث بسام هنيهة صامتا ثم أضاف قائلا:

- شيء آخر أود أن أخبرك به.

- ما هو؟

- أود أن أغادر بيت إياد، وقد نسيت في غمرة حزني المداهم أن أخبر عائلته..

- لا تشغل بالك بالأمر، لقد توليت المهمة.

- كيف؟ هل تعرف أحد أفراد عائلة إياد؟

- أعرف أخته التي كانت صديقة أمي الحميمة، وهي بدورها تعيش بدمشق رفقة زوجها الأردني.

وذهل بسام وهو يتلقى أخبارا لم تكن تدور بخلده، ثم علق قائلا وقد تركت الدهشة أثرا بليغا على نبرة صوته:

- كم صغير هذا العالم ونحن نعتقد أننا بعيدون وتفرقنا الجبال والمحيطات والمفازات والأنهار..

- صدقت، وأود أن أخبرك بالمناسبة أنها هي من يسرت سبل إيصال معلومات عنك لأمي بدون قصد ولا نية، وقد تركت لي والدتي ضمن ما تركته مغلفا به رسالة طويلة تحوي صورة لإياد رفقتك بها رقم هاتفه الذي استعنت به للوصول إليك..

- ما أعجب هذه الدنيا، فهي تفاجئنا دائما بالجديد في الوقت الذي لا نتوقع منها جديدا، وتأتينا بالأخبار من حيث لا نحتسب.

واستقبل إيهاب تعليقات أبيه بصمت وذهول، وفجأة تذكر شيئا

أفلت منه في خضم الحديث عن إياد، فقال لأبيه معقبا:

- أرى أنه من الأنسب أن تغادر بيت إياد وتأتي للعيش معي في منزلي، أما أغراض إياد فسنجمعها وندعها في إحدى الغرف ببيتي، فقد تزورنا أخته فجأة، ولها أن تفعل بمخلفاته ما تشاء، فهي أحق منا بأغراض أخيها المتوفى.

وعقب بسام على حديث إيهاب متأسفا بشدة:

- إن أهم مخلفاته سرقت أثناء الحادثة، فقد كانت له آلة تصوير قيمة وآلة تسجيل جد حديثة جلبها له أحد زملائه من الخارج، إضافة إلى ساعة يده التي كانت ذكراه الوحيدة من المرحوم أبيه.

وعجب إيهاب وهو يسمع بأم أذنيه كيف أن الموتى أيضا لا يسلمون من جشع الطامعين، فقال لأبيه مداريا أسفه وحزنه:

- لا يهم شيء على الإطلاق ما دام صاحب هذه الأشياء الجامدة رحل عن هذه الدنيا، وليهنأ السارقون بما سلبوا..

في الصباح الباكر دخلت خالة مها المستشفى بعد أن توسلت للممرضات كي يسمحوا لها بالزيارة في وقت خارج عن وقت الزيارة؛ وألفت مها نائمة فأيقظها حضورها. وحين التقت عيناهما تقدمت نحوها وقبّلت جبينها وربتت على رأسها وكتفيها وهمت بتقبيل يديها، إلا أن مها جفلت واستلت أصابعها من بين يدي خالتها، وقالت لها معاتبة:

- أنا من يجدر بي أن أقبل يديك الكريمتين يا حبيبتي..

وانتبهت مها في حديثها على طيف دمعة يتحير بمآقي خالتها، فاستقامت في سريرها وجلة وقالت مضطربة:

- ما بك حبيبتي؟ هل حدث مكروه؟ ثم ما سر زيارتك لي في هذا الصباح المبكر؟

- اشتقت إليك، فأنا لم أزرك بالأمس.

- صحيح، حتى الأصدقاء غابوا عني ثلاثة أيام كاملة.
- فليرحلوا عنك جميعا، إني أتشاءم من حضورهم.
- لماذا تتحدثين عنهم هكذا يا حبيبتي؟
- لم أرتح إليهم حين رأيتهم بجوار سريرك لأول مرة، ثم إنه لا جدوى من وجودهم في حياتك.
- وأي فائدة ترجينها منهم يا خالتي؟ إنهم مجرد أصدقاء، ثم لا تنسي أن فضلهم علي كبير، فهم أول من وقف على سريري يوم الحادثة.

ووجمت الخالة، وجالت بنظراتها في أرجاء الغرفة متحاشية النظر في عيني مها. وأدركت مها قصدها فغيرت مجرى الحديث توا، فقالت لخالتها متسائلة:

- كأنك تخفين عني شيئا، ما سر زيارتك الفجائية لي في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟

وارتبكت الخالة قبل أن تجيب عن سؤالها ثم قالت لمها وقد تلكأت الكلمات في حلقها:

- رأيت حلما أزعجني الليلة.
- لا تهتمي كثيرا بالأحلام يا خالتي، قد تكون مجرد أضغاث أحلام، ثم إن نفسيتك هذه الأيام مضطربة وغير مرتاحة، وهذه الحال تنعكس حتما على الأحلام.
- صحيح، عزيزتي، لقد مرت علي هذه الأيام ككابوس، وقد أثرت على صحتي سلبا، ففقدت شهية الأكل والنوم، وقد أصبح نومي مضطربا، حتى إن عمك أشار علي بزيارة الطبيب.
- اهتمي بصحتك حبيبتي، واحمدي الله كثيرا أن نجاني من موت مؤكد، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..
- نسأل الله اللطف في قضائه وقدره، وأن يجعل الله ما أصابنا

مغفرة لذنوبنا وثوابا لنا.

ثم أمسكت الخالة عن الكلام هنيهة وسرحت عيناها في فضاء الغرفة وكأنما تذكرت شيئا، ونظرت بغتة إلى مها نظرة مستطلعة فقالت لها مبتسمة:

- هل لي أن أعرف متى وكيف عرفت أولئك الأصدقاء الذين صادفتهم عندك قبل أيام؛ يبدو لي أنهم ليسوا مغاربة.

وارتج السؤال بصدر مها كموجة عنيفة تكسرت فجأة على حافة الوجدان، إلا أنها تمالكت نفسها وتظاهرت بالهدوء وابتسمت بشكل تلقائي في وجه خالتها وردت على تساؤلها قائلة:

- صدقت، إنهم عراقيون مقيمون بالمغرب.

- وكيف عرفتهم؟

- جمعتني بهم مناسبات ثقافية عديدة، وبالمناسبة فأحدهم أستاذ جامعي وشاعر وثانيهم صحافي أما ثالثهم، أقصد ذلك الرجل الأشيب صاحب العصا فلا أعرفه، فهو على الأرجح صديق أحدهما.

وصمتت الخالة لحظة وهي تتملى وجه مها وكأنها تستقرئ في ملامحها ما لم ينطقه لسانها، ثم قالت لها بصوت رصين:

- حين كنت في الصويرة، كانت تصلك رسائل كثيرة لا تحمل اسم مرسلها، لمن تكون فيهم؟

وكي تفلت مها من جلسة التحقيق تظاهرت بنسيان الحدث نهائيا فقالت متسائلة:

- أية رسائل؟ لا أذكر أنني تلقيت برسائل من أحد.

- كيف يا ابنتي؟ أنا ناولتك إياها لحظة عودتك من الصويرة.

- صدقيني خالتي، لم أعد أذكر شيئا.

واندهشت خالتها للأمر وانتابها هاجس مخيف حرّك الوساوس بداخلها، إلا أنها تغلبت على هواجسها بسرعة ومسحت من صدرها

غبارها وهي تقول لمها جهرا:

- لا تهتمي بالأمر عزيزتي، من منا لا ينسى.

وتخلصت مها بيسر ودهاء من مأزق النبش في الماضي والرد على أسئلة غير مرغوب فيها أو بالأحرى لا تملك لها جوابا. ودخلت الممرضة عليهما محضرة وجبة الفطور، وحين وجدت الخالة قالت لها مبشرة:

- أبشري، سيدتي، لقد تحدد موعد مغادرة مها للمستشفى، ستغادر بعد غد إن شاء الله.

واغرورقت عينا خالة مها بدمعتين ساخنتين فضمت إليها مها ضمة عطوفة وحمدت الله كثيرا على لطف المصاب، ثم قامت تودعها واعدة إياها بالعودة يوم المغادرة رفقة زوجها. وقبل أن تغادر الغرفة دنت من الممرضة وقبلتها ونفحتها ببعض المال وهي تقول لها:

- هذه حلاوتك، لقد بشرتني بالخبر السعيد، بشرك الله بالجنة.

ولم تكد تخلو الغرفة من الخالة والممرضة حتى تسرب إيهاب كريح إلى غرفة مها وهو يقول ضاحكا:

- وصلت قبل قليل ولمحت خالتك والممرضة بجوارك واختفيت في إحدى العطفات حتى تغادرا.

- ولماذا أخفيت نفسك، لقد أصبحت خالتي تعرفكم، حتى أنها سألتني اليوم عنكم.

- صحيح؟ وماذا أخبرتها؟

- قلت لها الحقيقة باختصار.

واهتز إيهاب على إثر سماع كلمة «حقيقة»، فقال لها مستفسرا بإصرار:

- أية حقيقة؟ هل لي أن أعرف ماذا قلت لها بالتحديد؟

- قلت لها ما تعرفه أنت بالتأكيد.

- ماذا؟

- أنا لم أخبرها عن أسمائكم، لكني قلت لها عنك أنني عرفتك في إحدى المناسبات الثقافية ليس إلا.

- جميل، وماذا قلت لها عن الآخرين؟

- ولماذا تصر على معرفة ردي المفصل؟ كأن الأمر مهم جدا أو خطير.

- لا، أبدا، إنه مجرد حب استطلاع، لكنك لم تخبريني كيف قدمت لها الصديقين الآخرين؟

- قلت لها بكل بساطة عن إياد إنه صحافي، أما عن ذلك الرجل العجوز الأشيب فقلت لها أنني لا أعرفه.. آه.. نسيت.. لقد أخبرتها أيضا أنكم عراقيون مقيمون بالمغرب.

- أحسنت مها، جميل.

- أمرك غريب هذا الصباح.

- ليس في الأمر غرابة، قلت لك إنها مجرد رغبة شخصية في معرفة ردك، وقد أحسنت حين اختصرت مع خالتك الردود ولم تطلعيها على التفاصيل.

فضحكت مها في سرها وهي تقول «**خالتي أيضا كانت تود أن تعرف لكني أوقفت سيل تساؤلاتها بكذبة لائقة..**» وانتبهت من سهوها على شرود إيهاب العميق، وبدت لها سحنته غارقة في أسى دفين، فلم تتردد في سؤاله فقالت له مستفسرة:

- تبدو لي حزينا، ما الأمر؟

وارتبك إيهاب وهو يتلقى ملاحظة مها الدقيقة، وأدرك أن ملامح الوجه تفضح صاحبها، وتذكر للتو تنبيه أبيه له، وتظاهر بالمرح وتحايل على نفسه كي يمسح عن وجهه ملامح الشجن، فوجد نفسه يقول لمها:

- هل من جديد؟
- لديّ جديد سيفرحك.
- صحيح؟ عزيزتي، لا شك أنه متعلق بمغادرتك المستشفى.
- صدقت، سأغادر بعد غد إن شاء الله.
- هذا خبر سار يستحق مني الهدية.
- كيف؟ أية هدية؟

ثم استل العلبة من كيس بلاستيكي وناولها إياها في حركة رشيقة، فارتبكت مها وهي تتسلم هديته، فنظرت إليه نظرة حانية وقالت له معاتبة:

- لماذا أتعبت نفسك؟ فأنا لدي هاتفي الذي نجا بأعجوبة من السرقة..

- أعرف، لكن هذا الهاتف ماركة حديثة وشكله أنيق يليق بمها الجميلة، وأردت أن ندشن به عهدا جديدا من صداقتنا بعد أن كتب الله لك عمرا جديدا..

- شكرا لك بسام، إنها هدية جميلة.

ثم نظرت إليه نظرة خاطفة وكأنما تذكرت شيئا ذا بال كانت قد نسيته في غمرة حديثهما، فقالت له متسائلة:

- أين صديقك إياد؟ كان يزورني باستمرار.

ونزل السؤال على كاهل إيهاب كمطرقة قوية ضربت تلا من الرمال، فشعر بنفسه يتهاوى وهو على حافة السرير، ونظر مليا ناحية النافذة وهو يغالب دمعة تصر على النزول، وقاومها بشدة وهو يقول مفتعلا الهدوء:

- إنه مسافر، ذهب إلى مدينة أغادير لتغطية نشاط ثقافي.

- جميل، يعجبني في صديقك حماسته وحبه لعمله، ويبدو لي من خلال حديثك عنه أنه صحافي ناجح.

ورد عليها إيهاب وقلبه يتمزق من الكدر:

- صحيح، قليلون هم الناس الذين يشبهونه.

وأدرك إيهاب أنه لو تمادى في حديثه معها عن إياد فلن يستطيع أن يتمالك نفسه حتى النهاية، فقلب دفة الحديث دون أن تعي مها سبب ذلك، فوجد نفسه يقول لها:

- هلا حدثيني عن طفولتك؟ أكاد لا أعرف شيئا عن مها الطفلة.

وردت عليه مها مازحة وهي تقول:

- ومن قال لك أنني كبرت، فأنا ما زلت طفلة وسأبقى طفلة ما حييت.

فقال في سره وهو يتأملها بصمت: «لعل هذا سر من أسرار انجذابي إليك، نظرات عينيك الطفولية وعفويتك التي تنم عن السذاجة أحيانا، بيد أني أعشق في عيون النساء هذا الطيف من البراءة الطفولية وهذه المسحة من السذاجة.. وأنفر دون وعي مني من المرأة التي تقذفني بنظرات جريئة إلى درجة القحة وهي تعتقد أنها ستستميلني بجرأتها وصلابتها..» وعاد إيهاب إلى نفسه فألفى مها تنظر إليه مليا وتنتظر تعليقه، فقال لها مؤمنا:

- لعل أجمل ما فيك هذه المسحة الطفولية في عينيك، وستبقين طفلة في عيني ولو بلغت من العمر عتيا.

وضحكت مها ملء فيها وقالت له مؤاخذة:

- ماذا تقول يا بسام؟ اللهم نجني من سوء أرذل العمر.

- لا تخشي شيئا يا عزيزتي، فأنت ستظلين طفلة ما حييت.

ثم تدارك إيهاب نفسه فعاد يطرح سؤاله ثانية على مها ويقول:

- أنا في انتظار ردك..

ونظرت إليه مها نظرة متأملة ثم علقت نظراتها في ركن الغرفة المعتم، وابتسمت لبسام - إيهاب قبل أن تقول:

– أذكر قصة مدرس طريف، درس لي اللغة العربية حين كنت لا أزال في سنتي الثانية من التعليم الإعدادي.. وكانت الإعدادية وقتها خاصة بالإناث فقط وكنت أدرس ضمن فصل من الفتيات اجتمع في خصالهن النزق والشغب الذي لا ينتهي، وكنت أتساءل حينها، هل هن مشاغبات حقا أم أن المدرس المسكين هو الذي لا يملك القدرة على التحكم في القسم؟ وأذكر ضمن ما أذكره أنه كان يولينا ظهره ليكتب في السبورة شيئا أو يشرح جملة، وحين يلتفت إلينا يجد الواقفات أكثر من الجالسات.. وبلغت الجرأة ببعضهن حدها، فكن لا يتوانين عن الصعود فوق الطاولات ورفع تنوراتهن إلى بطونهن والشروع في الرقص كأنهن جنيات على شط البحر. بيد أن الذي أضحكني فيه كثيرا ولا يزال أن ملاحظاته الشخصية كانت طريفة جدا إلى درجة السذاجة، فكان يكتب مثلا في خانة السيرة لإحدى التلميذات المهذبات: «تلميذة مهذبة، لا تصعد فوق الطاولة»، أما إذا كانت التلميذة غير مهذبة فإنه يذيل لها ملاحظاته كالتالي: «تلميذة مشاغبة، ترقص فوق الطاولة».

وتوقعت مها أن يضحك إيهاب لحكايتها إلا أنها وجدته ثابت النظرات، زامّ الشفتين، لا يحرك ساكنا ولا يرف له جفن، فاندهشت لأمره، فقالت له متحيرة:

– ألم تعجبك حكايتي؟

ولم يستطع إيهاب أن يثبت على موقفه ويستمر في حركاته التمثيلية فانطلق في ضحكة مسترسلة جهورية أثارت مها، ثم قال لها مازحا:

– أردت أن أتظاهر بأن الحكاية لم ترقني إلا أنني لم أستطع التحكم في نفسي فأفلتت مني ضحكاتي رغما عني.

– أين تعلمت هذه الشيطنة أيها العفريت المارد؟ لم أعهدك

هكذا.

ورنت كلمات مها في أذنيه كجرس منبه، ودق قلبه دقات متواترة عنيفة، وخشي أن تستفيق ذاكرة مها فجأة على تفاصيل الماضي البعيد، فارتاب من نفسه وصوت خافت يقرع صدره بهدوء: «**تراك تتمنى من صميم قلبك أن تبقى ذاكرة مها نائمة إلى الأبد؟ تراك انغمست في اللعبة واستمالتك خيوطها وبدأت تشعر بصعوبة التخلي عنها؟ ثم أين وعدك لأبيك؟ أم أنك بوعي أو بدونه تسعى إلى العمل بنصيحة المرحوم إياد الذي حثك يوما على تبني اللعبة فقط من أجل اللعب بأعصاب أبيك؟ أتراك تلعب بأعصابه حقا أم أنك تلعب بالنار في لعبة غير مأمونة؟**» ولم يجد ما يقوله لها ردا على سؤالها فأردف قائلا:

– لعلي تعلمت بعض دروس الشيطنة في الإمارات.

– الأسفار أم المعارف والتجارب، ونحن نقول في المغرب: «عاش من جال وشاف».

– أما أنا فأقول عن نفسي أنني تعلمت الشيطنة منذ سنوات الصبا الأولى، لقد كنت صبيا مشاكسا ومشاغبا، وفوق ذلك كنت محبوبا.

– يا لك من محظوظ.

– أذكر من أفعالي الشيطانية وأنا لم أقفل بعد الثامنة من عمري، أني ضحكت يوما على أقراني الأطفال في المدرسة فقلت لهم بجزم: «أنا أملك وصفة لصنع الشامبو»، وعجب الأطفال من أمري وأصروا على معرفة الخلطة وكيفية تحضيرها، واستغللت ثقتهم العمياء بي وسذاجتهم المطلقة فقلت لهم: «إذا رغبتم أن أطلعكم على سر الخلطة فلكم أن تنفحوني بدنانيركم». وكان الآباء وقتها يزودون أبناءهم بربع دينار أو نصفه أو دينار كامل على أكبر تقدير لاقتناء الحلوى أو ما شاكل، فتطوع أكبرهم سنا بجمع النقود من الأطفال الذين يتوقون إلى الاطلاع على سر الوصفة. وفرغت جيوبهم فجأة وامتلأت بدلها

جيوبي، ودعوتهم جميعا إلى بيت العائلة وصعدت بهم إلى السطح الفسيح ثم أتيتهم بجفنة من الماء وبمسحوق الصابون، وقمت بخلط المسحوق بالماء بخفة متناهية إلى أن امتلأت الجفنة برغوة الصابون، وعلق أحدهم قائلا:

- وأين لون الشامبو؟ نريده أصفر.

وأجبته بسرعة فائقة لأضع حدا لسيل تساؤلاتهم:

- بسيطة، نأتي بجيل حمام باللون الذي نريده ثم نخلطه بماء الصابون، وهكذا يصبح لديكم شامبو باللون الذي ترغبونه..

ثم نزلت الطابق الأول وأتيت بالجيل وخلطته بماء الصابون فأصبحت الخلطة صفراء، وقلت لهم وهم ينظرون إلي بعيون منبهرة من الإنجاز:

- بعد هذه العملية يمكنكم إفراغ هذه الكمية من الشامبو في قنينات بشتى الأحجام ثم تشرعون في عملية الإعلانات.

وحين انتهيت من هذا الإنجاز العجيب فاجأني أصغرهم سنا وهو يستفسرني بسذاجة قائلا:

- وهل تصلح هذه الوصفة للقضاء على القمل؟

واهتزت مها ضحكا على إثر حكاية إيهاب الطريفة، وقالت له معقبة:

- لقد اعتقدك هذا الطفل المسكين صيدليا.

- هذا ما يبدو.. ولم تنته اللعبة عند هذا الحد، ففي صباح الغد وقد أصبحت جيوبي ممتلئة بدنانيرهم اندفعت إلى اقتناء أكثر من نوع من الحلوى من تلك التي تباع على أبواب المدارس، وبدأت نظراتهم تتسلل إلي شزرا، ذلك أنني حرمتهم من القدرة على ابتياع ولو صنف واحد من الحلوى، وكنت قد اشتريت أصنافا متنوعة من المصاصات وشرعت في مصها دفعة واحدة، فجاءني أجرؤهم فقال لي بتحد:

- دعني أمص.

وأذنت له بمصة واحدة على عجل، وجاء الثاني فالثالث حتى أصبحوا أمامي في طابور طويل، عيونهم ولهى وشفاههم تتحلب من الاشتهاء ويدي ممدودة إليهم بمصاصتي بيد أن يدي الأخرى تضرب على قفا من تسول له نفسه الإطالة في المص. وأثار مشهدنا وكيلة المدرسة ففاجأتني وأنا أضرب على قفا أحدهم ومصاصتي في فمه، وحين استفسرت عن سر الطابور أراد صاحب «وصفة القمل» أن يشرح لها فلكزته من الخلف فزم شفتيه ولم ينبس بكلمة، وأفلتُّ يومها من علقة بأعجوبة.

وتوقع إيهاب أن يدغدغ رنين ضحكتها الصافية أذنيه إلا أنه اصطدم بنظراتها الواجمة. واعتقدها بادئ الأمر أنها تبادله لعبة بلعبة، ثم التفت تلقائيا ناحية الباب فإذا ببسام على العتبة ينظر إليهما بإمعان. وارتبك إيهاب لحضور أبيه في تلك الساعة، إلا أنه تدارك الموقف فقام من السرير مرحبا به وهو يقول له مبتسما:

- أهلا كاظم، مفاجأة سعيدة.

وغمغم بسام في خاطره وهو يقول متذمرا: «**يصح لك الآن يا ابني أن تناديني كاظم، أما أنت يا بسام الثاني فلك أن تبتسم وتبتسم وتبتسم بعد أن ابتسم لك القدر مرتين دفعة واحدة**». وانتبه بسام من حديثه المكظوم على نظرات مها الحيادية، فشعر بها كسهام نارية تخترق صدره وتتشظى بدواخله كنيازك ثم تنطفئ مخلفة الرماد أو بقاياه. وأطرق قليلا وهو ينظر إليها ساهما بيد أن عينيه تجولان في الفراغ وخواطره تهيم في السديم المترامي بحناياه. ثم التفت إلى ابنه فألفاه مأخوذا بوقفته الجامدة ونظراته الشاردة وكأنه يقول له سرا: «قل أي شيء ولا تظل صامتا فإن صمتك يجلدني ويصفعني..» وفي لحظة مباغتة أوشك أن يستدير عائدا من حيث أتى إلا أن إيهاب

أمسك بمعصمه وجذبه نحوه ثم سار به ناحية السرير حيث تجلس مها فأشار إليه بإيماءة من عينيه أن يقعد. ولم يكد يستقيم في جلسته حتى استأذنهما إيهاب بالذهاب واعدا مها بزيارتها غدا.

ها أنت إذن وجها لوجه أمام مها، بمفردك كما تمنيت دائما، لكن أين مها التي عرفت، وأين نظراتها الحالمة وابتسامتها الحلوة الشفيفة إليك؟ أنت تبحث عن طيف فتاة اندثر بين ثنايا الحلم ودهاليز الانتظار والانكسار ولم يعد أمامك سوى السراب. أنت أمامها الآن وهي تنظر إليك بوجوم لأنها بكل بساطة لا تعرفك؛ ولعلها تقول الآن في نفسها: «من أتى بهذا الرجل إلي في هذه اللحظة بالذات، ولماذا انسحب بسام وتركه أمامي كلغز محير؟» الكلمات في سباق عارم إلى شفتيك، تود لو تنطلق كرصاصة من فمك دفعة واحدة لتقول لمها ما لم تجرؤ على قوله لها آنفا.. يداك تضطرمان كمرجل على نار وتودان لو تنطلقان كشريطتين حريريتين وتلتفان بعنق مها أو خصرها أو كتفيها أو كلها جملة واحدة.. تودان لو تعتصرانها في عناق جارف كعاشقين توحدا فجأة في لجة الصمت.. شفتاك المنفرجتان تودان لو تلتصقان بشفتيها وتنهلان من رضابها.. وتراءت له مبتسمة أو لعلها ابتسمت له حقا وانفتحت النوافذ أمام عينيه فوجدها قد قفزت إلى عرض النافذة وجذبته من يديه المتشنجتين، وشعر باسترخاء لذيذ وهو ينزل بخفة متناهية من الطابق الثاني إلى أرض الحديقة، وسارت أمامه في ثوب النوم فبدت له كحمامة ترسم بخطاها الرقيقة ذيل الحلم، وأسرعت الخطى فأسرع وراءها، وحدثته نفسه بأن يمسك بيدها أو بذيل ثوبها خشية أن تفلت منه وسط الجموع، ففزعت مها وجفلت منه حين همَّ بأن يمسك معصمها، فقالت له وقد غابت ابتسامتها:

– ما بك كاظم؟ هل أنت بخير؟

واستفاق بسام من توهانه على سؤال مها المفاجئ وصوتها

المفزوع، ففتح عينين هائمتين في فضاء الغرفة وكأنه كان يسبح لوحده في فلاة نائية، فلفت انتباهه منظر مها وقد سحبت الغطاء إليها وغطت كل جسدها وطفقت تنظر إليه وجلة مترقبة، فأدرك بسام أن يديه خانتاه لحظة يقظته الحالمة، فقال لمها بعد أن استعاد إدراكه:

- أعتذر منك، مها، يبدو أنني غفوت فبدرت مني حركة لاإرادية.

فردت عليه مها وقد بدا لها في حالة غير طبيعية:

- يبدو أنك متعب وكأنك لم تنم الليلة.

فرد عليها بصوت مبحوح لا يكاد يبين:

- سأتركك ترتاحين، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء، كاظم.

وصاح صوت مزمجر بداخله: «أنا لست كاظم.. أنا لست كاظم.. أنا بسام.. هل نسيتيني يا مها.. ما الذي يحدث وماذا حدث لك في غيابي؟».

وقبل أن تدرك قدماه عتبة الغرفة أردفت مها قائلة بصوت ناعم رخيم:

- لا تنس أن تبلغ تحياتي لصديقك إياد.

ورن كالطنين الحزين اسم إياد في أذنيه واستحضرت ذاكرته مشاهد بعثرها النسيان في لعبة اعتباطية، فسمعه يقول: «أنا أغبطك يا بسام، صدقني، رغم عدم معرفتي الدقيقة بصديقتك، لكني اكتشفت نقاء سريرتها وأنها عفوية على سجيتها من خلال نظراتها، فالعيون يا بسام مرآة لشخصية الإنسان»، «تراك أحببتها يا إياد في غيابي ووددت لو تكون لك يوما المؤنس والحبيبة والمرفأ الدافئ؟» ثم تراءى لعينيه بنظرات ماكرة وهو يقول له مازحا: «سأسعى إلى البحث عنها بدلك وإذا عثرت عليها سأخطفها منك وأطير بها إلى الربع الخالي من الأرض» ليس للمرء على قلبه سلطان، وإذا كنت أحببتها حقا في

غيابي فإني ألتمس لك بعض العذر في ذلك، ويكفي أن ما في قلبك ظل رابضا فيه ولم يتخط عتباته، وحتى عندما صرخت في وجهي وقلت «سأحرضها عليك..» عدت للتو تستسمحني وتطلب الغفران، وجاء الموت مسرعا، متسللا فاختطفك مني بلا موعد ولا أوان ورحلت عني بصفائك وودك وإخلاصك ومرحك ونزقك الذي كان يعيد لي بعض الحماسة والتشبث بأهداب الدنيا ومتاعها.. أما أنت يا مها، فلم تنسيني قط بل نسيت آخر فصول صداقتنا وتذكرت ذاكرتك فقط أول فصل من فصولها، حين كان الشباب في أوجه وكانت طرابلس الغرب مرتع ذكرياتنا الجميلة ومهد حبنا الأول.. هناك انبثقت شعلة حبنا الأبدي وظلت تنير ولا تزال عتمة حياتي. تعز علي نفسي وأجدني أغرق كل ثانية في وحل بلا مدى.. حتى زواجي الفاشل أخفيته عنك لحاجة لا أكاد أستوعبها أنا شخصيا، وكأني وددت بمعرفتي لك التي تطورت إلى حب كبير أن أنأى بك وبحبنا عن كل أسباب الكدر والمنغصات، وكأني بك بحيرة دافئة، هادئة، أخشى عليها من ذرة رمل أو هبة ريح أو ورقة خريف ميتة تقع على صفحتها فتكدر صفوها وتقلب هدوءها وتنسف نعومتها.. فلن أعاتبك ولن أحاسبك على غفوة ذاكرتك وإني لأعجب من أمر هذه الذاكرة التي قال عنها المرحوم إياد يوما أنها ترد لي الصاع صاعين بدلك وكأنها تقول لي بمكر واستفزاز: «لقد نسيت حبيبتك يوما وألقيت بها جزافا في أيدي القدر وها هو القدر ينوب عنها ويرفع سوطه في وجهك ويقول لك ما لم تستطع مها قوله يوما..» وتناسلت الكلمات وأطياف الكلمات من سراديب نفسه المكدودة فألفى نفسه يلج حانته وحيدا هذه المرة وهو يطرد عبثا شبح الماضي من أمام عينيه ويستل قدميه المتباطئتين من شرنقة الحاضر المقيت. ثم جلس في ركن معتم من الحانة وهو يهرب لا شعوريا من الجلوس عند مائدته

المعتادة التي جمعته في آخر لقاء له بإياد. ورغم أنه ولاها ظهره إلا أن ذاكرته اللجوجة أبت إلا أن تحضر له من مغاور الماضي السحيق مشهدا أثيرا كان قد جمعه بإياد إبان زيارتهما الأولى لمدينة طنجة. وكان إياد يعرف المدينة جيدا ويعرف منتزهاتها وشواطئها الجميلة، فكان أن أخذه يوما إلى شاطئ المريسات الذي تتميز مياهه بصفائها النادر واصطفاف الصخور الملساء البيضاء على طول الشط وكأنها بيض منثور. وقضيا يوما نادرا في ذلك المنتجع الرائق وهما يسبحان ويتراشقان بالمياه اللجينية، وينعمان بزرقة سماء بلورية ووجبة غذاء غنية بالسمك المشوي.. وسكب بسام في جوفه كأسا من الشراب ثم ما لبث أن طلب آخر، وحين أوشك الليل على نصفه قام متثاقلا يجر خطاه إلى بيت إيهاب بيد أن سربا من المشاهد المتشابكة وجوقة من الأصوات المتراطمة تقرع رأسه في أناة محدثة وجعا ثقيلا يخز قلبه المحزون ويثقل خطواته الوئيدة. واصطك المفتاح بصفحة الباب الحديدي، وأبى أن يلج ثقب الباب، وأعاد الكرة مرات ومرات فكان الثقب ينأى عنه كنورس بعيد في شط مهجور. وفجأة انفتح له الباب فبدا له وجه إيهاب مبتسما، فبادره قائلا في تلعثم بين:

- معذرة إياد، أيقظتك من النوم..

فأمسك إيهاب بذراعي والده وأدخله غرفة نومه وقد بدا له من هيأته أنه سكران يهذي. وتألم كثيرا لسماع اسم إياد على لسان أبيه، فأيقن أن وفاته تركت غورا عميقا في صدر أبيه لن يلتئم. وأدرك أن لجوءه إلى الشرب وإسرافه فيه، وهو ما لم يعتده من أبيه خلال معرفته له، إنما هو في العمق تعبير دفين عن رغبة ملحة في النسيان ورفض شديد لأحداث الواقع المرير. ولم يشأ إيهاب أن يتحدث إليه وهو نصب عينيه في وضع غير مريح، فتركه ممددا فوق سريره وأطفأ النور بعد أن أسدل ستائر النافذة، ثم انسحب من الغرفة بهدوء

وأقفل بابها بتؤدة.

وتصرمت ثلاثة أيام أحسها بسام في ثقل الجبال، واضطرمت بدواخله عاصفة من الهواجس أقضت مضجعه وأرقته، فبدا أثر السهاد جليا على محياه وقد انتشرت هالة زرقاء طفيفة حول جفنيه. وحين عاد ليلا من الحانة وجد إيهاب بغرفته يهيئ حقيبته كأنه على أهبة سفر. فسأله وقد ارتاب من مشهد الحقيبة:

- ما الأمر؟ كأنك مسافر.

وتلقى إيهاب سؤال أبيه بارتياب أيضا، وأراد أن يرد على سؤاله فالتصقت الكلمات بحلقه كما لو أنه في قبضة حلم. ونظر إلى والده متحيرا، أيقول له الحقيقة أم يدسها في حناياه ويختلق أي مبرر آخر للسفر؟ وهتف في خاطره صوت يحثه على البوح بنصف الحقيقة، فألفى ذاته يقول لأبيه وعيناه مسمرتان في الفراغ:

- شعرت بالقنوط وأردت أن أسافر إلى إحدى المدن المغربية الجميلة كي أنفض ما في جوفي وصدري من كدر..

- إلا هي ما يجيب كدر.. فكرتك جميلة، في السفر متعة، وهو وسيلة ناجعة لتغيير الأجواء وتجديد المياه في المجاري.

ثم صمت قليلا وأردف:

- لكنك لم تخبرني عن وجهتك، فأي المدن ستقصد إن شاء الله؟

وتلعثم إيهاب قبل أن يجيب قائلا:

- ما زلت لم أحدد وجهتي بالتحديد، لكن ربما أبدأ بمدينة مراكش..

- وهل ستسافر بمفردك؟

- نعم، أفضل أن أسافر بمفردي، فقد تعودت منذ سنوات شبابي الأول على السفر لوحدي.

واستقبل بسام جواب ابنه بارتياح كبير فتنفس الصعداء، وكأنه

كان يتمنى شيئا فاستيقظ فجأة فألفاه حقيقة بين يديه. وتنفس إيهاب الصعداء أيضا ذلك أنه أفلت بيسر من جحيم أسئلة لم يكن على استعداد تام للرد عليها. وسُرَّ لكونه أقفل في وجه أبيه إمكانية أي اقتراح، كأن يقول له مثلا «أود أن أسافر معك». **ما أدهشك أيها القدر، ثلاثون سنة فرقت بيني وبينك يا أبتي ثم هبت فجأة ريح الالتئام فاجتمع شملنا في بلد عربي بعيد.. وسرعان ما انطفأ وهج الشوق والود فأضحى كل منا ينظر إلى نفسه في مرآة ذاته وينتكص كل منا راغبا عن الآخر في بحث عن الذات ورغباتها الخبيئة.. ما أذهلك أيها القدر، وكأنك أردت لنا هذا اللقاء بعد فراق طويل فقط كي نكتشف بعضنا ونطل على ذواتنا الغريبة، المبهمة والمتوحشة في ذهول.**

وفي غمرة فرحته الدفينة وجد بسام ذاته يقول لإيهاب جهرة ومن صميم فؤاده:

– أتمنى لك سفرا سعيدا وممتعا، خذ كامل راحتك واهتم بنفسك ولا تفكر بما يكدرها.

ثم قال لنفسه منتشيا: «أخيرا سيفسح لي المجال كي أتحرك برغبتي وأصلح ما فاتني إصلاحه»، ثم عرج على المطبخ وهو يترنم «أنا باحبه.. وراعي وده.. إن كان في قربه ولا في بعده.. وافضل أمني الروح برضاه.. ألقاه جافاني..» وانسابت المقاطع بصوته عذبة كنبع رقراق ثم أمسك إبريقا وملأه بقدر من الحليب ووضعه على النار ينضج، حتى إذا نضج سكب فيه قدر ملعقة من عشبة اليانسون وهو يتوخى بشربها أن يسترخي كثيرا وينام نومة هادئة مريحة. وكذلك كان، فقد ساعده المشروب على الاسترخاء إلا أن النوم أبى أن يراوده، فهامت مخيلته في فيافي الروح، وجنح به التفكير بعيدا فحلقت ذاكرته في فضاء بانورامي عابرة به كل فصول حياته من الصبا الأول إلى شيخوخته المتثائبة. وتراءت له أم إيهاب واجمة تنظر إليه بصمت، ثم

ابتسمت له ابتسامة غريبة لم يستطع أن يفك لغزها، وانتبه فجأة من يقظته الساهية على طرقات إيهاب الوئيدة على باب غرفته، والتقت عيناهما في الظلام، فقال له ابنه في شبه همس:

- أخشى أن أكون أيقظتك، أود فقط أن أقول لك أنني سأقضي بضعة أيام في سفري قد تتجاوز الأسبوع، فلا تقلق إذا تأخرت قليلا.

ثم أقفل الباب دونه، فعاد بسام إلى هيمانه وكأن كلمات إيهاب لم تصله، ووجد ذاته يتأمل ثانية وجه زوجته المطلقة والذي تراءى له كلغز محير مبهم استعصى عليه فهمه. أهي تبتسم له حقا أم تستفزه بابتسامة ملغزة؟ ودخلت مها لحظتها إلى غرفة نومها، وأقفلت عليها الباب بإحكام، وشرعت تهيئ حقيبتها بتؤدة. وفتحت أبواب الدولاب على مصراعيه، فبدت لها الرفوف مصفوفة بثيابها وقد رتبتها أيدي خالتها بشكل جميل. ففي الرفوف العلوية صفت المعاطف الشتوية والقمصان الصوفية، ذلك أن الفصل فصل صيف ولا حاجة لتركها قريبة من الأيدي. وفي الرفوف التي تحتها رتبت القمصان الصيفية القطنية بشتى ألوانها وأشكالها، وإلى جانبها يوجد مشجب من حديد علقت فيه كل البدلات الصيفية الحريرية. ونزلت أعين مها تلقائيا إلى درج من أدراج الدولاب السفلية ففتحته فوقعت عيناها على بدلات نوم حريرية لم يسبق لها أن ارتدتها، جلها من مقتنيات خالتها أو بنات خالاتها اللواتي كن يحبذن أن تكون هداياهن لمها عبارة عن بدلة نوم حريرية، وكن يقدمن لها هداياهن قائلات:

- هذه البدلة الليلية لا تصلح إلا لعروس في ليلة العمر، وأنا اشتريتها لك كفأل حسن، علَّ القدر يجود عليك بفارس الأحلام.

- تخيلت هذا الثوب الجميل عليك فاشتهيته لك..

- اغمضي عينيك، فهذا الثوب لا يلبس إلا في ليلة العمر..

ووقعت عينا مها على ثوب نوم بلون أسود أخاذ، وتذكرت

صديقتها أسية الجزائرية بجنيف، ورنت كلماتها البليغة في أذنيها كنقر ساحر على آلة وترية. وتراءت لها وهي تقول لها مبتسمة: «لا ترددي في اقتناء هذا الثوب، إنه جميل جدا»، «لا أجده يصلح لي، فهذا الثوب يليق بمتزوجة»، «ستتزوجين يوما، وأنصحك أن تحتفظي به إلى ذلك الحين، فمعظم الرجال يعشقون ثياب النوم باللون الأسود أو الأحمر، فهي ألوان فاقعة تستثير رغباتهم». ووضعت مها الثوب على جسدها وطفقت تتأمل ذاتها في المرآة، وهامت بنظراتها في فلك الماضي فتراءت لها أسية بعيونها الجميلة الحزينة وقد امتلأت مآقيها بالدموع فجأة، «**يوه يا أسية.. كم تنام بعينيك الفجائع أنت التي ما زلت ترين في الحياة متسعا للحب وتنصحينني بالاحتفاظ بثوب النوم الأسود الجميل إلى اليوم الموعود..**».

وانتقلت عيون مها عفويا إلى ثوب آخر شفاف مرقط بالأسود والأصفر وقد انحسرت حواشيه عند الركبة وحفَّ أعطافه الدانتيل الحريري الأسود ونزلت فتحة عنقه إلى وهدة النهدين فأطرت العنق في حجم قلب. وقلبت مها الثوب بين يديها وتشممته وانتابها تعب طفيف دفعها إلى الاسترخاء قليلا فوق السرير. واسترخت مستسلمة إلى غفوة خفيفة وانسدل الثوب الشفاف فوق وجهها كنقاب. وتحرك بسام في سريره وكأن ثوبا شفافا برائحة أخاذة ألقي على وجهه بغتة، وأوشك أن يمرر أصابعه على صفحة وجهه إلا أن صوت مزلاج النافذة صك أذنيه فجأة فتسربت على إثره ريح هزت ستائر الغرفة وحركت بداخله نزوة غريبة. وفتح عينيه على اتساعهما علّه يتبين هوية الداخل فلم ير شيئا على الإطلاق. وازدادت النافذة اتساعا فأضحت مشرعة المدى على أفق عجيب.. وأطل بسام من النافذة مستطلعا فإذا بشبح خفي يستله على حين غرة من غرفته المظلمة ويقذف به توا في نفق طويل حالك مريب. وجاهد نفسه كي يعود سالما إلى غرفته

إلا أن النفق انتهى به إلى وهاد لم تقع عيناه عليه قط.. وتدحرجت قدماه في المنعرجات الوعرة فتورمتا، وانتهى إلى سفح الجبل فانفغر مشدوها إلى انحسار السفح بالشاطئ وتثاؤب الموج المتواتر على حوافيه. وخيل إليه أنه عند شط مصراتة الليبية والموج الوئيد يتكسر رويدا رويدا على حافة الصخر وزمرة من رفاق الرحلة يتصايحون ويتضاحكون ويرشق بعضهم بعضا بذرات الرمل المبللة. وانتبه فجأة على صوت سهيل وهو يسأله «أين صديقتك؟ هل تاهت عنك؟» والتفت بسام تلقائيا ناحية الجبل فإذا بطيف أنثوي يسعى هناك، فتسلل كالريح من بين الجموع وحث خطوه علّهَ يلحق بالطيف، ووجد ذاته يغذ في السير بيد أن الطيف ينأى وحيدا بعيدا نحو المرتفع، وألقى بسام بفردة حذائه في المنحدر ويمّم نحو الأعلى، وسار يدك الجبل بقدميه الحافيتين وعيناه لا تفارقان الطيف بينما الطيف عاكف على الصعود لا يلتفت وكأن مغناطيسا خفيا يجذبه نحو الأعلى بلا هوادة.. وبغتة شعر بسام بأن المسافة تبعد وتتباعد كلما أصر على معاكسة الجبل وتحدي وعورته وارتفاع قمته، وأوشك أن يصيح إلا أن يدا خفية ألجمته فسمع صوتا مبحوحا يحثه على الصعود بروية ودون ضجيج، ولم يجد بدا من المثابرة ومجاهدة النفس على تحمل وعورة الوهاد وقسوة الطبيعة.. وحين وطأت قدماه حزام الجبل الأجرد رأى الطيف منتصبا في قمة الجبل وقد أحاطته هالة من السحاب.. وأمعن النظر إليه فإذا به يشير إليه بالصعود ويمنّيه.. وانخرط بسام في جولة عدو كمجذوب لا يلوي على شيء، وفجأة توقف النفس في صدره فصاح بأعلى بصوته وبكل ما يملك من جهد: «ارحميني يا مها.. كفاك صعودا.. لقد تورمت قدماي وفقدت كل قواي وكادت الروح تهوي مني كقارورة في منحدر..» ولم يكد ينتهي من هذيانه ولهاثه حتى كان الطيف قاب قوسين أو أدنى منه، ومدّ يديه إليه فأمسكه

وصعد به في خفة متناهية صوب قمة الجبل.. وتراءى له الطيف مبتسما كأنه مها في ربيعها العشرين.. ورآها ترفل في ثياب لم تقع عيناه عليها قط.. وأثارته جدا ثيابها الحريرية الشفافة بألوانها الزاهية، وانكشفت له تقاسيم الجسد.. وهمّ بها وهمّت به حين وطأت قدماهما مياه البحيرة الباردة، وودّ لو يستل نفسه ويستلها من جوف البحيرة المريبة، إلا أن أصابعه تشبثت بالثوب، وفجأة اندس كله في جوف البحيرة وأمسك بأعطاف الطيف وطارت روحه فوق السحاب وهو يهيم في ملكوت عجيب.. وسمع صوت مها خافتا من حيث لا يدري فأطلق عقيرته مرددا: «لا تغلقي نوافذك.. سآتيك في حلم جميل.. انتظريني..» ورن صدى كلمات ندية في أذنيه مزقزقا فامتدت يداه إلى معصمها، وارتفع الصوت فجأة فطوقت يداه خصرها، وبدرت منها حركة ممانعة فأطبق بشفتيه على جيدها، وضربته ضربة قوية بقدمها فاشتبكت ساقه بساقها، وشعر بها تحكم قبضة يدها على عنقه فتمنى لو يموت تحت سطوة يدها على أن يموت مختنقا في جوف البحيرة أو وحيدا أعزل عند قدم الجبل. وتسللت أصابعه إلى شفتيها وتحسست شفتاه فجوة نهديها وتراءت له مسترخية وقد أغمضت عينيها فسحرته إغفاءتها واستعرت بصدره كل نزوات الدنيا، فألفى ذاته يقول لها لأول مرة في حياته: «هل تتزوجينني يا مها؟» وانتظر طويلا ردها فرددت الوهاد رجع الصدى متكسرا، وفجأة جاءه ردها مباغتا، مفاجئا، صادما وهي تردد من أعلى قمة الجبل بصوت عال رخيم «لا.. لا.. لا..» وتردد الصدى قويا، مثيرا في الفضاء الممتد كوقع نصل حاد على صخر صلد، والتفت إليها بسام فزعا فإذا بها تحلق بعيدا في ثوب مرقط ميممة صوب رأس الجبل، وود لو يقتفي أثرها ويحلق كطائر أسطوري إلى مملكتها، إلا أن قدميه خانتاه فانزلقتا في المنحدر الوعر في خفة زئبقية. وطفق ينظر إليها في تدحرجه وهي ترتقي نحو الأعلى

بيد أن صوتا رفيعا كان يردد في عذوبة وأناة:

على باب سومر
رأيت النهر يجري
ورأيت البحر فيك وفيَ
والسماء من ذهولها
تسمرت.. ترسل
للشموس.. للبراري،
لنفحة المنافي في دمي
تحايا.. هدايا
وعودا.. نوايا
تنثر في غسق الدواهي
أنسام فرح..
زنابق حلم تترنح
على جسر المروج..

واستفاق بسام من نومه جزعا وقد وطأت قدماه أرض الغرفة قبل أن تنفتح عيناه، ووجد جبينه مبتلا بالعرق، وثياب نومه ملتصقة بجسده، ونفسه يتردد بصدره عاليا وكأنه صعد حقا قمة الجبل وتدحرج في وهاده الوعرة حتى السفح. كانت عضلاته متوعكة ورأسه يؤلمه وكأنه لم ينم الليلة. وتنحنح قليلا في السرير وكل أعضاء جسمه لا تطاوعه في النهوض، فمكث يتأمل فضاء الغرفة وقد تسللت إليه خجولة أشعة الصباح المبكرة. وحاول جاهدا أن يطرد من مخيلته رؤاه الليلية العجيبة، واستغرب بشدة تيقظ ذاكرته وإصرارها اللجوج على استحضار تفاصيل الحلم الغريب. ولما أحس خضة تتوفز بأعصابه

قفز من السرير وكأنه يفر بنفسه من خيوط عناكب تسعى إلى تكبيل قواه. ووجد ذاته في بهو البيت ينظر بإمعان إلى غرفة إيهاب المضاءة، وقصدها دون تردد ففوجئ بها شاغرة، ثم التفت ناحية الحمام فألفاه مشرع الباب مطفئا. وأيقن أن إيهاب غادر البيت مبكرا ونسي أن يطفئ النور. فتأهب للدخول إلى الحمام وهو يتوخى أن يسترخي في حوضه الدافئ ويمسح عن ذاكرته كل الهواجس والهلوسات التي أقضت مضجعه الليلة. وانزبق في الحوض المملوء برغوة الجيل الأزرق وتمدد واسترخى حتى كاد يغفو، ثم شرعت يداه تدلكان جسده المتعب بكيس غاطس برغوة الصابون. ولما انتهى من عملية الدلك امتدت يده إلى الشامبو فصب قليلا منه على فروة شعره الأبيض، فأغمض عينيه تلقائيا وتذكر مشاهد من الصبا الغابر حين كانت أمه تتكفل بحمامه وكان يشاغبها بنزق طفولي طافح، فيعمد إلى إخفاء المشط عنها حين تكون منشغلة بتدليك شعره بالشامبو، وحين تجهد نفسها في البحث عن المشط فتعثر عليه بعد مشقة يخفى عنها الكيس، وحين تكتشف ألاعيبه يغطس كلية في الجفنة المملوءة بالصابون ثم يشرع في رشها بالماء. وشعر بالشامبو يجرح عينيه فامتدت يداه تبحثان عن الرشاش وعيناه مغمضتان. وبحث عنه عبثا فلم يعثر عليه، فاستقام واقفا متجها بخطواته صوب الجهة الأمامية من الحوض، فانزلقت قدماه في حركة لاإرادية وسقط بعنف على شقه الأيمن. مرفقه يؤلمه بشدة ووركه توعك وأخذ يتشرب توا بلون الزرقة. وهو في قمة تألمه طفق يقول لنفسه هاجسا «لعل هذه الرضة العنيفة هي التي ستوقظني من هذياني وتوهاني». إلا أن الرضة لم تقف عند هذا الحد، فما كاد يستقيم واقفا أمام المرآة المعلقة بمسمار على الجدار حتى لمست رؤوس أصابعه، في حركة لاشعورية، حاشية المرآة فسقطت للتو أرضا والتمعت شظاياها في قعر الحوض كشهب مغرية منفلتة، محدثة رنينا

متواترا مزعجا. ومضى بسام ينظر إلى بلاط الحمام بوجوم واستغراب، وشرع يرتدي قميص الحمام بحركات متوعكة وعيناه مسمرتان في البلاط وقدماه تتحاشيان الانزلاق ثانية. وخرج من الحمام وهو يلعن في سره حظه التعس هذا الصباح. وجالت بخاطره الهواجس ثانية بعد أن شعر بوخز مؤلم في صدره. لم يعتد التشاؤم ولا كان متشائما يوما، لكن أحاسيسه هذا الصباح تيقظت في توفز على إثر سقطة الحمام وتكسر المرآة الفجائي. وفكر في تحضير فطوره في البيت ثم تراجع عن فكرته توا وكأنه يهرب بنفسه من حدوث الأسوأ. وفجأة وجد ذاته في أحد مقاهيه المفضلة التي اعتاد أن يحتسي بها فنجان قهوة الصباح، وألفى الجريدة ملقاة على عرض المائدة فقلبها، وسقطت نظراته على مقال ذكّره بتفاصيل حديث إياد قبل وفاته ببضعة أيام فقط حين وصف الأمر بالحوَل السياسي، ثم عرجت ذاكرته على سراديب أحاديث أخرى اقترنت بذات الموضوع فابتسم تلقائيا وهو يسترجع كلمات إياد البليغة والذي عمم ظاهرة الحوَل على الأفراد أيضا فأضحى يرى في بعضهم حوَلا عاطفيا وفي بعضهم الآخر حوَلا ثقافيا. وجاءه النادل بقهوته الإكسبريس فرشف منها رشفة وهامت ذاكرته في منعرجات الماضي القريب فتراءت له مها مبتسمة ذات صباح بسروال دجينز أبيض وقميص بنفسجي فاتح وقد ارتسمت الابتسامة في عينيها الموحيتين. ونظر إليها نظرة اشتهاء، وتركزت نظراته ناحية الخصر والأرداف، فقال لها وقد علت الابتسامة شفتيه: «ما رأيت أجمل منك بالدجينز» واستقبلت غزله في البدء بنظرات حيادية، إلا أنها ابتسمت بعدها تلقائيا وهي تقول له: «أما أنا فلا رأيت أجرأ منك أيها المارد». وانساب الحديث بينهما عفويا ذاك الصباح فتسربلت تفاصيله ببهارات الأدب والسياسة ومدى اقترانهما ببعضهما، وسمعته يقول لها ضاحكا:

- هل تابعت الانتخابات البرلمانية الأخيرة؟

- نعم..

- كيف بدت لك الأمور؟

وتوقفت مها لحظة وتأملته بهدوء، ثم قالت له وقد سبقتها ضحكتها:

- لعل أطرف ما سمعت ترشح «فقيه» للانتخابات، ليس الفقيه بالمعنى المتداول عندكم في الشرق ولكن بالمفهوم المتداول عندنا في المغرب، يعني ذلك الشيخ الذي يكتب التعاويذ والرقيات..

- وما الغريب في الأمر؟ إنه حقه الدستوري، وهو حر في أن يرشح نفسه أو يصوت لمن يشاء.

- لا أقصد ما ذهب إليه تخمينك، فالقانون يخول للجميع حق الترشح والتصويت، إلا أن ما أضحكني كثيرا هو تعليق أحدهم في إحدى الجرائد اليومية بقوله: «أو مالو، خليه يرشح راسه للبرلمان، يا كما تكون منه الفايدة ويفوسخ لينا البرلمان بالجاوي وريح صلبان».

- أما أنا فأطرف ما أضحكني هو ترشح أحد الشعراء الذي كان ولا يزال مبتدئا، وحين أمضى سبع سنوات في ابتدائية الشعر ولم يستطع أن يلج عتباته فكّر بخلق صالون أدبي يحج إليه زمرة من زملائه الذين يسيرون على منواله. إلا أن الحظ عاكسه ففشل مشروع الصالون في مهده، وصادف أن التقى في خط تماس مع الحملة الانتخابية الجديدة فرشح نفسه للانتخابات البرلمانية وهو يحلم هذه المرة أن يحظى بثقة الشعب.. ويبدو أن صاحبنا قد تفنن كثيرا في مجال الأدب والسياسة فأضحى متمرسا ومحترفا أيضا لفن الاختلاسات والسرقات الأدبية التي تخطت مرحلة سرقة الأبيات والمقاطع الشعرية لتتعداها إلى اختلاس الإهداءات أيضا، فدبج يوما إهداء في أحد دواوينه فوجدته يقول مخاطبا أمه وهو يجهل تماما

ما يقول: «إلى التي غارت في ظلمات المنون..» مع أن أمه ما تزال على قيد الحياة تسعى وتكد.

وضحكت مها ملء فيها وأردفت:

- هل سمعت بتلك الطرفة التي تحكي عن ذلك الرجل الذي رشح نفسه للانتخابات، و«شرشح» ذاته مع ثلة من المسترزقين أثناء الحملة، فطبلوا له وزمروا وهتفوا باسمه ورفعوه فوق الأكتاف وكأنه عريس في ليلة العمر.. وحين أزفت لحظة فرز الأصوات وتم فتح الصناديق لم يعثر فيها سوى على ورقته اليتيمة بمفردها، فحتى زوجته وأولاده خذلوه، وحتى أولئك الذين طبلوا له وزمروا لم يصوتوا عليه.

ورشف بسام رشفته الأخيرة من فنجان القهوة ورن بأذنيه صدى كلمات إيهاب الذي نصحه يوما بزيارة خالة مها حين تكون هذه الأخيرة قد تخطت مرحلة النقاهة وعادت إلى حياتها العملية المعتادة. فقفز من كرسيه مستعجلا وأشار للنادل بأخذ ثمن القهوة من على المائدة. وسار يحث الخطى صوب المدينة القديمة وهسهسة أحاديث مبثوثة في تلافيف الذاكرة تدغدغ أذنيه بتؤدة. وتخيل ذاته وجها لوجه أمام خالة مها على عتبة البيت وهو يقول لها: «أنا بسام، صديق مها، لا شك أنك تذكرينني، فقد شاءت الأقدار أن تجمعنا تحت سقف واحد بالمشفى حين كانت مها مريضة.. لست أدري كيف أبدأ حديثي إليك لكني أود أن أقول لك في البدء أن مها هي صديقة العمر التي أحببتها من صميم الفؤاد وأسعى لإسعادها بكل ما أملك من جهد، ونظرا لمكانتها الرفيعة في نفسي فقد ارتأيت أن أفضي لك بما رأيته في شأنها وهالني.. والحقيقة أنني لا أدري إن كنتِ قد خلصتِ إلى نفس خلاصاتي لكني جئتك اليوم بعد تفكير طويل وتجرأت وطرقت بابك لأحدثك في أمر جلل أفزعني، ذلك أنني لاحظت من خلال حديثي مع مها في المشفى أنها قد تكون فقدت

جزءا من ذاكرتها، فهي لم تتذكرني بيد أنها تذكرت جل من زارها.. وهـذا الأمـر بالـذات أزعجنـي وأقلقني كثيـرا إلى درجة الأرق.. وإني أقترح عليك بعد أن تتأكدي جيدا من صواب ملاحظتي أن تعرضيها على طبيب مختص عله يجد لها علاجا يساعدها على استرجاع ذاكرتها المنسـية..» واضطربت الأفكار بذهن بسـام حين انتبه إلى حركة غير معتادة لعابرين يعرجون مهرولين ناحية الزقاق المعلوم. والتفت يمنة فـإذا بالمهبـول يمـرق حـذاءه بسـرعة في اتجـاه الزقاق دون أن يلتفت مما أثار بسام. فأمر المهبول بدا لبسام غير مألوف، ذلك أنه لم يعهده قط على هذا النحو من القصد. فقد تعوّد منه مشيته البطيئة المتلكئة، وإصراره على الاستجداء، وهو اليوم يمر كسهم خاطف دون أن يمد يده لأحد أو يتوسل لأحد أو يرتل أهازيجه الملغزة. وارتفعت همهمته بكلام مسـموع غير مفهوم، فوجد بسـام نفسـه يهرول مع المهرولين ويسـعى جادا للحاق بالمهبول علّه يلتقط منه همسـا أو بوحا يكشـف له الستار عما غمض له في سلوك المهبول والعابرين المتبرمين على السواء. وانعطف بسام ناحية الزقاق حيث منزل مها وخالتها فصكت آذانـه كلمـات المهبـول الـذي بـدا له يهذي وكأنـه على حافة الخرف، فتبين من كلماته المضغوطة جملة تعابير أثارت الدهشة والذهول في نفسه وهو يكررها بلا كلل:

رحلتِ يا الحبيبة كِـ شمس العشي الخجلانة
وبقات الدنيا من بعدك مظلامة
كيف ندخل هاذ الزقاق يا ناس
وشمس نهاره لبستها غيامة؟

واسـتغرب بسـام أيما اسـتغراب وهو يتلقف على لسـان المهبول كلمـات ذات معانـي عميقـة، وتسـاءل فـي أعماقه هـل يكون المهبول

عاشقا يبكي رحيل معشوقته بهذه الكلمات المفجوعة؟ وأثاره مشهد المهبول وقد جلس القرفصاء ميمما وجهه صوب منزل مها. ثم فغر فاه وهو يلحظ بشكل بيّن مروق الناس عفويا إلى منزل مها وقد ارتسمت على ملامحهم صفة التبرم والتجهم. وكان بسام لا يزال يبعد بضعة أمتار عن عتبة البيت حين مرّ بجانبه رجل أربعيني يحمل لوحا على كتفيه وقد كساه كلية بثوب أخضر، وعرج على نفس الزقاق بخطوات سريعة وهو لا يكاد يتطلع إلى هامات المارة. وتسمرت نظرات بسام حين رأى صاحب اللوح يدنو من بيت مها ويكشف بتؤدة عن هيكل اللوح المصقول ثم يضع الثوب تحت إبطه تاركا اللوح مسنودا على حافة الجدار. وسبقته خطواته تعدو فألفى ذاته في الزاوية المقابلة تماما لعتبة المنزل المشرع على مصراعيه. وشدّه مشهد اللوح المسمر على الجدار كشرطي أمرد غير مرغوب فيه، وصوت نحيب خافت قادم من عمق الدار.. وشعر بقدميه تهويان به في جوف الأرض ودقات قلبه تتسارع في صدره حين التقت عيناه بزمرة من الجارات المكتئبات، المنتحبات في صمت.. وأراد أن يستيقن منهن عن سر المصاب فوجد حلقه ناشفا، ولسانه قد غار في جوفه يأبى النطق بالكلام. واتجهت عيناه تلقائيا صوب المهبول فنظر إليه نظرة عميقة وطفق يردد على مسامعه بنفس متقطع خافت:

ها هي ذي الحبيبة عطات بالظهر
وخلات لينا هاذ الدنيا البايرة
لا تبكي اليوم ولا تنوح
راه برحيلها على غفلة
خلات لينا موّال حزين
يدمي القلوب الهايمة

ويرتل في الأيام الخالية
سيرة عروس قضت عمرها كله
تتسنى ريح الأحباب تهب
وملّي شعشع في القلب
لهيب العشق المخذول
عطات بالظهر وراحت
لذيك الدار الدايمة..

واشتعلت بحنايا بسام ألسنة لهب شرسة طفقت تمزق خلايا قلبه بضراوة، وفقد القدرة على الكلام ولم يعد بوسعه الدنو من عتبة البيت ولا طرح السؤال على العابرين. لقد استقبل أهزوجة المهبول الغارقة في الشجن كرسالة بليغة تغنيه عن السؤال وانتظار الجواب القاطع. وأخذ يسير القهقرى وعيناه من روع ما رأى وسمع كاسفتان، غائمتان لا تكادان تريان شيئا. ولم يدر كيف ألفى ظهره متكئا على جدار قبالة الزقاق وقدماه مسمرتان في الأرض تأبيان الحركة والركض. وظل يخامر نفسه هاجس أمل، فراوده الشك في أن يكون الهالك زوج خالة مها أو الخالة ذاتها، وبقي هذا الأمل يؤنس حناياه وهو ينتظر كما على صراط مروق النعش كي يقطع دابر الشك باليقين البين. وتراءت لعينيه مها مبتهجة ترفل في ثوب حريري مرقط وتشير إليه بإلحاح أن يصعد إلى قمة الجبل حيث تتراقص كتل السحب البيضاء. ثم سمع صوتها عذبا يقول له بغنج: «ماذا سيكون من أمرك إذا رحلت من حياتك؟» واهتز بعنف على صوت زغرودة طويلة صدرت فجأة من بيت المأتم، وتبع الصوت المرنم بزوغ نعش مسربل بثوب أخضر، وطفقت تتناثر من على سطح البيت شذرات أزهار بيضاء تساقطت متهادية كندف ثلج فوق النعش وفوق رؤوس المشيعين. وهرول المهبول خلف النعش

بخطوات متباطئة ولسان حاله يقول:

رحلتِ يا الحبيبة كِـ شمس العشي الخجلانة
كيف نرجع لهاذ الزقاق يا ناس
وشمس نهاره لبستها غيامة؟

والتفت بسام بغتة ناحية عتبة البيت فتراءى له طيف مها يسير الهوينى خلف النعش وينظر إلى المشيعين بابتسامة مشرقة، غامضة. وذهلت عيناه من هول ما رأى فأوشكت يداه أن تمتدا إلى أعطافها وتستلاها من بين جمهور المشيعين كشعرة من العجين، ورآها تدنو منه وتهمس في أذنيه بكلام مبهم، فأصاخ السمع، فإذا بأصداء كلمات متكسرة تتسرب إلى أذنيه وكأنها خرير جدول تضاءل نبعه فجأة، فسمعها تقول بصوت واهن لكن بإصرار:

تلك أنا فلا تعجب لكوني
في النهر أجر أحزان العذارى،
وأجر طيفي المضمخ بعبق الظلال
وطيفك الغافي في مخافر الأشجان..

وجرى خلفها كممسوس ناحية المحيط، فإذا بنهر يجري، وبحر ممتد منها إليه يهدر، وتلال من عليائها تنحني سنبلة زرع ملأى.. والبحر يسير نحوه.. خلفه.. يطوقه بمناديل الذكرى.. يعبر دهاليز النشوة الحيرى.. ويسكر من نفحة المنافي في دمها..

للتواصل مع المؤلف

بريد إلكتروني rimedalal@gmail.com